مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

الأعمال الإبداعية

الباب المفتوح

د. لطيفة الزيات

الحائزة على جائزة

الدولة التقديرية ١٩٩٦

الهيئة المصرية

العامة للكتاب



الباب المفتوح

مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

الباب المفتوح
د. لطيفة الزيات

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

الانجاز الطباعي والفني
محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الباب المفتوح

د. لطيفة الزيات

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق باسعار رمزية اثبتت التجربة ان الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على ان ياخذ مكانه اللائق بين الامم فى عالم اصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

كانت الامسية أمسية ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ والساعة السابعة ، والهواء ساكن فيه برودة محببة والجو نظيف كما لو كانت السماء قد أمطرت وغسلت الارض . والقاهرة على غير عهدها لا تتلألأ بالأنوار والناس على غير عهدهم لا يزدحمون فى شوارعها الرئيسية يدخلون دور السينما والمحال العامة ويخرجون منها ويتوقفون عند محطات الاوتوبيس والترام .

كانت دور السينما مضربة وكذلك المحال العامة والاوتوبيس والترام . وسيارات البوليس تمر فى الشوارع ببطء محملة بجنود مسلحين بالبنادق والمارة قلائل جماعات من اثنين أو ثلاثة أو أربعة يسيرون فى الشوارع فى بطء أو يقفون عند مفارق الطرق ويتحدثون ، يتحدثون بلهجات متباينة ، وبمستويات لغوية مختلفة ، ولكن الحديث يدور حول نفس الموضوع حول ما حدث فى الصباح فى ميدان الاسماعيلية :

.. يا سيدى التصادم ماجاش صدفه ، التحرش كان مقصود ، مظاهرة من ٤٠٠٠٠ شخص ، مظاهرة قايمة أساسا ضد الانجليز يقوم الانجليز يخرجولها خمس عربيات مسلحة تمر وسطها .

.. فوتك انت احنا برضه بلد الجدعنة ، العربية دهست الواد من هنا والتلاميذ رفعوا قميصه بالدم والخلق تقولش اتجننت ، هجمت على عربيات الانجليز فرتكتها وبقوا يرموا جثتهم على مدافع الانجليز تقولشى مدافع حلاوة .

.. أنا شخصيا أعتقد أن المظاهرة دى كانت مرحلة جديدة من مراحل كفاحنا الوطنى ، أول حاجة ـ اصطدام مباشر مع الانجليز ، تانى حاجة الجيش امتنع عن تفريق المظاهرة ـ ومش بس كده ، عربيات الجيش كانت ماشية فى البلد وعليها شعارات وطنية .

.. ثم اشتراك العمال مع الطلبة والشعب كله .

.. بقول لك أنا دى بلد الجدعنة ، دا حتى النسوان خرجت من بيوتها .. شفت النسوان فى باب الشعرية .

•• المهم السلاح ، الرصاص كان نازل من المعسكرات والشعب أعزل ، لو كان الشعب مسلح !

•• طيب شفت يا بنى الطوب لما نزل على الانجليز زى المطر ، ياخوى أنا باستعجب الخلق جاب الطوب دا كله منين ؟

•• طيب ولما ولعوا النـــار فى الحواجز اللى الانجليز مستخبية وراها •

•• الواد من دول كان يقلع جلابيته ويغرقها فى البنزين ويولعها النار تشعلل ، حتاكل جتته ولا يهمه ، ويزحف والرصاص نازل عليه زى المطر ولا يهمه ويزحف هاجم على ••

•• الهموم النهارده ماكانش موجه ضد الانجليز بس ، الهجوم كان ضد الانجليز والملك وعملاء الاستعمار على العموم ، ودى مرحلة جديدة من مراحل الوعى الوطنى ، دا رأيى أنا شخصيا ••

•• أنا شخصيا لو عشت ميت سنة مش حانسى المنظر اللى شفته فى سليمان باشا •

•• أعلام •• أعلام من دم ، دم اللى ماتوا وانجرحوا عشان مصر •

•• ٢٣ ماتوا و ١٢٢ انجرحوا

* * * *

وبالنسبة لهولاء الناس كانت المعركة قد انتهت والمكاسب والخسائر قد تحددت ، ولكن المعركة لم تكن قد انتهت بعد ولا تحددت الخسائر بالنسبة لعائله محمد أفندى سليمان الموظف بالمالية والذى يسكن بالمنزل رقم ٣ بشارع يعقوب بالسيدة زينب •

وفى الصالة على كرسى أسيوطى مواجه للباب الخارجى جلس سليمان أفندى يتمتم بآيات قرآنية ويتوقف ما بين الحين والحين ليرهف السمع لخطوات على السلم تقترب من باب الشقة ويركز عينيه الرماديتين على الباب ويجمد وجهه ولكن الخطوات ما تلبث أن تتجاوز باب الشقة الى الادوار العليا ، وتنهدل كتفاه ويشتد وجهه الابيض شحوبا وتبدو فيـه نقط حمراء ثم يعود يتمتم بالآيات القرآنية •

وفى نافذة حجرة الاستقبال المجاورة للصالة وقفت زوجته ، سيدة

بيضاء مليحة ممتلئة قصيرة ، وقد تدلى نصفها الاعلى من النافذة وتركز كيانها في عينيها الصغيرتين العسليتين ٠٠ عينيهـا اللتين تدوران فى محجريهما الى اليمين والى الشمال وتمتدان حتى تكادا تخترقان ظلمـة الطريق ٠

وفى وسط حجرة الاستقبال أمام مائدة مستديرة وقفت ليلى ، فتاة فى الحادية عشرة من عمرها سمراء مليئة ويدها تعبث فى حركة آلية بصندوق خشبى للسجائر ، وعيناها اللامعتان تنظران بعيـدا ٠٠ الى لا شيء ٠ وطرقت ليلى غطاء صندوق السجائر في عنف وسارت الى الصالة فى خطوات ثابتة وجاوزت أباها حيث يجلس واتجهت الى باب الشقة ووضعت يدها على المزلاج ٠

وارتجفت شفتا الاب وشحب وجهه ورفع اليها عينين باهتتين كأنهما عينا ميت وقال بصوت مختنق :

ـ رايحه فين ؟

وقالت هى فى صوت فيه نبرة تحدى :

ـ رايحه أفتش على محمود ٠

ولمعت عينا الاب الرماديتان وهلة ، ثم أغمضهما وقال فى صوت متهالك :

ـ امشى ادخلى جوه ٠

وعزز كلامه باشارة من يده وكأنما شعر بضعفه ٠

واقتربت منه ليلى ووقفت الى جانبه ، وأرادت أن تقول له شيئا ولكنها لم تستطع ، ومدت يدها تريد أن تضعها على كتفه ، ولكن يدها وقفت فى منتصف الطريق وبقيت وهلة معلقة فى الهواء ثم سقطت الى جانبها ٠٠ وجرت ليلى والدموع تغطى عينيهـا الى أمهـا فى حجرة الاستقبال وأمسكت بذراعها وهمست :

ـ ماما ٠٠ ماما ٠

وارتجفت الام وكأن تيـارا كهربائيـا قد مسها واستدارت وقد ارتسم الرعب على وجهها تقول فى صوت ملهوف :

ـ ايه ؟ فيه ايه ؟

ـ ماتخافيش يا ماما ، ماتخافيش • أنا عارفه ان محمود بخير • دلوقتى ييجى ، ضرورى ييجى ضرورى ، الصبح ••

وخنقتها الدموع ولم تستطع أن تكمل

وتململ أبوها فى جلسته •• الصبح ، الصبح قلت له :

ـ ما تخرجش يا محمود •

وعند الباب وقف •• طولى :

ـ ماتخافش يا بابا ، دى مظاهرة سلمية •

ـ يعنى المظاهرة مش حاتقوم من غيرك ؟

وضحك محمود وقال :

ـ طيب يا بابا لما كل واحد يقول كده ، ماهى ماتقومش فعلا •

ـ انت صغير ، لما تبقى تروح الجامعة ابقى اعمل اللى انت عايز تعمله •

ـ أنا مش عيل أنا فى رابعة ثانوى وعندى النهارده ١٧ سنة ••

وجز الاب على شفته السفلى بأسنانه ، لو ضربه ، لو حبسه ، لو رماه فى حجرة وأخذ مفتاحها لعرف مكانه الآن على الاقل • لو بلغ البوليس الآن لقبض عليه ، ولو قبض عليه •• انه صدقى ، صدقى باشا الذى يدفن الناس أحياء • ولكن ماذا يعمل ؟ قد يكون مجروحا •• قد يكون ••

ودمدم الاب وهو يخذى الشيطان

وبدأت الساعة المعلقة فى الصالة تدق والأم تنصت لدقاتها ، وتنفسها يكاد يتوقف ، وأعلنت الساعة السابعة وجمدت الام فى مكانها لحظة ثم اندفعت الى الصالة ووقفت أمام زوجها تنظر اليه بعينين زائغتين وتقول :

ـ الولد راح •• راح خلاص راح !

وهى تضرب كفا بكف دون أن يسمع للضربة صوتا •

وفجأة اكتسبت ملامحها اللينة الضعيفة صرامة غريبة وهى تقول :

ـ ان ماكنتش حاتنزل ٠٠

وماتت الكلمات على شفتى الام وقام الاب من مكانه مضطربا ٠٠ على السلم اتضحت خطوات ، خطوات أكثر من شخص خطوات ثقيلة بطيئة ، خطوات تزحف ٠٠ وجرت ليلى الى الباب وخلفها الاب واندفعت الى السلم وصرخت : محمود ٠

وفقدت الام توازنها وكادت تسقط ولكنها استندت الى حافة المقعد ٠٠

وعندما دخل محمود مستندا الى كتف عصام سقطت على الارض مغشيا عليها ٠

***

وفى صباح اليوم التالى طلبت ليلى أن ترى أخاها قبل أن تذهب الى المدرسة ، ونظرت اليها أمها بعينين حمراويين منتفختين نظرة غريبة وكأنها تخفى سرا وأخبرتها بصوت هامس أن محمود ما زال نائما ، وانزعجت ليلى من نظرة أمها وطريقتها فى الكلام :

ـ فيه ايه يا ماما ؟

ومالت الام على ليلى وقالت بنفس الصوت الهامس وقد جملت عيناها وكأنها ترى مسدسا مصوبا اليها :

ـ رصاصة ، رصاصة دخلت فى فخده ٠

ـ طيب ما أنا عارفه ٠

وتدخل الاب فى المناقشة والصابون يغطى وجه وقال وهو يوجه الكلام الى الام :

ـ حاكم انتى تحبى تهولى كل حاجة ، قلت لك الدكتور قال انه جرح بسيط ٠٠ خدش ٠

وأشاحت الام بيدها تستبعد كلام الاب وسارت تصرف شئون

البيت على أطراف أصابعها والنظرة الغريبة فى عينيها وكأنها تخفى سرا ..

وهزت ليلى كتفها ووقفت أمام باب الشقة فى انتظار ابنة خالتها جميلة التى تسكن فى الدور السابع من نفس العمارة ، وفتحت ليلى الباب عندما لمحت يد جميلة تمتد من خلف الزجاج لتضرب الجرس وخرجت وأقفلت الباب خلفها فى بطء وحرص شديدين .

وعلى السلم قالت جميلة :

- مالك يا ليلى ؟

- مافيش .

- لأ والنبى صحيح ..

وخرجتا الى الشارع فى طريقهما الى المدرسة وقالت ليلى :

- أما امبارح كان يوم !!

- ليه ؟ كان فيه ايه ؟

وضربت ليلى على صدرها بيدها وهى تقول :

- هو عصام ما قالش ؟

وقالت جميلة فى انزعاج :

- قال ايه ؟

وشردت عينا ليلى فى حركة تمثيلية وهى تقول فى صوت هامس

- على اللى حصل لمحمود ، محمود أخويا .

وتوقفت جميلة وقد بلغ بها الانزعاج أقصاه وقالت :

- ماله ، ماله محمود ؟

وجمدت عينا ليلى كأنها ترى مسدسا مصوبا اليها ومالت على جميلة وهى تقول بصوت هامس وببطء :

- رصاصة .. رصاصة دخلت فى فخده .

وسقطت الحقيبة من يد جميلة ، ونظرت اليها ليلى لحظة ثم تابعت المشى وجرت خلفها جميله وأنفاسها متقطعة .

- رصاصة ! والرصاصة دى جت له ازاى ؟

ورفعت ليلى رأسها .

- الانجليز ضربوه .. ضربوه عشان وطنى ، عشان بطل .

- ضربوه ؟ ضربوه فين !

- هو انت ماتعرفيش حاجة أبدا يا جميلة ! فى المظاهرة بتاعة امبارح فى ميدان الاسماعيلية .

- والدكتور قال ايه ؟ مش يمكن حاجة بسيطة ؟

وأرادت ليلى أن تخبر جميلة بما قاله الطبيب وبما أكده أبوها ، ولكنها رأت نظرة الخوف فى عينيها والاكبار وبدلا من أن تقول الحقيقة قالت وهما تدخلان باب المدرسة

- حيقول ايه ؟.. رصاصة !

رصاصة .. وطنى .. مظاهرة .. وانتشر الخبر فى المدرسة ، ووجدت ليلى نفسها وهى التلميذة فى أولى ثانوى موضعا للاهتمام والاعجاب طول النهار ، البنات الكبار يتلففن حولها والمدرسات يستوقفنها فى الممرات يسألنها وتجيب . وانتشت ليلى وانطلقت ، انطلق خيالها اسمه ؟ محمود سليمان . عمره ؟ ١٧ سنة . ومارحش المستشفى ليه يا ليلى ؟ يروح المستشفى ازاى ، دا يقبضوا عليه . أمال عمل ايه ؟.. ساعة ما انجرح برضه فضل يضرب فى الانجليز يضرب والدم ينزل منه ، صاحبه يقول له كفاية ، مافيش فايدة . وبعدين فضل وراه لغاية ما جرجره على بيته فى عمارة استرا ، وجاب له دكتور قريبه عشان ماحدش يعرف ، وفضل مستخبى لما الدنيا تضلم ، لو كان خرج فى النور وهو مجروح كده .. يا خبر !

وفى نهاية اليوم الدراسى كان محمود أسطورة فى المدرسة ، كان هو الذى أشعل النار فى العربات الجيب ، وفى الحواجز التى اختفى خلفها الانجليز . وهو .. وهو ..

* * * *

وشعرت ليلى وهى تخرج من باب المدرسة بأسف لانتهاء اليــــوم الدراسى · وعند الباب استوقفتها عنايات وهى تشد على خصرها النحيل حزاما من الجلد الاسود وترسل شعرها فى خصلات على جبينها ·

وتورد وجه ليلى ·· كانت كل فتاة فى فصلها تتمنى أن تكلمها عنايات ·

وقالت عنايات وهى تعبث بطرف حذائها العالى فى الرمل :

— محمود أخوكى شكله ايه يا ليلى ؟

وبدا الارتباك على وجه ليلى ، وقالت عنايات :

— يعنى أسمر أبيض ، طويل قصير ؟

— لا هو أسمر ولا أبيض ولا هو طويل ولا قصير

وضحكت عنايات ومالت برأسها الى كتفها ·

— حلو !

واحمر وجه ليلى ثم رفعت وجهها مبتسمة فى تحدى :

— زى القمر ·

ولتدلل على كلامها أبرزت صورة محمود من الحليـــة المعلقة فى صدرها ·

ودرست عنايات الصورة فى تمعن ثم ضمت شفتيها وقالت :

— مش بطال ، جذاب ·

وأخذت ليلى الحلية ولبستها فى رقبتها وهى تنظر الى الارض ثم رفعت رأسها فجأة ·

— حا أقول لمحمود ، عنايات بتقول عليك جذاب ·

— وهو محمود يعرفنى منين ؟

— كل طلبه الخديوى اسماعيل بيعرفوك ، وكمان بيقولوا انك ملكة جمال السنية ·

وضحكت عنايات فى رضا ، ثم قرصت خد ليلى :

- اوعى يا ليلى .. أحسن أزعل منك .

ودبت ليلى على الارض بقدمها :

- حا أقول ، حا أقول .

وانطلقت تجرى الى البيت واندفعت الى حجرة محمود :

- محمود ..

* * * *

ولم تكمل ، شعرت أن الجو مكهرب ، كان محمود نائما على جنبه مواجها للحائط وعيناه مسمرتان عليها ، وكأنه لم يتحرك منذ الأمس ، لم يغير موضعه . وعصام ابن خالتها يجلس على حافة السرير وهو يحك ذقنه بيده والى جانبه وقفت أمها وفى يدها كوب من الليمون . وقالت الام :

- قوم يابني ، قوم بل ريقك .

ولم يبد على محمود ما يدل على أنه قد سمع .

وتقدمت الام ووضعت الليمون على مائدة قريبة ، ومالت على السرير ومدت يدها تتحسس جبين محمود :

- مالك يابنى ، طمنى ؟ فيك أيه ؟ حاسس بأيه ؟

وأربد وجه محمود وقال دون أن يستدير :

- ما فيش .

- مافيش ازاى ؟

والتفتت الام الى عصام :

- عاجبك الحالة دى يا عصام ! أهو من ساعة ماجه وهو مكتوم الكتمة السودة دى !

وفجأة استدار محمود على السرير وجلس وواجه أمه وهو يصيح بصوت أعلى من صوته ، صوت يجد صعوبة فى اخراجه من حنجرته :

- عشان ايه الدوشة دي ؟ عشان ايه ؟ قلت لك خدش ، لعب عيال .. لعب عيال ..

وانهار صوته وهو يكرر الكلمتين الاخيرتين وسقط على ظهره منهكا · ورمقتــه أمه لحظة ·· كان وجهه شاحب البياض وعينــاه الخضراوان واسعتين لامعتين كأنه محموم ، وحبات العرق تتجمع على جبينه ·· وفتحت الام فمها لتقول شيئا ثم أطبقته واستدارت خارجة وعندما وصلت الى الباب قال محمود بصوت ضعيف :

ـ ماما ··

وعادت الام ووقفت على مبعدة منه ، وجلس محمود فى السرير وأشار لها أن تقترب ، وعندما أصبحت على مقربة منه مال عليها بوجهه وكأنه يسر لها بشيء وقال بصوت هامس :

ـ عارفه ، عارفه لما تدبحى الفرخة ، والدم يسيح والفرخة ترفس دقيقة ، دقيقة واحدة وتسكت على طول ·· تخلص ·

واربدت عينا محمود وانقلب وجهه ونزل بقبضته على المائدةالمجاورة للسرير وهو يقول بصوت يختلط به العويل :

ـ ناس كتير ماتوا ·· ماتوا بالشكل ده ·

وقالت أمه :

ـ أحسن لك تنام شويه يا محمود ·

ومدت يديها الى كتفيه تريد أن تساعده على الاسترخاء ، ونحى هو يدها عنه فى بطء وعيناه تبحثان عن عينى عصام :

ـ ليه ؟ ليه يا عصام ؟

وهز عصام كتفه وقال بصوت هادئ :

ـ ليه ايه ؟

وهز محمود رأسه لحظة وكأنه يفيق من كابوس ، وأسند رأســه الى ظهر السرير وقال :

ـ مافيش ·

وخرجت الام من الغرفة وحلت ليلى محلها الى جانب المائدة المجاورة للسرير ووقفت تنظر الى محمود فى وجوم ·

وساد السكون لحظة ثم قال عصام :

ـ يعنى مش عايز تتكلم !

ـ وايه الفايدة ؟ لو قلت لك مش حاتفهم ، انت راجل كلك عقل وحكمة واتزان ·· راجل ماينـدفعش ، مايضعفش ·

ـ بلاش تريقة وحياة أبوك ·

وابتسم محمود ابتسامة خفيفة وتسللت الحمرة الى وجهـــه وهو يقول :

ـ أنت عارف يا عصام أنا حاسس بأيه ؟ أنا حاسس كأني انضربت علقة ، علقة حامية ، وماقدرتش أضرب اللى ضربني ؛ ماقدرتش حتى أصرخ ··

وارتجفت شفتا ليلى وتقلص وجهها تقلصات متتالية كأنها تعانى ألما داخليا وقال عصام :

ـ يوم ما حيكون السلاح في ايدنا مش ··

وقاطعته ليلى صارخة : محمود ، واندفعت الى أخيها وقالت فى صوت باك وهى تهز كتفيه :

ـ محمود ·· انت اللى ضربت الانجليز مش هم اللى ضربوك ·· أنت ·· أنت يا محمود ·

ولم يجب محمود ، واستدارت هى برأسها الى عصام ويديها على كتف محمود وقالت فى استعطاف :

ـ عصام ، محمود هو اللى ضرب الانجليز · مش كده يا عصام ؟

وقال عصام وهو يبتسم باستخفاف :

ـ ودى عايزة كلام ·

ولم تقتنع ليلى ، استدارت الى محمود وقالت بصوت مختنق :

ـ أنت ، أنت يا محمود أنت ·

وحاول محمود أن يتجنب عينيها ولكنهما واجهتاه وفيهما مزيج من

الامل واليأس المميت •• ودفن رأسها فى كتفه وقال وهو ينظر بعيدا :

ـ أيوه يا ليلى •• احنا اللى ضربنا الانجليز •

وضحكت ليلى على كتفه وضحكات متلاحقة مختلطة بالنشيج ثم رفعت رأسها مبتسمة وقالت والدموع تلمع فى عينيها :

ـ أنا عارفه ـ عارفه كده ، وكمان قلت لهم فى المدرسة •

وقال محمود .

ـ قلت لهم ايه ؟

ـ كل حاجة والمدرسات مبسوطين منك و ••

ووضع محمود يده على فمها ونحت ليلى يده وهى تضحك وتقول فى خبث :

ـ وحتى عنايات بتقول عليك حلو !

وحاول محمود أن يكتم ابتسامته

وقال عصام :

ـ عنايات ! عنايات مين ؟

والتفتت اليه ليلى ويداها ما زالتا تحيطان بكتفي أخيها :

ـ يعنى مش عارف عنايات •• ملكة جمال السنية !

وقال عصام :

ـ يابن الايه ! عنايات حتة واحدة ••

وغرق محمود فى الضحك • وشعرت ليلى أن مهمتها قد انتهت فنزلت من السرير واندفعت تجرى ، واستوقفها محمود عند الباب :

ـ ليلى •

ـ أفندم ••

ـ أولا انت كدابة ••

– كدابة ! كدابة ليه ؟

– يعنى ، يعنى ·· عنايات حاتشوفني فين عشان تقول على حلو ولا وحش ؟

وأخذ عصام يرقبهما وقد علت شفتيه ابتسامة ماكرة ·

وقالت ليلى وهى تشير الى الحلية فى صدرها :

– شافت صورتك دى ·

وبدا الاهتمام فى عينى محمود :

– ورينى كده ·· أنهى صورة دى ؟

وتركتها بين يديه ، يفحصها باهتمام ·

واتسعت ابتسامة عصام ووضع يده على فخذ محمود وقال :

– محمود ··

والتفت اليه محمود ويده اليسرى ممسكة بالحلية :

– أيوه يا عصام ·

– ايه أخبار العلقة دلوقت ؟

ولكز محمود عصام بقدمه وترك الحلية تسقط من يده على الارض وركعت ليلى على ركبتيها وانحنت بجسمها لتلتقط الحلية والتقطتها ثم رفعت جسمها لتقوم وحين أصبحت رأسها بحذاء رأس محمود توقفت ولمعت عيناها وكأنما خطرت لها فكرة رائعة وقالت :

– أنا كمان لما أكبر حاضرب الانجليز ·· حاضربهم بالسلاح ·· لما أكبر ·

وقال عصام :

– ودى عايزة كلام ·

ونهضت ليلى بسرعة واتجهت خارجة وهى تقفز قفزات رتيبة كما يفعل المتظاهرون وترفع يدها اليمنى وتخفضها وتقول منغمة : السلاح السلاح ·· نريد السلاح · وفجأة تسمرت فى مكانها وسقط ذراعها الى

جانبها وماتت الكلمات على شفتيها ‥ اصطدمت بأبيها وهو يدخل الحجرة ٠

***

وبعد أيام قليلة عادت الحياة تجرى مجراها العادى ، وتشغل كل فرد بمطالبها اليومية ، وبدا الناس كما لو كانوا قد نسوا ما حدث ، ورجع محمود الى مدرسته ولم يعد أحد يسأل ليلى عنه ولا عن المظاهرة ٠ وأحست ليلى بمرارة فى بادىء الامر ثم بدأت تنشغل بأمورها الخاصة هى الاخرى ٠

وفى ذلك الصباح استيقظت مبكرة كعادتها لتقرأ الجريدة قبل أن يستيقظ أبوها وأخوها ، وجلست على المقعد الاسيوطى فى مواجهة باب الصالة وعيناها تتنقلان بين عتبة الباب والساعة ، واندفعت الجريدة من تحت العتبة ٠ وحين فرغت ليلى من قراءتها كانت الساعة السادسة والنصف ولم يستيقظ أحد بعد ، لا أبوها ولا أخوها محمود ٠

وقامت وهى تتمطى فى ارتياح وألقت بالجريدة على المقعد وقبل أن تصل الى غرفتها رجعت وأعادت طيها ومرت بأصابعها على أطرافها وهى تجز على شفتها السفلى غيظا لاضطرارها الى ذلك العمل خوفا من تعليقات أبيها ٠ وأسرعت الى غرفتها تسدل على جسمها مريلة المدرسة ، وتبحث محمومة عن الشراب والحذاء تحت السرير والدولاب ، وتمشط شعرها الاسود القصير وهى تضع قدميها فى الحذاء ، وتخطف كتابا من على المائدة وآخر من تحت وسادة السرير ، وتلقى بهما فى حقيبتها الجلدية ثم تندفع الى حجرة الطعام وكأن انسانا يطاردها ولا تتوقف حين تصطدم بأخيها محمود ولكنها تبطىء خطاها حين ترى أباها يقف أمام الحوض يحلق ٠ وتضع على شفتيها ابتسامة مؤدبة ٠

– صباح الخير يا بابا ٠

ويدمدم أبوها بشىء غير مفهوم وهو يلقى برأسه الى الخلف يزيل بآلة الحلاقة شعرات فى رقبته ٠

وما أن تختفى خلف باب حجرة الطعام حتى تصرخ تطلب الاكل وتنظر اليها أمها :

– الفول لسه ما جاش ٠

ولا تثبط من همتها نظرة البرود التى تطالعها بها أمها ·

ـ أى حاجة ·

ـ ملحوقة على ايه ؟ الساعة لسه سابعة والجرس تمانية ونص ·

ـ والمشوار ؟

ـ عشر دقايق ·

ـ أنا عايزه آكل والسلام ·

وتنتزع مقعدا من على المائدة وتغرسه فى الأرض بقوة وتجلس وتبسط قطعة من الجبن فى نصف رغيف من العيش وفوقها طبقة رقيقة من المربى وتقضم من الساندوتش قطعا تجد صعوبة فى ابتلاعها لتخرج مسرعة الى المدرسة ، وتقذف بحقيبتها على العشب وتنضم الى زميلاتها ثم يدق الجرس وتستعيد بعد طول بحث حقيبتها لتدخل حصة الحساب ·

* * * *

وتجلس على مقعدها وتضع ذراعها على الدرج وتسند اليه وجهها وقد تعلقت عيناها بيد المدرسة وهى تكتب على السبورة ··· ضرورى ضرورى تفهم كل كلمة وكل عدد ، ضرورى · أبلة نوال قالت انها بقيت أحسن فى الحساب ولكن لازم تبقى أحسن وأحسن ، أحسن واحده فى الفصل عشان أبلة نوال تحبها ، ضرورى تحبها ضرورى ·

وكانت هذه هى الضرورة الوحيدة فى حياة ليلى فى هذه الفترة ، ضرورة التغلب على هذه المدرسة النحيلة التى تشد شعرها وتجمعة خلف رأسها · وتلبس ملابس شبيهة بملابس الرجال · وتركز عينيها الصغيرتين المستديرتين فيك وكأنها تستطيع أن تنفذ الى أفكارك وتختفى شفتاها الرقيقتان وهى تكتم ابتسامتها ·

وفى أول السنة وضعت ليلى على شفتيها ابتسامة مؤدبة وجلست فى حصة الحساب وقد ربعت ذراعيها ، وتجاهلت همسات عديلة التى تشاركها الدرج بل ذهبت أكثر من ذلك واكتفت بأن تجز بأسنانها على شفتها السفلى حين لكزتها عديله بقدمها ، كل ذلك وأبلة نوال ولا هى هنا · وفى آخر الحصة انتظرت ليلى حتى فرغت آخر تلميذه من وضع كراستها على مائدة المدرسة ووضعت كراستها وسوت كومة الكراريس واستعدت لتسير بها الى حجرة المدرسات خلف أبلة نوال ولكن أبلة

نوال ضغطت شفتيها وأخذت منها الكراريس بعد أن شكرتها . وتحيرت ليلى من هذه المدرسة الغريبة التى ترفض أن تحمل تلميذه كراريسها ولكنها لم تيأس . فهناك طريقة تنجح دائما ، فأنت تعطى المدرسة وردة جميلة وحين تدخل حجرة المدرسات بأى حجة تجد المدرسة وأمامها الوردة فى كوب وتعرف حينئذ أن ارتباطا ما قد بدأ بينك وبينها . ألم تحتفظ بالوردة ، وردتك فى الكوب أمامها ؟ ولكن أبلة نوال لم تحتفظ بالوردة فى الكوب ولم تخرج بها حتى من الفصل ... أخذتها نفيسة ، نفيسة ذات الانف الافطس والشعر الاكرت . بدأ كل شىء طبيعيا ثم تحول ، فى أول الحصة أعطت ليلى الوردة للمدرسة ، قربت أبلة نوال الوردة من أنفها وشمتها ثم وضعتها فى عناية على كراسة التحضير ووقفت تكتب مسائل الحساب على السبورة وقبل أن تكمل كتابة المسألة الاولى استدارت فجأة وواجهت الفصل :

ـ أول واحدة حاتحل المسألة دى حتاخد منى الوردة .

وأخذتها نفيسة وجمد وجه ليلى وقررت أن تخاصم أبلة نوال وخاصمتها فعلا ولكن حدث فى البيت ما جعلها ترجع عن قرارها ، طلبت منها أمها أن تناولها المنبه لتملأه فسقط منها المنبه وتحطم زجاجه ، تحطم كما تحطمت الزهرية الخضراء ذات الورد الابيض وكما تحطمت العروس التى تفتح عينيها وتقول ماما ، وكما يتحطم فى البيت كل شىء ، كل شىء فى يديها . وصرخت أمها صرخة طويلة وكأن حريقا شب فى البيت واتجهت نحوها وقد احمر وجهها وضربتها على كفيها ثم مسحت العرق من على جبينها وهى تقول :

ـ لكن أعمل ايه ، أعمل ايه فى بختى المنيل ، ربنا شقيك من كله ، ربنا ياخدك أحسن ويريحنا .

وأنهى أبوها الموضوع ، وقف على باب حجرته هادئا وقال بصوت قاطع وبلا غضب :

ـ أنا قلت ان دى مش بنت دى فتوة .

ثم دخل غرفته وأقفل وراءه الباب .

* * * *

ووقفت ليلى أمام المرآة البيضاوية فى حجرتها وأخرجت لسانها ثم أخذت تحركه فى حركة دائرية حول شفتيها .. بنت .. بنت .. بنت ظريفه أبله الناظرة قالت فى الحوش وقرصتها فى خدها ، أبله

الناظرة بتحبها وأبله زينب وأبله زاهيه وأبله رتيبه وكل المدرسات ٠٠ كل المدرسات الا ٠٠ وسحبت ليلى لسانها وأطبقت فمها ٠٠ الا أبله نوال ، ضرورى ، ضرورى كل واحدة فى المدرسة تحبها ، ضرورى أبله نوال تحبها وأغمضت عينيها وأدارت ظهرها الى المرآة ٠٠ رأت نفيسة تقرب الى أنفها الافطس وردة حمراء ــ ثم خطرت لها فكرة وأسرعت الى حقيبة كتبها وأخرجت كراسة الحساب والكشكول وقلم رصـــــاص وانبطحت على الارض وفتحت الكراسة من أولها ٠

وبدأت محاولة عنيفة من جانب ليلى للتغلب على الارقام ٠٠ أرقام عارية تقفز أمام عينيها بلا معنى تتفرق وتتجمع ، وتتضاعف وتنقسم ثم تواجهها بالحل يحدق فيها ٠٠ أبلة نوال قالت استعملى عقلك ، ولكن فى الحساب عقلها جامد لا يمشى ، فى الانشاء العربى يمشى عقلها ، كلمة تجر كلمة وجملة تجر جملة وتسرع يدها تلاحق عقلها ، وهى طائريحلق فى السماء عاليا فوق كل الطيور ويعود الى العش بالحب لطيورهالصغيرة يحيطها بجناحيه ويدفئها ، وهى طفلة تائهة فى الطريق بين ناس غرباء ينظرون اليها ولكنهم لا يرون دموعها وهى مدام كورى وبطل يحطم قضبان السجن لينقذ شعبه من الاستعمار وهى كل هذا وأكثر من هذا أو هى على الاقل معهم ٠ أما فى الحساب فهى مع بقـــال يبيع ســـكرا ويشترى زيتا ومع صنبور يقطر فى الدقيقة عددا من قطرات الماء ومع حوض يمتلىء بهذه القطرات ومع أرقام تقفز أمام عينيك بلا جمـــال ولا معنى ٠ معنى أو لا معنى ، من الضرورى أن تفهم كل كلمة وكل حرف٠ وبدأت تتغلب على الارقام ، تجمع خيطا من هنا وخيطا من هناك وتلفها وتمسك بها بين قبضتها فى فرح ٠ وبدأت تتقدم وأبله نوال تشجعها خطوة وراء خطوة حتى لم يتبق أمامها الا نفيسة فما زالت نفيسه تحل المسائل قبل أن تحلها هى وما زالت درجات نفيسة فى الكراسة أحسن من درجاتها ٠ وتركز كيان ليلى فى هذه الفترة فى محاولة التغلب على نفيسة ٠

* * * *

وقامت نفيسة ترد على سؤال لابله نوال ، قامت فى بطء ، وتكلمت فى بطء ، وأجابت الاجابة المطلوبة لا أكثر ولا أقل ٠٠ هل يمكن أن تسبق نفيسة ؟ ان نفيسة قوية فى الحساب ، طول الدراسة الابتدائية وهى أقوى منها بمراحل ، فهل يمكن أن تسبقها فى حساب أولى ثانوىوحساب أولى ثانوى صعب ؟ وهى ضعيفة ، ضعيفة فى الحساب وفى كل شىء ٠

ووجهت أبله نوال لليلى سؤالا مفاجئا وتلعثمت ليلى ثم أجابت • وجلست وانصرف اهتمامها الى حل مسائل الحساب ، وساد السكون الفصل وأبله نوال تمر بين الصفوف تقرأ الحلول من فوق رؤوس الطالبات •

وحين وقفت أبله نوال الى جانب ليلى أطرقت برأسها وبقى القلم معلقا فى يديها وكأنها تفكر • وقرأت أبله نوال الحلول وضمت شفتيها ومالت على ليلى :

— بقينا هايلين خالص •

والتقت عينا ليلى بعينى أبله نوال وهى تميل عليها وشعرت بشيء يقف فى حلقها وابتلعت ريقها فى صعوبة • ومدت أبله نوال يدها تثير شعر ليلى وكأنها تمشطه من أسفل الى أعلى ثم مضت فى طريقها •

ومدت ليلى كفيها الى رأسها تسوى شعرها ولكنهما جمدتا لحظة فى مكانهما وطفرت الدموع الى عينيها وأدركت أنها تستطيع أن تسبق نفيسه وعشرة مثل نفيسه ما دامت أبله نوال معها •

***

وقفت ليلى بعد انتهاء اليوم الدراسى تحت شجرة الجميز فى المدرسة • وعلى المقعد الخشبى المواجه لها جلست جميلة والى جانبها عى العشب سناء وفى الوسط وقفت عديلة •

كانت عديلة تقلد مدرسة اللغة الانجليزية ، تضغط خديهـــا ويتصلب جسمها وتمشى جامدة دون أن تحرك ذراعيها وترفع ساقا فى حركة عمودية الى أعلى ثم تسقطها لترفع الاخرى ، ويخرج صوتها غائرا وكأنها دمية خشبية • وغطت جميلة وجهها بيديها وهى تضحك ومالت سناء تسند بطنها بيدها ، وتكورت وجنتا ليلى وضاقت عيناها واندفعت الضحكات من فمها فى موجات تتابعت ثم تلاحقت وتشابكت حتى كادت تحول بينها وبين التنفس • وأولت ظهرها الى زميلاتها وهى تستند الى شجرة الجميز لتستجمع أنفاسها وأخرجت المنديل من جيبها لتجفف دموعها ووقفت يدها فى الهواء قبل أن تصل الى عينيها •

أدركت فجأة أن عديلة قد بدأت جملة ولم تكملها ، وأن الضحك قد توقف وأن شيئا ما قد حدث • شيئا غير مرغوب فيه •

واستدارت ليلى تواجه زميلاتها ..

كانت سناء قد أرخت عينيها الى الارض وراحت تقتلع العشب بسرعة ، ما تكاد تفرغ من اقتلاع قبضة حتى تقتلع غيرها وكأنها مكلفة بذلك العمل . وكانت جميلة تنظر ساهمة الى الافق البعيد .

وقالت عديلة :

ـ ايه الاحمر اللى فى مريلتك يا ليلى ؟

وأدارت ليلى رأسها وجذبت ظهر المريلة الى الامام وقالت وقلق بسيط يتسلل اليها :

ـ ضرورى حبر .. حا يكون ايه يعنى ؟

وهزت جميلة رأسها تنفى هذا الاحتمال ونظرت الى ليلى نظـرة طويلة ، نظرة حزينة . واندلع خوف غامض فى جسد ليلى وهمت بالاندفاع الى أحضان جميلة ولكنها لم تندفع ، لمحت فى عينى عديلة نظرة ساخرة متعالية ، وجمدت مكانها .

وقالت عديلة وهى تبتسم فى استخفاف :

ـ مبروك يا ست ليلى ، بلغت ..

وسحبت جميلة ليلى برفق ، وفى دورة المياه قطعت البقعة الحمراء من مريلتها بموس .

وحين رأت أم ليلى المريلة قالت :

طيب يابنتى ماغسلتيش البقعة ليه بدل ما تقطعى المريلة ؟؟

ولكن الأم لم تعنف ليلى هذه المرة .

***

اعتدلت ليلى فى سريرها فى بطء وحرص شديدين وكأن جسدها من زجاج هش سهل التحطيم ونامت على ظهرها وعيناها تحدقان فى الظلام .. غريبة ! انها لم تشعر بذلك الثقل فى جسمها قبل أن ترى هذه النظرة فى عينى جميلة .. نفس النظرة التى رأتها فى عينى أمها .

حدث لها ما حدث قبل أن تكتشف الامر عديلة ، ربما من الصباح ومع ذلك لم تحس هذا الصباح بتعب فى جسمها ، بالعكس ، شعرت أنهـا خفيفة وأنها تريد أن تجرى وتضحك وتدفن رأسها فى أزهار الحديقة ، شعرت أنها قوية وأنهـا ذكية وأنهـا تستطيع أن تسبق نفيسه فى الحساب .. واكتشفت ليلى فجأة وعيناها تحدقان فى الظلام ، أن كل شىء قد فقد أهميته .. أبله نوال ونفيسه والحساب .. كل شىء وكأنمـا قد حدث لها كل ذلك من زمن بعيد . وأغمضت عينيها وحاولت جاهدة أن تسترجع صورة أبله نوال وهى تميل عليهـا وركزت فكرها حتى شعرت بعرق ينفر فى جبينها ومع ذلك بدت لها الصورة باهتة لحظـة واحدة ثم طمست خطوطها صورة شجرة الجميز وجميلة وهى تنظر اليها بعينين تعكسان حنانا حزينا .

وقالت ليلى بصوت مسموع : ليه يا جميلة ليه ؟ أنا عايزه أكبر عايزه أكبر .. وعادت تحدق فى الظلام .

تكبر وتصبح مثل أمها ، لا ، مثل .. مثل مفتشة التاريخ ذات الجبين الابيض العريض والرأس المرفوع الى أعلى والشعر الاسود الطويل الملفوف والمشية الهادئة كمشية الملكات .

وسمعت ليلى الباب الخارجى للشقة يفتح وتسرب اليها نور الصالة ثم اختفى حين اتجه أبوها الى غرفته المجاورة لغرفتها ..

عندما عادت من المدرسة كان قد خرج وعلى المائدة قالت أمها أنه مدعو للعشاء .

سيعرف أبوها الآن ، سيعرف حتما ، ستخبره أمها ، ترى ماذا يقول ؟ سيفرح طبعا كما فرح عندما بدأ الشعر ينمو فى ذقن محمود ..

فى الصالة استوقف أبوها محمود وجذبه تحت النافذة فى الضوء ونظر اليه طويلا نظرة خيل الى ليلى معها أن أباها لم يعد يقف على الأرض بل يطير بمحمود عاليا . ثم تورد وجهه وضحك ضحكا طويلا بلا سبب .

وساد السكون طويلا خافتا وعينا ليلى تحدقان فى الظلام وكأنهما تنتظران شيئا ، وسمعت أمها تتكلم بصوت منخفض ، وتصلب جسمها حين تبينت اسمها يتردد فى الحديث ثم أطبق الصمت مع الظلام على الحجرة من جديد .

وقطع الصمت صوت نحيب ، وقفزت ليلى كالملدوغة من السرير ثم وقفت مسمرة فى وسط الحجرة حين عرفت فى الصوت صوت أبيها ، واختلط النحيب بدعاء يقطعه ما بين الحين والحين صوت أمهـــا هادئا منخفضا :

- يارب تقدرنى يارب ، دى وليه يارب ·

- كفايه ياسيدى البنت تسمعنا ·

- الستر يارب الستر

وانخفض الصوت تدريجيا وأعقبته غصة ثم صمت ·

وشعرت ليلى بخواء فى صدرها وسرت الرجفة فى شفتيها وفى يديها وساقيها ، وانسحب مجرى من العرق من أعلى رقبتها الى أسفل ظهرها ، وتخبطت فى الظلام تبحث عن الباب وهمت أن تصرخ تنـادى أمها « ماتخافيش يا بنتى » أمها قالت العصر · وماتت الصرخة على شفتيها وجررت ساقيها الى السرير وتمددت على ظهرها ·· « ماتخافيش يابنتى ماتخافيش ، انت كبرت ·· كبرت » وسحبت ليلى الغطاء على جسمها وعلى وجهها حتى طرف رأسها ·

***

ولم تفهم ليلى تلك الليلة لم نظرت اليها جميلة هذه النظرة الحزينة ولم بكى أبوها ، ولكنها فهمت على مر السنين ، فهمت أنها ببلوغهادخلت سجنا ذا حدود مرسومة وعلى باب السجن وقف أبوها وأخوها وأمها ، والحياة مؤلمة بالنسبة للسجان والسجينة ، السجان لا ينام الليل خشية أن ينطلق السجين ، خشية أن يخرج على الحدود ، والحدود محفورة حفرها الناس ووعوها وأقاموا من أنفسهم حراسا عليها · والسجينة تستشعر قوى لا عهد لها بها قوى النمو المفاجىء ، قوى جارفة تسعى الى الانطلاق، قوى فى جسمها تطوقها الحدود ، وقوى فى عقلها تشلها الحدود ، حدود بلهاء عمياء صماء ·

ورسم أبوها الحدود العامة وهم جلوس على مائدة الغذاء ، قال فى صوت هادىء قاطع :

- انت ضرورى تدركى ياليلى انك كبرت ، ومن هنا ورايح خروج لوحدك مافيش ، زيارات مافيش ، من المدرسة على البيت ··

واتجه بعينيه الى محمود وأضاف :

ــ ومش عايز أشوف فى البيت روايات ولا مجلات خليعـــة ٠ فاهم ؟

وأطرق محمود ولوى شفته السفلى ، وقال الاب فى صوت أرق

ــ اللى انت عايز تقراه اقراه بره ولا اخفيه ، أنا مش عايز حاجة تسمم أفكار البنت ٠

والتقت عينا الاب بعينى محمود فى نظرة رجل لرجل ، وابتسم محمود ابتسامة من يعرف ويفهم ، واستأنف الاب كلامه ٠

ــ وكمان يا محمود أنا مش شايف داعى ان أصحابك يزوروك فى البيت ، يا أخى مش كفاية القهوة والنادى ٠

واتسعت ابتسامة محمود

ــ كفاية يا بابا ، بس المهم عصام ــ عصام بيذاكر ويايا ٠٠

ورفعت الأم عينيها عن الطبق وقد ارتسم فيهما قلق :

ــ عصام ، هو عصام غريب ! عصام ابن خالتك يا بنى ، هى ليلى حا تتغطى على ابن خالتها ٠

ومسح الاب فمه بالفوطة ٠

ــ عصام معلهش ، عصام منا وعلينا ٠

ولم تقل ليلى شيئا ــ لم يكن أحد ينتظر منها أن تقول شيئا ٠ وبدأ دور الام ، دور لا ينتهى ٠٠ حتى أصبحت ليلى تلتفت خلفها كل ما سمعت خطوات تنتظر تعنيف أمها لها عن شىء حدث منها ولا تعرف ما هو ، شىء خارج أو ما يصحش أو ما يليقش ببنت ناس ، بنت محترمة ٠٠ الضحكة الطليقة النابعة من القلب خارجة ٠ ٠ خارجة ليــه ؟ عالية ٠ والكلمــة المخلصة الصريحة خارجة ٠٠ خارجة عن ايه ؟ عن الأصول ، فيه حاجة اسمها الاصول ٠٠ والقعدة :

ــ انت يا تقعدى مجعوصة ، يا تحطى رجل على رجل ، الناس تقول ايه ؟ مش متربية ؟

ــ أنا زهقت من الناس مش عايزه أشوف حد ٠

- لأ ضرورى الناس تشوفك - يقولوا مستخبية ليه ؟ كتعة ولا عرجة !

واذا مانعت فى الدخول للضيوف اتهمتها أمهـا بأنها « براوية مابتحبش حد » واذا دخلت لامتها لأنها لا تسامرهم ، واذا تكلمت لامتها لأنها تتدخل فى شئون الكبار ، وان أطالت جلستها أشارت لهـا بالخروج ، وان خرجت مسرعة قالت لها « انت كنت ملحوقة على ايه ؟ »

- أنا فى الحقيقة احترت وياك يا ماما ، كل حاجة أعملها تطلع غلط فى غلط !

- اللى يمشى على الاصول ما يغلطش ٠

- وايه هى الأصول دى ؟!

- الاصول ان الواحد ٠٠

وتضيف الام حدودا جديدة ، كقطرات الماء تسقط بروى ونظام يسلب رويها ونظامها النوم من عينى النائم ، ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم وسنة بعد سنة ٠

وسنة بعد سنة نمت ليلى ٠

***

وفى السابعة عشرة أصبحت ليلى فتـاة ممتلئة الجسم متوسـطة القامة ، خمرية ، مستديرة الوجه ، دقيقة الملامح فى استواء ، عريضة الجبهة ، عيناها عسليتان عميقتان ضيقتان شديدتا اللمعان واذا ما ابتسمت ارتفعت وجنتاها الورديتان الى أعلى وضاقت عيناها حتى أصبحتا خطا رفيعا من نور يلتمع واذا ماطمئنت ضحكت بكل وجهها •• بشفتيها وبعينيها وبأنفها ، واذا ما أثار الحديث اهتمامها مالت برأسها وأنصت والكلمات تتدفق من أذنيها الى قلبها واذا أثار الحديث حماسها أو شفقتها التمعت عيناها بالدموع ••

كان وجهها يشع بالانطلاق والحيوية والاشراق على عكس جسمها •

كانت تمشى وكأنها مقيدة بسلاسل ثقيلة ، تجر جسمها خلفهـا وكتفاها منحنيتان ورأسها ممدودة الى الأمام وكأنهـا تريد أن تصـل بأقصى سرعة الى هدفها لتختفى عن الانظار ، وحين تجلس لا تكاد تستقر فى مكان بل تتحرك باستمرار ، ولا تكاد تعرف أين تضع يديها وكأنهما جسمان غريبان عليها وفى حركاتها ثقل وخوف وخاصة فى البيت ، أما فى المدرسة فكانت أكثر انطلاقا ، كانت المدرسة جزءا من عالمها الذى تحبه ، هذا الهدير من الاصوات المختلفة •• الجرس ، الضحكات المجلجلة حينا والمكتومة حينا آخر ، والخطوات التى تدب فى الممر مسرعة الى الفصل ، والعيون التى تبتسم ، والمرح فى الفصل ، والمؤامرات الهامسة التى تدبر ضد المدرس أو المدرسة والولاء الذى يجمع بين الطالبات لاينال منه تهديد ولا عقاب ، والتعليقات المكتوبة التى تمرر حين يستعصى الكلام وفسحة الظهر والشلة ، والنكات الهامسة التى تحمر منها الوجوه ثم تنفرج فى ضحكة طويلة ، والقصص الخافتة فى ركن ناء والمستمعة تفتح فمها كالبلهاء ، ووقع الملاعق على الاطباق فى المطعم ، وسندوتش الموز والتريقة على عباد الله ، والفصل المقفول فى الفسحة والرقص البلدى ، والمناقشة فى السياسة والخلاف حول أم كلثوم وعبد الوهاب والصداقات التى تنبع فجأة ، والخصام والدموع والصلح • وهى تستحوذ على اهتمام

الفصل بتفننها فى الشقاوة ، وتغضب المدرس وتعود فتسترضيه وتخطب فى المناسبات الوطنية وتبرز فى الجمعيات الادبية ويعترف لها مدرس اللغة العربية بالتفوق وتفوز ببطولة المدرسة فى البنج بنج وتشترك فى فريق الكشافة وكرة السلة وتتزعم شلة تغرقها حبا ..

وعندما ينتهى اليوم الدراسى تنتظر حتى تنصرف آخر تلميذة ثم تطلع الى فصلها والمدرسة ساكنة خالية ، وتعد كتبها وتنصرف الى البيت بخطوات متثاقلة .

* * * *

وفى البيت تبدأ أمها تعنفها على شىء ، فلا بد أن يكون هناك شىء ما ، شىء كان ينبغى أن يعمل ولم يعمل ، أو كان ينبغى ألا يعمل وعمل ، ثم يظهر أبوها بوجهه الهادىء الصامت الخالى من التعبير ويفرض صمته وهدوئه على كل من فى البيت . وتبدأ أمها تمشى على أطراف أصابعها وتلتفت حولها بعينين قلقتين تتأكد أن كل شىء معد كما ينبغى أن يعد ، ثم يبدأ الغذاء .. وعلى المائدة يبدأ الاب يعنف أمها فى هدوء وفى صوت هامس ، والأم طبعا حريصة على ألا ترتكب ما يوجب التعنيف ، ولكن هناك أخوتها ، وهى طبعا تتحمل المسئولية الكاملة عن تصرفات أخوتها ، لقد قال أخوها الشىء الفلانى وما كان ينبغى أن يقوله ، وفعل كذا وما كان ينبغى أن يفعله وتبيض شفتا أمها ولكنها لا تجيب .

ولكن الغذاء يكون ألطف من ذلك بكثير عندما لا يتغيب محمود فى كلية الطب ، عندما يعود الى البيت فى الظهر ويشد الكرسى ويجلس على المائدة بوجهه المشرق الحلو ، وبعينيه الخضراوين القلقتين وبشفتيه الرقيقتين الباهتتين ويصطنع الجد ويبدأ فى الحديث ، النهارده .... ويحكى كل شىء ، ما حدث فى الكلية وما سمعه فى الترام ، وما قرأه وآخر نكتة يتداولها الناس ويحاكى ويعلق ويبالغ ويدلى بأراء غاية فى الغرابة .. أراء تميزه هو عن الآخرين .. وينقلب الجو على المائدة ، وكأنه جاء بنسمة من الهواء المنعش من الخارج ، وتنفرج ملامح الأم المتوجسة ويصبح وجهها جميلا كوجه طفل وتضحك ضحكاتها اللطيفة المنخفضة القصيرة . ولكن المنظر الذى يستحق المشاهدة حقا هو منظر أبيها ، يجلس وقد ثبت عينيه على محمود لا يرخيهما عنه وكأنه معجزة تتحرك على الارض . وينصت الاب باهتمام ويسقط عن وجهه القناع ويكتسب الوجه الجامد الخالى من التعبير تعبيرا من حنان ، وعندما يصل

محمود الى نقطة من السرد تبرز تفوقه أو شجاعته أو ذكاءه أو خفة دمه تجمد عينا الاب وتكسوهما طبقة خفيفة من دموع ..

وعندما يبدأ محمود فى السخرية من الأوضاع الاجتماعية السائدة فى مجتمعه لا يترك شيئا تحيطه التقاليد بهالة من التقديس الا ويحاول هدمه ، وتلمع عينا ليلى وترتجف شفتا الأم ويتوجس الأب شرا ، ولكن محمود يخرج من المأزق بلباقة ، يخلط سخريته بالفكاهة فيكتم الأب ضحكاته ويختلط الأمر عليه فلا يعرف ان كان ابنه جادا أم هازلا .

وتتشعب موضوعات الحديث ولكنها تنتهى عادة بمناقشة فى السياسة وخاصة اذا كان عصام موجودا على الغذاء وغالبا ما يكون موجودا ، فهو دائما مع محمود فى كلية الطب وفى المذاكرة . واذ ذاك تميل ليلى بنصفها الأعلى على المائدة وتركز عينيها على محمود وتستمع أذناها الى كلمات عصام والى كلمات أبيها ولكنها لا ترخى عينيها عن محمود ، وينقبض وجهها بين الحين والحين وكأنها تعد فى عقلها ردا لاذعا ويستدير فمها وكأنها تهم بالكلام ثم ينبسط وجهها عندما يجيب محمود وكأنه قال تماما ما أرادت أن تقول ..

قالت مرة لجميلة :

ـ عارفه يا جميله بابا بيقول ايه ؟ بيقول أنا ومحمود بنفكر بقلبنا مش بعقلنا .

ـ دا بيتريق عليكم يا عبيطة .

ـ ما انا عارفه ، ولكن دى هى الحقيقة .

★ ★ ★ ★

ويعتدل محمود ايذانا ببدء المناقشة ويركز عينيه على عصام وكأن عصام مسئول عن كل تصرفات الحكومة ويقول :

ـ تقدر تقول لى الحكومة الوفدية بتاعتك عملت ايه ؟ قعدنا نقول الوفد . ماحدش حاينقذ البلد غير الوفد ، وبعدين الوفد عمل ايه ؟

ويقول عصام :

ـ المسألة مسألة وقت والدنيا ماتخلقتش فى يوم .

ـ ماتجننيش بقى يا عصام ، انت عارف ان المفاوضات مش حاتجيب نتيجة والبلد كلها عارفة كده ، مش النهارده بس .. من سنين .

ويمسح الاب فمه ويقول :

- على العموم الوفد أحسن من غيره ٠

ويميل محمود الى الامام وتندفع الكلمات من فمه متتالية كأنه يتشاجر :

- الوفد أزفت من غيره ، لأن الشعب كان بيثق فى الوفد والوفد خان الثقة دى ٠

ويهرع الاب الى الحمام دون أن يجيب فلا بد له أن يتوضأ ليلحق صلاة العصر ٠

ويقول عصام فى هدوء :

- المسألة مش مسألة حماسة ياسى محمود ، تقدر تقول لى الحكومة تعمل ايه ؟ تحارب الملك ! تحارب الانجليز !

ويستند محمود الى ظهر مقعده :

- أيوه تحاربهم ، تحاربهم لو كانت شعبية زى ما بتقول ٠

- تحاربهم بايه ؟

- تحاربهم بينا ٠٠ بالشعب ، بالجيش ، الجيش بيغلى ، الجيش فلاحين ، مصريين زيى وزيك !

ويخيل الى ليلى أن شعر رأسها قد وقف وتسرى الرجفة الى جسمها ، نفس الرجفة التى تصيبها حين تسمع فى الراديو حديثا عن مجد ماض لمصر أو تقرأ جانبا مشرقا من تاريخها أو تسمع عن ظلم وقع بشعبها ، رجفة من يمتلك شيئا يفخر به ويخشى عليه ٠

ويقول عصام :

- الشعب ٠٠ الشعب المصرى يحارب الامبراطورية البريطانية ؟! يا أخى فكر فى الموضوع بتعقل ٠

وهنا يفقد محمود السيطرة على نفسه ولا يتحرج ، يستخدم أول لفظة تخطر بباله ، ويشتم سنسفيل جدود الامبراطورية البريطانية والملك والحكومة ويلعن التعقل والمتعقلين وينتهى باتهام عصام بالخيانة وبمهادنة الاستعمار ، ويكاد الموقف يتعقد وتقول الأم لمحمود :

- ياأخى بلا خيبه حازق نفسك أوى كده على ايه ، تقولشى وزير ولا أمير .

ويضحك محمود ويضحك عصام وينتهى الغذاء ، وتدخل ليلى الى غرفتها وتقفل الباب وراثها وتتنهد بارتياح .

* * * *

فهنا فى هذه الحجرة عالمها الذى تتصرف فيه كما يحلو لها ، عالمها الذى تقف فيه وحيدة بعيدة عن كل من فى البيت حتى عن محمود . وفى ذلك العالم عاشت تحلم وتفرح وتتألم وتشتهى أشياء غامضة لاتدرى ماهى .. أشياء تتراقص أحيانا فى كل ذرة من كيانها ، وتجعلها تشعر أن جسمها خفيف فتجرى الى النافذة وتفتحها ويخيل اليها أنها تستطيع فى نشوتها أن تطير مع هذه الطيور التى تحلق فى الفضاء ، وترسخ أحيانا هذه الاشياء على صدرها وتتراكم طبقات فوق طبقات ، طبقات من حزن غامض مضى ، ومن حزن غامض آت ، طبقات فوق طبقات حتى تكاد تخنقها ، فتجرى الى الدولاب وتدفن فمها فى الملابس وتصرخ بكل مافيها من قوة ، بكل كيانها ، وتخرج من الدولاب ترتجف وترتمى على السرير تبكى .. ولم تكن تريد الا أن تترك وحيدة فى حجرتها بعيدة عن الآخرين ولذلك هادنت كل من حولها حتى لا يطغى صوت خارجى على عالمها الخفى ، لو تمردت أو ثارت لظلت أمها تعنفها بالساعات ولانتزعها أبوها من سريرها ليلقى عليها درسا فى الاخلاق ، لا ، هى لا تريد أن تنشغل بحدث خارجى تافه عن عالمها الرائع .

ولم تكن المذاكرة تشغل جانبا كبيرا من وقتها ، كانت تنتقل من فرقة الى فرقة فى سهولة وأهلها لا ينتظرون منها خيرا من ذلك ، وكان وقتها فى البيت موزعا بين القراءة الخارجية وبين أحلام اليقظة ، ولكن أمها كانت تنتزعها بين الحين والحين الى الواقع الذى بدا لها جافا ومملا للغاية ، بلا شعر .

كان عليها مثلا أن تقابل ضيفات أمها ، وأن تسامرهن . وكانت الآن قد تدربت بما فيه الكفاية . كانت قد تعلمت كيف تبتسم فى أدب وكيف ومتى تضحك ومتى تجلس ومتى تنسحب ، وكيف تنصت باهتمام مهما كان الحديث تافها ومتى تهز رأسها بالموافقة ومتى تبدى اعجابها أو عجبها ..

ولكنها كانت تكره كل هذا ، تكرهه من أعماق قلبها ، وتعتبره تقييدا لحريتها وقتلا لانسانيتها ولذلك كانت تخطىء أحيانا ، كما حدث ليلة زيارة سامية هانم .

***

دخلت الام على ليلى فى حجرتها :

ـ ياللا قومى ـ البسى هدومك عشان تدخلى لسامية هانم .

وسامية هانم قريبة من قريبات أمها من الفرع الغنى من الأسرة .

وأطرقت ليلى :

ـ أنا مش عايزه أدخل لحد .

ـ ليه ؟

ـ كده .

ـ كده ليه ؟

ورفعت ليلى وجهها وقالت :

ـ مش عايزه أشوفها ، مابحبهاش ، مابحبهاش من يوم فصل الشربات .

وأغمضت عيناها .. رأت ساميه هانم فى صالونها تقفز واقفة من الفوتيل اللاكيه المشغول بالاوبيسون وكأن كارثة قد وقعت ، ويد أمها ممدودة معلقة فى الهواء والسفرجى قد أدرك أنه خالف الأصول فتراجع بعد أن اقترب من أمها بصينية الشربات ، وبدأ بزينب هانم ، الضيفة المهمة . وهزت ليلى رأسها وهى ما زالت مغمضة العينين .. المصيبة ، المصيبة ان أمها لم تغضب . قالت يومها :

ـ كل واحد له مكانه فى الدنيا دى ، لو عرفه ما يتعبش

ومسحت ليلى دموعها وقالت فى سخرية :

ـ وزينب هانم دى أحسن منك فى ايه ؟ عشان غنيه يعنى !

وقالت الام يومها فى بساطة :

ـ أيوه عشان غنية ٠

وفتحت ليلى عينيها لتجد أمها ما زالت واقفة أمامها ، ودون أن تتكلم قامت لترتدى ملابسها ٠

وجلست صامتة تستمع الى حديث الضيفة مع أمها ، وتطرق الحديث الى مغنى مشهور يجاور سامية هانم فى السكن ، ومدى مايملكه من ثروة وعمارات ثم الى صوته ٠ ولما كان من المفروغ منه أن الأم لاتفهم فى الاغانى العاطفية فقد وجهت سامية هانم المتصابية الكلام الى ليلى ٠

ـ أنا أموت فى صوته ، صوته جنان ، مش كده ياليلى ؟

وقالت ليلى :

ـ بس بيغنى زى ما يكون بيعيط ، زى ما يكون واحده ست ٠

وبعد فترة قصيرة قامت سامية هانم التى اعتادت أن يؤمن الجميع على أقوالها ممتعضة ٠ وألقت بالفرو على كتفيها وقالت :

ـ بنتك ملحلحة أوى يا سنيه هانم ٠

وهى تشد على حرفى اللام والحاء وتمد كلمة أوى ٠

وقفلت الام باب الشقة وراء الضيفة وواجهت ليلى بوجه جاد ٠

ـ انت ازاى تقولى الكلام الفارغ ده لساميه هانم ؟

ـ أهى الكلمة اللى جت على لسانى قلتها والسلام ٠

ـ الكلمة اللى جت على لسانك ! لو كان كل واحد يقول الكلمة اللى تيجى على لسانه كانت الدنيا خربت ٠

ـ ولا يقول اللى يحسه ٠

ـ اللى يحسه ده لنفسه هو مش للناس ٠

ـ يعنى يكذب ٠

ـ دا مش كذب دى مجاملة ٠ الواحد ضرورى يلاطف النـــاس ويجاملهم ٠

ـ حتى ولو ماكانش بيحبهم ؟

- حتى ولو ماكانش بيحبهم ؟

وطفرت الدموع فى عينى ليلى وقالت فى صوت مختنق :

- يعنى يكذب ؟ يعنى يكذب ؟

ولان وجه الام ووضعت يدها على كتف ليلى :

- انت صعبانه على يا بنتى ، انت جاهلة ، الدنيا عايزة كده وان ماكانش الواحد يعمل كده هو اللى يتعب .

وأغمضت ليلى جفنيها ونحت يد أمها برفق عن كتفها.ودخلت الى حجرتها وأقفلت وراءها الباب .

★ ★ ★ ★

وسارت الى النافذة واستندت الى حافتها وودت لو استطاعت أن أن تخرج من البيت .

وتجمع الغضب فى جسمها واحتبس فى حلقهـا وجف له فمها ولسانها ، غضب بدأ غامضا ثم لم يلبث أن تركز على أمها ، غضب مثل ذلك الذى كانت تشعر به وهى طفلة حين كانت أمها تلقيها على ظهرها وتثبت جسمها فى الارض وتفتح فمها بالقوة وتلقى فيه بشربة زيت الخروع .. ولكنها هذه المرة لم تفتح فمها لقد فتحت عينيها بالقوة .

نعم .. فتحت أمها عينيها .. فتحت عينيها ! على ماذا ؟

على الدنيا .. على الحياة .. « انت جاهلة بالدنيا » أمها قالت . وكان من الممكن أن تقول « انت ضرورى تتعلمى الكذب والنفاق يابنتى » وطبعا لم تقل هذا ، ولكنها قالت ما يساويه . ولم ؟

الأمر سهل وبسيط وواضح ولم يحرك حتى شعرة من شـعر أمها « عشان الدنيا عايزه كده .. عشان الحياة عايزة كده » .

وأى حياة هذه ؟ انها حياة لا تستحق أن يحياها الانسان ، هذه الحياة التافهة التى يسيطر عليها رجال تافهون ونساء تافهات مثل ساميه هانم وأختها دولت هانم ..

هذه المرأة هى الاخرى .. دولت هانم .. وشعرت ليلى ببرودة تتسلل الى جسمها وأقفلت النافذة وأسندت رأسها الى زجاجها وقررت ألا تفكر فى موضوع دولت هانم . ولكى لا تفكر بدأت تحلم .

أين تقابله ؟ فى حفلة رقص وستكون فى ثوب أبيض كثوب « أودرى هيبورن » فى فيلم « سابرينا » وعندما يراها .. كلام فارغ انها لاترقص وحتى لو كانت تعرف الرقص فمن الأكيد أنها ستعيش وتموت دون أن تذهب الى حفلة لقص . دعنا اذا تغير الموقف . فى الجامعة ؟ أبدا . لقد اعترض أبوها على دخولها ثانوى ولولا محمود لما أكملت دراستها . فمابالك بالجامعـة ؟ فى زيارة ؟ « مش أوى مش رومانتيك » ولكن ليس هنـاك فرصة أخرى . اذا فى زيارة .. ولكن أين تكون أمها اذ ذاك ؟ ستكون فى حجرة الاستقبال مع صاحبة البيت وتخرج هى الى الحديقة .. ولكنها لا تعرف أحدا يملك حديقة سوى سامية هانم وأخواتها .. لا لا .. لا يمكن أن تتصور الموقف مع صدقى ابن سامية هانم ، ولم لا ؟ انه أنيق أسمر طويل ويشبه « جريجورى بك » ، ولكنها قطعا لاتحب صوته ولا نظراته ، فى صوته نبرة متعالية متكلفة ونظراته تقول « أنظرى الى اننى متواضع .. اننى لطيف .. اننى ديمقراطى » .. وعندما أوصلها وأمها بعربته الى البيت بعد زيارتهما الاخيرة لسامية هانم ، جلست الى جانبه مشدودة وعينيها موجهة الى الأمام لا تجسر على توجيهها اليه . وعندما شكرته أمها وابتسم نصف ابتسامة وقال بصوته المتعالى وعينيه عليها هى :

— تعبكم راحة يا طنط .

ودت لو استطاعت أن تصفعه . لا ، ان الرجل الذى تتصوره ، الذى سيحبها وتحبه لن يكون كصدقى ولن يكون كأبيها أيضا ولا كأى رجل قابلته الى الآن ، سيكون .. أنها لا تعرف كيف سيكون ولكنها على يقين من أنه سيكون مختلفا عن الآخرين مختلفا قطعا . وشكله ؟ أسمر طويل جذاب قوى التقاطيع بعيون سود كبيرة مثل .. مثل صدقى مثلا ولكن من ناحية الشكل ، من ناحية الشكل فقط .

صدقى .. صدقى ، لنفرض أن صدقى أحبها .. سيخرجان الى الحديقة وضوء القمر يلتمع من خلال الاشجار فى بقع ذهبية على ممر الحديقة المرصوف ورائحة النرجس تفعم المكان . ويقول بصوت متهدج تختفى منه نغمته المتعالية — ليلى — ويحدق فى عينيها ويضطرب صوته — ليلى ، أنا عايز أقولك حاجة ومش عارف أبتدى ازاى ..

وتضحك هى وتجرى أمامه وحين يكاد يلحق بها تدير رأسهـــا وتنظر اليه من طرف عينها :

ـ عايز تقول ايه يا صدقى بيه ؟

ويقول هو بصوت متوسل :

ـ أرجوك يا ليلى بلاش بيه دى •

وتهز هى كتفها وتميل على حوض القرنفل وتقطف قرنفلة حمراء وتقربها من أنفها ثم تبدأ تنثر أوراقها ورقة ورقة فى الهواء •

ويهمس هو :

ـ أرجوك خليك جد شويه ، أنا باحبك ، باحبك يا ليلى •

ويحيطها بذراعيه ويحاول أن يقبلها • وهنا تدفعـه هى بعيـدا وتصفعه صفعة قوية يرن صداها فى أنحاء الحديقة • ويضع هو يده على خده ويتمتم :

ـ أنا آسف ، آسف يا ليلى ، مقدرتش أتحكم فى نفسى •

وتضحك هى فى سخرية •

ـ انت فاكر يعنى عشان ما أنا فقيرة أبقى لقمة سهلة ، فاكر الفقرا ماعندهمش شرف ياسى صدقى ••

لا •• لا يمكن أن تقول هذا ، أولا هذا الكلام لا يحدث فى الحياة وانما هو على طريقة يوسف وهبى فى الروايات ، وثانيا هذه الفصاحة قد تواتيها فى حجرتها ولكنها لا تواتيها فى معاملتها مع الناس فهى جبانة مع الناس • اذا فلنحذف هذا الجزء ولنقف عند الصفعة والاعتذار •

ـ أنا آسف يا ليلى ، آسف ماقدرتش أتحكم فى نفسى •

ويمسك بيدها فى يديه مستغفرا ولكن يده تمتد الى ذراعها فتمر عليه وتنتقل منه الى كتفها ومن كتفها الى صدرها فخصرها •• تعاينها ، تماما كما فعلت يد دولت هانم •• دولت هانم من جديد !

* * *

وابتعدت ليلى عن النافذة ومشت فى الحجرة وقد غطت وجههـــا

بيديها .. تعاينها من أعلى الى أسفل كما لو كانت جاموسة معروضة للبيع !.. هذه المرأة لم تتغير ، حدث لها ما يفتت الحجر ولم تتغير ، هي هي ، بقامتها المديدة وبشخصيتها القوية وبقدرتها العجيبة على امتلاك كل من حولها من الناس وعلى تكييف حياتهم . هي هي ، لم يتغير فيها شيء سوى ملابسها طبعا فهي سوداء الآن ..

عندما كانت طفلة كانت دولت هانم تسحبها حيث يقع الضوء كلما رآتها ، وتدرس ملامحها لحظة ، ثم تضربها على فخذها وتقول :

- لا لسه برضه حلوه يا مضروبة .

وتلتفت الى من حولها وتقول :

- أصل ليلى عندها حاجة جذابة في وشها ، وكل ما أشوفها ضرورى أطمئن على أن الحاجة دى لسة موجودة ..

ولم تكن تغضب اذ ذاك بل لم تغضب حين قالت لها دولت هانم زمان ..

- لا' يا ليلى ، شعرك فظيع ياحبيبتى ، طفلة فى سنك يبقى شعرها طويل كده ؟

ووقفت الدموع فى عينيها حين رأت خصلات شعرها الاسود الناعم على الارض ولكن دموعها اختلطت بضحكاتها حين قالت لها دولت هانم بعد أن انتهت من قص شعرها .

- أيوه كده وشك بان - بقيتى جميلة خالص يا مضروبة .

لا لم تغضب اذ ذاك - كانت تحبها - وعندما دخلت حجرة الاستقبال فى بيتهم ، ووجدتها جالسة ارتمت فى صدرها ، ولم تكن قد رآتها منذ أن حدث ما حدث .

وبدأت ليلى تهز ساقيها وهى جالسة على السرير .. ليتها ما دخلت ولكنها أرادت أن تدخل ، لم ترغمها أمها بل اندفعت هى فى حماس ! وأخذت ليلى تستعيد الصورة جزءا جزءا وكأنها تجد لذة فى تعذيب نفسها ، ورغم أن أسبوعا قد مر على الحادث فقد كان حيا فى خيالها بكل تفصيلاته .

قالت دولت هانم :

— دهده ·· دا أنت بقيتى عروسة فى غاية الرقة يا ليلى ·

وفرحت هى وسالتها عن ابنتها :

— وازى سناء و ··

وكادت أن تنطق باسم صفاء الى جانب سناء بحكم العادة ولكنها تداركت الامر ·

— والله سناء فى اسكندرية مع جوزها · النهـارده الصبح كانت بتكلمنى فى التليفون وبتقول ··

والتفتت الى أمها وقالت :

— من حق ياسنيه ، عملتوا ايه فى العريس اللى أنا جايباه لبنت أختك جميلة ، الراجل كلمنى امبارح فى التليفون ··

وأطرقت أمها :

— نعمل ايه ؟ يظهر مافيش قسمه يا دولت هانم ··

— يعنى ايه مافيش قسمه . الراجل وراغب ، يبقى الرفض منكم انتم ·

وقالت أمها وكأنها تعتذر ·

— والله ما نا عارفه أقول ايه يا دولت هانم ·· سـميره أختى تعبت مع البنت ما فيش فايده · وقلنا لها ميت مرة يابنتى الراجـل مايعيبوش الا جيبه ··

— بلا كلام فارغ ، بكرة ياخد ستها ·

وأشاحت دولت هانم بوجهها بعيدا ووقع نظرها عليها :

— اسمعى يا سنيه · ما تخديه لليلى ·

وظهرت دهشة على وجه أمها ثم ابتسمت ابتسامة اعتذار :

— البنت صغيرة على الجواز يا دولت هانم دى عندها سبعتاشر سنة ··

- صغيرة ! ماحدش صغير ، قومى ياليلى ٠

ومسحت ليلى وجهها بيديها في حركة دائرية ٠ وقالت فى صوت مسموع : كفاية كفاية ٠٠ ولكن المنظر انطبع أمام عينيها ، والصوت تردد فى أذنيها ٠

هى واقفة وسط الحجرة ودولت هانم أمامها ، تفحصها من بعيد بعين نفاذة ٠ دولت هانم تسحبها حتى تصبح قريبة منها ، وتمر على جسمها بيدها اليمنى فى بطء من أعلى الى أسفل ومن أسفل الى أعلى ٠ وتتوقف يدها وهى صاعدة عند خصرها ثم عند صدرها ٠

وغطت ليلى عينيها وهى ما زالت جالسة على السرير وهمست : « يارب ٠٠ يارب »

ولكن صوت دولت هانم تردد فى أذنيها :

- البنت لازمها فستان كويس يبرز كسمها ، ولازمها كورسيه يرفع صدرها ويشد وسطها ٠٠ البنت مبهدلة قوى ٠

ثم قالت لأمها : حرام عليك ٠٠ البنت النهارده مالهاش سعر ٠٠ قالت بالكلمة : حرام عليك البنت النهارده على وش جواز ، والبنت ان ماكنتش تلبس مايبقلهاش سعر فى السوق ٠

وقفزت ليلى من السرير واقفة ٠٠ جارية ! جارية فى ســـوق الرقيق ٠٠ تلبس وتتزين ليرتفع سعرها ٠٠ ولكن لماذا تغضب ؟ لمـاذا تثور ؟ أليست هذه هى الحقيقة ؟ لا يمكن ٠٠ نعم هى الحقيقة ٠ هذه هى الحياة ، هذا هو وضع البنت فى المجتمع الذى تعيش فيـــه ويجب أن تتقبل هى هذا الوضع أو تموت ٠٠ تموت ؟!

وتربعت ليلى على الكرسى الاسيوطى ٠٠

عنـدما تولد البنت يبتسمون ابتسامة تسليم ، وعنـــدما تكبر يسجنونها ويدربونها على فن ٠٠ فن الحياة ! تبتسم وتنحنى وتتعطر وتترقق ٠ ٠ وتكذب وتلبس كورسيه يشد خصرها ويرفع صدرها لكى يرتفع سعرها فى السوق وتتزوج ٠٠ تتزوج من ؟ أى انسان « والراجل مايعيبوش الا جيبه » وتلبس الطرحة البيضاء ، وتنتقل الى منزل الزوج « والدنيا عايزه كده » وكل شيء سهل وبسيط ومفهوم ولكن ٠٠ ولكن

يجب أن تكون حريصة ، حريصة جدا ، يجب ألا تحس وألا تشعر وألا تفكر وألا تحب ، يجب والا ٠٠ والا قتلوها كما قتلوا صفاء ٠

وانكمشت ليلى في جلستها ٠٠

عند قالت ذلك في هذه الغرفة نظرت اليها أمها نظرة غريبة وكأنها تراها لأول مرة وفتحت فمها في دهشة وخرجت تهرول من الحجرة ٠ ولكنها مسرورة مما حدث بعد خروج دولت هانم ، من كل كلمة قالتها ، ومن كل حركة ٠٠

* * *

كانت هذه من المرات القليلة التي جرؤته فيها على أن تقول ماينبغى أن يقـــال ٠٠ كانت اذ ذاك مستلقية على السرير لا تبكى ولا تفكر ، ودخلت أمهـــا عليهـــا وقالت كلاما دوى فى أذنها ولم تفهمه ثم هزت كتفها هزة عنيفة :

ـ جرى ايه ، أنت نمت ولا ايه ؟

ورفعت وجهها الى أمها ٠

ـ جرى لك ايه ٠٠ مال وشك مصفر كده ؟

وألقت ليلى بوجهها على الوسادة من جديد ٠

وقالت أمها بصوت رقيق :

ـ ماتخديش بالك من الكلام اللى قالته دولت ـ لسه بدرى على حكاية الجواز دى ٠

وغشت عيناها طبقة من الدموع ، وقالت في هدوء دون أن ترفع وجهها ٠

ـ هى عايزه منى ايه ؟!

ـ مين ؟

ـ الست دى ٠٠

— حاتعوز منك ايه ؟

واعتدلت بسرعة وجلست على السرير وواجهت أمها :

— عايزة تقتلنى زى ماقتلت بنتها ؟

— اخرسى قطع لسانك ·

وقالت هى بصوت هادىء وكانها تقرر حقيقة ثابتة :

— هى مش قتلت بنتها ؟

— صحيح انك ماعندكيش احساس ، واحدة منكوبة زى دى ، تقولى عليها الكلام ده ·

ولم تتأثر هى بهذا الكلام ·

— هى مش انتحرت ؟

— وانتى تعرفى منين ؟

— أنا عارفه ، وعارفه انتحرت ليه كمان · تحبى أقول لك ؟

— هى اللى كانت حطت لها السم فى بقها ؟

واستلقت هى على سريرها ببطء وهى تبتسم ابتسامة كئيبة وتقول :

— هى اللى سممت حياتها ، وقفلت عليها أبواب الرحمة ·· مالقتش قدامها الا السم ·

وفتحت أمها فمها اذ ذاك فى دهشة ونظرت اليها نظرة غريبة وكأنها تراها لاول مرة وخرجت من الغرفة مهرولة ·

* * *

ومدت ليلى ساقيها وأسندت ظهرها الى المسند الخلفى للكرسى ·· ثم خاصمتها أمها ثلاثة أيام ·· ثلاثة أيام كاملة وهى غاضبة · وهى تعرف لم غضبت أمها ، غضبت أولا لأنها عرفت أن صفاء قد انتحرت ، فقد أخبرتها فى حينه أنها ماتت ، وغضبت أيضا لأنها قالت « تحبى أقول لك انتحرت ليه كمان ؟ »

كانت أمها حريصة على ألا تعرف شيئا عن هذا الموضوع أو عن مثله من الموضوعات ، ولكنها تسمع كلمة من هنا وكلمة من هناك وتجمع الخيوط وتستعمل عقلها ·· موضوع صفاء مثلا ، سمعت أولا أن صفاء انتحرت ، ابتلعت أنبوبة الحبوب المنومة التى كانت تعينها على النوم فى ظل زوج يعيبه كل شيء الا جيبه · ولكنها لم تعرف اذ ذاك أنها انتحرت في نفس الليلة ، نفس الليلة التى لجأت فيها الى أمها · وعملت الأم بالأصول ورفضت أن تؤويها ، أوصدت فى وجهها الباب فرجعت صفاء الى منزل الزوج وانتحرت ·· وبعد مدة أيضا عرفت قصة الحب وثورة الأم وطلب الطلاق ورفض الزوج ، بعد مدة ، مدة أحالت الفتاة الحلوة الى تراب ··

ودولت هانم أم هذه الفتاة الحلوة هى هى لم تتغير ، حدث لها ما يفتت الحجر ولم تتغير ، حزنت على موت بنتها كما تحزن كل أم ، ولكن هل شكت لحظة واحدة في صحة تصرفها ؟ أبدا ·· ولا الآخرون شكوا فى صحة هذا التصرف · انها تمضى برأس مرفوعة وبخطوات ثابتة وتفرض احترامها على الآخرين ·· يارب أى قوة هذه ؟! وأى مناعة ؟! وأى ثقة بالنفس ؟ ومن أين يستمدها الناس ، من أين ؟ ولم لا يرى الناس في تصرف هذه المرأة ما تراه هى ، ولماذا زاد احترامهم لها بعد أن ماتت ابنتها وما السر ؟ ما السر فى هذا الاحترام ؟

ودقت ليلى يدا على يد دون أن يسمع لدقة يدها صوت وقامت واقفة وبدأت تذرع الحجرة ··

هل يمكن أن تكون مخطئة ؟ هل أخطأت فى حكمها على هذه المرأة ؟ هل أخطأت هذه المرة أيضا ؟·· اللى يعرف الاصول مايغلطش ·· أمها قالت · مايغلطش وما ··

وتوقفت ليلى فى وسط الحجرة فجأة ، واتسعت عيناها ، وقالت بصوت هامس :

ـ ما يغلطش ·· ومايضعفش ·· وما يفقدش الثقة فى نفسه · وضمت شفتيها ، ولمعت عيناها كأنها وصلت بعد مجهود الى حقيقة طال بحثها عنها ··

والمسألة التى تطلبت منها كل هذا التفكير مسألة بسيطة ··· مسألة عرفتها أمها دون تفكير ·· اللى يعرف الاصول مايغلطش ·· تماما

كما ·· كما فى لعبة الكونكان ، يعرف الواحد قواعد اللعبة ، ويلتزمها ويلعب باطمئنان وهو واثق طول الوقت أنه على حق ، أنه على صواب ، لا يخطىء أبدا ، ليس المهم أن يكسب أو يخسر ولكن المهم أن يلعب تبعا للأصول ·

ودولت هانم قتلت ابنتها وهى تلعب ، ولكنها على حق ، على صواب فقد التزمت أصول اللعبة ·· والناس يحترمونها لأنها فعلت ذلك ·

وانهارت ليلى على حافة السرير ·· وضمائرهم ، ضمائرهم ·· أليست لهم ضمائر ؟ لا ·· المهم المظهر ·· المهم ما يراه الناس ·

ـ ماما ··

قالت هى يوما لأمها :

ـ ماما ، مش كان كفاية فستانين بدل تلاتة وتشترى لى قميصين تحتانيين ، هدومى التحتانية كلها تقطعت ·

وقالت أمها :

ـ الناس مابتشوفش هدومك التحتانية ، المهم انك تظهرى بمظهر كويس ·

ومحمود قال ··

* * *

واندفع باب حجرة ليلى ودخل محمود وهو يرتدى ملابسه الخارجية ووقف فى وسط الحجرة وقال :

ـ انت قاعدة هنا والبلد بتغلى ·

وابتسمت ليلى التى تعرف ميل أخيها الى المبالغة وهزت ساقيها وهى تقول :

ـ بتغلى ليه ؟

ـ الحكومة لغت المعاهدة ، معاهدة ٣٦

وقفزت هى من على طرف السرير واقفة وقد احمر وجهها :

- مش معقول !

- افتحى الراديو واسمعى .

وجرت هى خارجة من الغرفة الى الصالة لتفتح الراديو ، وتوقفت وهى تمر بمحمود ، أرادت أن تحتضنه وتقبله ، ثم مالت عنه فى خجل وهى تبتسم فى ارتباك .

ولم تحلم ليلى هذه الليلة . كان كل جزء من جسمها ينبض بالحياة وقضت ليلتها ساهرة وهى مستلقية على ظهرها وكأنها تنتظر شيئا .

- ٣ -

وفى الصباح وصلت ليلى المدرسة متأخرة والجرس يدق ، ودخلت وقد جمد وجهها وكأنها تنتظر شيئا ، وتلفتت حولها ثم لان وجهها واندفعت تجرى .. كان الجرس يدق والطابور لا ينتظم . والطالبات متفرقات جماعات فى الحوش . وأخذت تنتقل من جماعة الى جماعة فى سرعة واضطراب دون أن تدرى لذلك سببا ، كانت الكلمات تنفذ من أذنيها الى قلبها ، والرجفة تسرى فى جسمها من أسفل الى أعلى حتى تتركز فى رأسها ، فى شعرها .

.. نزلوا البنات اللى فى الفصول .. لأ مافيش شغل ولا بنت حاتشتغل .. عليه ، شوفى بنات سنة أولى ، طمنيهم اذا كانوا خايفين.. بالعكس دول متحمسين خالص .. دول حتى أشجع من البنات الكبار .. احنا مش أقل من الطلبة .. بنات بنات ، البنات برضه عندهم شعور.. ضرورى نعبر عن شعورنا ..

والجرس يدق ، والمشرفات والمدرسات يصفقن ، والبنات متفرقات جماعات ، ووصلت ليلى الى شلتها وقالت عديلة :

- تعالى ياست ليلى شوفى قريبتك ، مش عايزة تخرج .

وبدت الدهشة على وجه ليلى :

- تخرج ؟ تخرج فين ؟

- فى المظاهرة طبعا .

ـ انتوا حاتخرجوا فى مظاهرة ٠

ـ طبعا حانخرج ٠ البلد كلها قايمة على رجل وكل المدارس حاتخرج واشمعنى احنا اللى مانعبرش عن شعورنا ٠٠

وانقطعت المناقشة عندما خرجت الناظرة الى الحوش والجرس مايزال يدق فى الحـاح ٠ وتجمعت الجماعات المتفرقة فى كتـلة آدمية كبيرة متساندة ، وعلا الهتاف :

ـ يسقط الاستعمار ـ نريد السلاح ـ السلاح ٠٠

وتقدمت الناظرة الى الميكرفون وقالت أن وظيفة المرأة هى الأمومة ومكان المرأة هو البيت ٠٠ وأن السلاح والكفاح للرجال ٠

وساد الصمت برهة ، خانقا ثقيلا ثم اخترقت الصفوف فتـاة سمراء قصيرة الشعر عريضة المنكبين سوداء العينين لامعتهما وتقدمت وصعدت السلالم الأربعة التى تفصل الطالبات عن الناظرة ووقفت أمامها وقالت وصوتها يرتجف فى الميكروفون :

ـ ان حضرة الناظرة تقول ان المرأة للبيت والرجل للكفاح ٠ وأنا أريد أن أقول أن الانجليز حين قتلوا المصريين سنة ١٩١٩ لم يفرقوا بين الرجل والمرأة ٠ وان الانجليز حين سلبوا حرية المصريين لم يفرقوا بين الرجل والمرأة ، وأن الانجليز حين نهبوا أرزاق المصريين لم يفرقوا بين الرجل والمرأة ٠

وعلت صرخات متفرقة ، وبدأت الطالبات يقفزن ويعانقن بعضهن البعض ثم ارتفع صوتهن موحدا كالهدير : يسقط الاستعمار ٠٠ السلاح السلاح ٠٠ نريد السلاح ٠

وتراجعت الناظرة ٠

وقالت ليلى لهسناء :

ـ أما بنت هايلة صحيح ٠

ـ أهو كده الجدعنة صحيح ـ تقدرى انت تعملى كده ؟

وضحكت ليلى وهى تغمض عينيها وتتصور نفسها فى ذلك الموقف وقالت :

- ياريت .

ثم رجعت الى الموضوع من جديد .

- اسمها ايه ؟

- ساميه زكى فى توجيهية علمى .

وانعقدت القيادة لسامية وسارت الطالبات خلفها الى باب المدرسة الرئيسي ، وطرقت سامية الباب وطرقته البنات خلفها ، وظل البـاب موصدا ، وانقطع الهتاف وانقسمت المتظاهرات الى جماعات تتشاور وتتصايح ثم ساد الصمت برهة ، كانت الطالبات ينصتن الى همهمـة خافتة تترامى من بعيد ، واكتسبت الهمهمة قوة شيئا فشيئا حتى صارت هتافا يصم الآذان ، ونزلت طالبة تجرى من على السلم ..

- طلبة الخديوى اسماعيل .

واجتمعت الطالبات كتلة واحدة من جديد وبدأ الهتاف من جديد يتبادله الطلبة فى الخارج والطالبات فى الداخل :

لا استعمار بعد اليوم ..
يسقط أعوان الاستعمار ..
السلاح السلاح نريد السلاح .
نموت وتحيا مصر .

وازداد طرق البنات على الباب ، وصعد أحد الطلبة على ســـور المدرسة وقال : ابعدوا عن الباب ..

وتراجعت الفتيات الى الخلف . وبدأ الباب يضعف من الدفعات القوية من الخارج دفعة وراء دفعة .

وقالت عديلة :

- ياللا يا سناء .

وتبعتها سناء دون تردد ، دون أن تنظر الى الخلف ، وانفصلت الشلة الى قسمين وبقيت ليلى مع جميلة .

وقالت جميلة :

– أنا مش خارجة ·

وهزت ليلى كتفها وقالت وهى تمشى فى اتجاه الباب :

– خليك · أنا شخصيا خارجة ·

وقالت جميلة :

– ليلى ··انت المسئولة عن اللى حايحصل ، افرضى أهلك شافوك ، أبوك ولا محمود ؟

وابيضت شفتا ليلى وقالت فى ضيق :

– أهلى ، أهلى ! هو ماخدنش له أهل غيرى ؟

ولكنها وقفت فى مكانها لا تتقدم ·· وقفت مترددة ·

وقالت جميلة :

– ارجعى ·· ارجعى أحسن دى حاتبقى بهدلة ·

وفى هذه اللحظة اندفعت جماعة من الطالبات تجاه ليلى وحاولت ليلى أن تتراجع ، أن تشق لنفسها طريقا لتنفصل عن الكتلة الآدمية المتدفقة ، ولكن الكتلة جرفتها فى طريقها وفصلتها تدريجيا عن جميلة ووجدت ليلى نفسها فى الشارع ·

★ ★ ★

وتراجع الطلبة الى الخلف وافسحوا للطالبات طريقا ، وتقدمت الطالبات الموكب يتبعهن الطلبة ، وعلى جانبى شارع خيرت تجمع المارة وأصحاب المحلات الصغيرة وصبية الشوارع · وامتلأت النوافذ والشرفات بالناس ·

وسارت ليلى تتلفت حولها يتنازعها الخوف والخجل · الخوف من أن يراها أحد ، والخجل من جسمها الممتلىء الذى خيل اليها أن كل العيون تتركز عليه ·· وهتاف يعلو كالموج ثم ينحسر لتلحق الموجة الأولى موجة ثم تمتزج الموجتان · وتصفيق وزغاريد وأيدى تلوح وعيون تلمع وأجسام ترتفع وتنخفض فى قفزات مجنونة ، وأفواه مفتوحة وحبات من العرق تلتمع على جبين عريض ، وأقدام تدق ، وأعلام تخفق ، ودموع تنهمر واندفاع ··

واندفع الدم فى رأس ليلى ، انتشت ، وشعرت أنها قوية وخفيفة كالطير • وشقت الصفوف الى الأمام وارتفعت على أكتاف الطالبات وهتفت لحظة بصوت غير صوتها ، صوت اجتمع فيه كيانها الذى مضى وكيانها الآتى وكيان هذه الآلاف التى امتدت على مرأى بصرها ، ثم ضاع صوتها ، تلقفته الآلاف ونزلت ••

واجتذبتها عينان ، عينان راحتا تحدقان فيها فى الحاح صامت ، الحاح يطوقها ويخنق منابع القوة فى جسدها وروحها •

وتقدمت الى الأمام ولكن العينين ما زالتا تلاحقانها فى الحاح وكأنهما مسلطتان على قفاها •• ورأت ليلى نفسها فى البيت على مائدة الطعام ، وأباها وقد اكفهر وجهه ومد يده مهددا وأمها وقد ابيضت شفتاها •• وسرت رعدة فى جسدها وانهارت ساقاها • وتلفتت خلفها لترى أباها • كان ما زال واقفا فى مكانه على رصيف ميدان لاظوغلى بالقرب من القهوة ، وقد كز بأسنانه على شفته السفلى •

والكتل من خلفها تدفعها بلا رحمة الى الأمام ، بعيدا عن أبيها وقد اسود وجهه ، وعن أمها وقد ابيضت شفتاها • وتلاشى أبوها من مرأى بصرها ، ولم تعد تراه • لم تعد ترى الا هذه الآلاف وقد انصهرت فى كل •• كل الى الأمام يدفعها ، كل يحيطها ويحميها ، وانطلقت من جديد تهتف بصوت غير صوتها ، صوت وحد كيانها وكيان الكل •

***

كز أبو ليلى على شفتيه حين فتح لها الباب ، فتح لها الباب فى هدوء ، وفى هدوء أغلقه ثم أظهر الشبشب الذى أخفاه خلف ظهره وحاول أن يطرحها أرضا ، وتدخلت أمها تحول بينه وبينها ودفعها بعيدا ، وبعيدا وقفت ترتجف شفتاها ، وبيديه خلع حذاء ليلى ، وعلى قدميها دوت طرقعة الشبشب وعلى ساقيها وظهرها ، وضحكة امرأة على السلم وصراخ طفل وليد ونهنهة أمها ، وصوت أبيها يصرخ فيها « اخرسى » وطرقعة الشبشب مرة بعد مرة وبين المرة والمرة توقف ، توقف ، ونفس محبوس ، ثم تدوى الطرقعة من جديد ، وحفيف حقيبة الكتب وهى تسحبها على البلاط وصرير أسنانها فى الجلد وخطوات أبيها تتباعد وطرقه باب غرفته وخطوات أمها تقترب ويداها وقد امتدت اليهما برودة البلاط وهى تزحف على قدميها ويديها الى غرفتها ••

وعندما وصلت ليلى الى غرفتها تحاملت على نفسها ووقفت على قدميها وأقفلت الباب فى وجه أمها وأوصدته بالمفتاح ، وجرت ســاقيها الى المقعد المواجه للسرير وجلست ، وشعرت أنها تختنق ووضعت يدها على رقبتها وقامت واقفة وراحت تجرى فى الحجرة وهى تهمس : أروح فين ، مش ممكن ، مش ممكن أستنى هنا •

وكالعمياء تخبطت فى السرير وفى الدولاب وفى المقعد •

وقرعت أمها الباب قرعا خفيفا وهمست :

ـ افتحى يا ليلى •

وتوقفت ليلى فى •سط الحجرة وغطت وجهها بيديها ••

ـ أروح فين ؟ لو قفلت ميت باب مش حايبعدوا عنى ، دايما ويايا ، دلوقت ويايا حتى والباب مقفول ، دايما ويايا ، أبويا وأمى ويايا ، على نفسى على صدرى ، ولا دقيقة أنسى ولا دقيقة أحلم ولا دقيقة أفكر فى شىء تانى ولا دقيقة لى ، دايما أنا وهم والحقيقة ، الحقيقة الكئيبة ، أنا وهم على جسمى الممدود فى الصالة •

ومضت ليلى تذرع الحجرة •

ـ أعمل ايه ؟ أعمل ايه يارب ؟

أموت نفسى ؟ وساعتها ••

وتخيلت ليلى نفسها نائمــة على السرير ميتــة وعيناها مقفلتــان وجسدها متصلب وأبوها الى جانب السرير يبكى بحرقة •• زى •• زى العيل ••

والناس الذين يخاف منهم يشيرون اليه ويقولون :

ـ هو ده اللى قتل بنته •

وأمها سيسود وجهها وتصرخ فى أبيها وتقول :

ـ انت •• انت اللى قتلت بنتى •

أبدا لن يسود وجه أمها ولن تصرخ فى أبيها • ستظل طول عمرها تمشى على أطراف أصابعها ودموعها تسيل بلا صوت •

وانهارت ليلى على طرف السرير ودفنت وجهها فى يديها •• لم

تعيش ؟ لم ؟ انها ليست انسانا ، انهـا ممسحة مصـددة فى الصالة ، كالممسحة التى يمسح فيها الناس أقدامهم • وليس هناك من يحبها ولا من يعاملها كانسانه •

وقرعت أمها الباب :

- يابنتى افتحى ، كلى لقمة ، ولا بلى ريقك بشوية ميه ••

على المائدة زمان ، وهى صغيرة أبوها قال :

- ليلى مش بنتنا - لقيناها على باب الجامع - حتى شوف يا محمود أنا أبيض وانت أبيض وماما بيضه ، ليلى بس اللى سوده •

ونظرت هى لأمها وأمها ضحكت وقالت :

- لقيناها فى اللفة غلبانة ومسكينة قلنا نربيها ينوبنا ثواب •

ووجدت ليلى نفسها تسحب يدها وتخفيها خلف ظهرها ، تماما كما فعلت وهى طفلة •

وعاودت أمها قرع الباب فى خفة وهى تهمس :

- افتحى يا بنتى افتحى يا ليلى ، انت أصلك تبقى بايخة لمـــا تعندى - تبقى زى ••

وهزت ليلى ساقها فى انتظام وقالت لنفسها :

- زى الكلب ، زى الحشرة ، زى الدبة •• بابا قال وهو فى السرير عيان وأنا باحضنه ، زى الدبة اللى قعدت تحضن فى ابنها لغـــاية ما مات •

لم ؟ لم احتضنته بشدة ؟ لم لا تكون رقيقة كما يريد هو ؟

كل شىء تفعله تندفع اليه بقلبها وبكيانها وتحسب أنه صواب فاذا به خطأ • كل ما تفعله خطأ فى خطأ ، وليس هناك من يحبها •• فى المدرسة ؟

لو رأتها عديلة ممددة فى الصالة لهزت كتفها وقالت : غلط ، غلط منك •• أنت اللى غلطانه ، فضلت ساكتة لما ركبوك ، أنت أصلك ضعيفة ••

وقالت ليلى بصوت هامس باك :

- أعمل ايه يا عديلة ؟ أقدر أعمل ايه ؟

نعم هي ضعيفة ، ضعيفة كأمها وكأمها ستظل ضعيفة طول عمرها تبيض شفتاها وتنزل دموعها بلا صوت ·

وارتفع صوت أمها من خلف الباب :

- يا بنتي احنا ضروري صوتنا يجيب لآخر الشـــارع · افتحي يا بنتي - حتموتي من الجوع ·

وقال محمود :

- افتحي يا ليلى ، بابا نزل ·

ولحظت لأول مرة أن الحجرة قد أظلمت وأنها لم تضيء النور ·

وازداد القرع على الباب ولم تجب ·

وقال محمود في صوت غاضب :

- ليلى ·· حانضطر نكسر الباب ·

وترددت برهة ثم قامت الى الباب وأدارت فيه المفتاح ·

وعادت الى المقعد وخلفها وقع أقدام والنور الكهربائي يؤلم عينيها ·

* * *

ورفعت ليلى يديها تحجب النور عن عينيها ·

وقالت أمها :

- قومي بقى بلاش عند ، قومي يابنتي ·

وأنزلت ليلى يديها ونظرت الى أمها دون أن تتكلم ، وبدت في عيني الأم دهشة أعقبها استنكار وقالت :

- كان حد قالك تعملي العمــلة السودة اللي عملتيهــا ؟ تفضحينا وتجرسينا في الحتة ، هي جميلة مش بنت زيك · اشمعنى ما عملتش عملتك ؟

ودخل محمود وهو يحمل كوبا من الماء ووقف أمام ليلى وأخذت ليلى الكوب دون أن ترفع عينيها اليه وتقلصت أمعاؤها والماء ينزل فيها وانطوت بنصفها الأعلى على بطنها وأحاطتها أمها بذراعيها من الخلف •

ووقف محمود يواجه النافذة وقد أعطى ليلى ظهره ، وحين خرجت الأم استدار فى بطء وقال فى ارتباك وكأنه يجد صعوبة فى طرق الموضوع :

— أنا آسف يا ليلى على اللى حصل ، وأعدك انه مش حايتكرر تانى •• أبدا •

وسالت دموع ليلى وقلبت شفتها السفلى وبدت فى عينيها نظره حزينة وهزت رأسها وهى تقول :

— وايه الفايدة ؟ ايه الفايده يامحمود ؟ أنا اتقتلت خلاص انتهيت • بعد اللى حصل النهارده كل حاجة اتغيرت ، مابقتش انسانة ، بقيت ممسحة ، ممسحة جزم •

وغطت ليلى وجهها وانخرطت فى عويل اهتز له جسمها ••

واقترب منها محمود ووضع يده على كتفها وقال :

— بلاش كده يا ليلى ، بلاش عشان خاطرى ، بلاش المبالغة دى •

— دى الحقيقة •

وسكت محمود قليلا ثم قال فى تردد :

— عارفه ياليلى ، المهم انك تدركى انك كنت غلطانه ، لو أدركت كده مش حتتألمى زى ما بتتألمى دلوقت •

وأزاحت ليلى يد محمود بعنف عن كتفها ، وقفزت واقفة وشفتاها ترتجفان :

— وانت كمان ؟ انت كمان يا محمود ؟ انت بتقول انى غلطانة ؟!

وانهار صوتها وهى تردد :

ـ وانت كمان يا محمود ! وانت كمان ٠

ـ اهدى شوية وخلينا نتناقش بعقل ٠

ـ عقل ! فين هو العقل ده ؟ آنا مش فاهمه حاجه ، مش فاهمه حاجه خالص ٠٠ أنا غلطانه ٠٠ غلطانه ليه ؟ ماسرقتش حد ، ماقتلتش حد ، خرجت فى مظاهرة فيها ألف بنت ، عبرت عن شعورى ٠٠

وتوقفت ليلى عن الكلام برهة وكأنها تفكر ثم قالت بصوت خافت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ غلطانة ، فعلا غلطانه ، عبرت عن شعورى زى ما أكون انسان ونسيت ، ونسيت انى مش انسان ، نسيت انى بنت ٠٠ ست ٠

وضحكت ضحكة أشبه العويل ٠

والتفتت الى محمود وهى تكمل كلامها :

ـ مش ده اللى انت عايز تقوله يا محمود ؟

ـ أنا ماقلتش كلام فارغ زى ده ، وانت عارفة كويس ، عارفه انى أحترم المرأة وأعتقد انها زى الرجل تمام ٠

وأكملت ليلى كلامه وهى تشير بيدها اشارة خطابية :

ـ لها كل الحقوق وعليها كل الواجبات ٠

ثم التفتت الى محمود وهى تبتسم ابتسامة باكية :

ـ على الورق ؟ مش كده يا محمود ؟ على الورق ؟

ـ ورق ايه ؟

ـ كلام حلو على الورق ولكن لما ندخل فى الجد ، لما أختك تعبر عن نفسها كانسان تبقى غلطـانة ! مش كده ؟ تبقى غلطـانه والغلط راكبها من راسها لرجليها ٠

وأدرك محمود أنها تقول الحقيقة وأثاره هذا الادراك وصاح فى حدة :

ـ دى مش طريقة مناقشة دى ، اهـدى شوية وأنا أفهمك كل حاجة ٠

وهزت ليلى رأسها وقالت وقد اختفت من صوتها نبرة الغضب وحلت محلها نبرة يأس

— أنا مش فاهمه حاجة يامحمود ، مش فاهمه حاجة خالص ، ايه الصح ؟ وايه الغلط ؟ مش عارفة أصدق مين ؟ وما اصدقش مين ؟ واعتقد في ايه ؟ وما أعتقدش في ايه ؟

ولم يحر محمود جوابا ، وقالت ليلى :

— قول لى يا محمود ، أعمل ايه ؟

ونظرت اليه بتوسل وكأن حياتها تتوقف على رده على هذا السؤال • وبدت الحيرة على وجه محمود وود لو استطاع أن يهون عنها بأى كلمة ، أن يكذب عليها كما كان يفعل وهى صغيرة وأن يدفن رأسها فى صدره ، ولكنه أدرك أنها كبرت ، كبرت أكثر مما كان يتوقع • وأراد أن يقول لها أن المشكلة ليست مشكلتها وحدها وأنها مشكلته هو أيضا ومشكلة جيلهم كله ، ولكنة وجد أن من السخف أن يتفلسف وانسان يتألم أمامه •

ودخلت أمه تحمل صنية الطعام ومسح محمود وجهه بيده ، وبقى السؤال معلقا بلا جواب •

ووضعت الأم الصنية على مائدة خشبية صغيرة أمام المقعد وقالت

— اقعدى يابنتى كلى لقمه ، والله انت غلبانه ومسكينة وجايبه لروحك النكد •

ولم ترخ ليلى عينيها عن محمود • وضايقه اصرارها على انتظار الجواب وقال بحدة :

— ما تسمعى الكلام يا ليلى وتقعدى تاكلى •

وأغمضت ليلى عينيها لحظة ثم فتحتهما وقالت :

— اخرجوا الأول •

ونظرت الأم الى محمود تنتظر قراره • وأشار اليها بالخروج وسار خلفها ، وعندما هم باغلاق الباب خلفه تعمد أن تلتقى عيناه بعينى ليلى ••• وفهمت ليلى ، فهمت أنه هو بدوره حائر مثلها ، مسكين مثلها .

انه يعرف ما الخطأ وما الصواب ولكن على الورق .. على الورق .

ونظرت ليلى الى الطعام لحظة ثم أشاحت بوجهها عنه ، واتجهت الى مفتاح النور وأطفأته ثم تحسست طريقها الى المقعد وجلست .

* * *

وسمعت ليلى طرقة خفيفة على بابها ، واتصلت الطرقة خفيفة فى الحاح ، ولم تجب ، ثم انفتح الباب وسطع النور فى الحجرة ، ووقف عصام على الباب وعلى شفتيه بسمة مرتبكة .

- أقدر أدخل ؟

ولم تجب هى ، واختفت ابتسامة عصام ، وبدأ يحك ذقنه بيده وقالت ليلى :

- أرجوك ياعصام سبنى دلوقت .

وأشرق وجه عصام وتقدم الى داخل الغرفة وجلس على طرف السرير مواجها لليلى ومال بنصفه الأعلى الى الأمام وشبك يديه حول ساقيه وقال :

- أسيبك ازاى بقى يا ستى - انت مش أختى الصغيرة ..

وأخذت ليلى تقرع مسند الكرسى بيدها قرعات خفيفة منتظمة ..

أخته ! أخته الصغيرة ! لم تعد هذه الجملة تؤثر فيها ، ولكن فى يوم من الأيام كانت غارقة وانتشلتها هذه الجملة .. فى حوش البيت محمود قفز وقال « ليلى مش أختى . مش بنتنا . مش بنتنا » وعصام قال « أختى أنا أختى الصغيرة » « خلاص .. أنا أخت عصام ، أخت عصام الصغيرة ». ومن يومها وهو يدللها بهذا اللقب ..

وكان عصام مازال فى جلسته وما زالت عيناه متعلقتين بليلى . ولحظت هى أن يدها تقرع مسند المقعد وسحبتها الى جانبها وارتخت فى جلستها ومالت برأسها الى الخلف .

وقام عصام من على طرف السرير ، وجلس نصف جلسة على مسند المقعد الذى تجلس عليه ليلى ، ومال عليها ومر بيده برقة على خدها من أسفل الى أعلى وأزاح خصلة من الشعر تهدلت على جبينها . وتوقف

تنفس ليلى حتى أكملت يد عصام دورتها وهوى قلبها الى أسفل جسمها ودق دقة عنيفة · وقال عصام :

ـ انت مش عايزة تكلميني ولا ايه يا ستى ؟

بصوت صغير كمن يكلم طفلة صغيرة ، طفلة تافهة حقيرة ·

وقامت ليلى كالملدوغة من على المقعد وقد صعد الدم الى رأسها · وأعطت ظهرها لعصام وتقدمت حتى حاذت النافذة ·· وخلفها وقف عصام ووضع يديه على كتفيها · واستدارت هى استدارة عنيفة لتواجهه وهى تقول فى غضب :

ـ اسمع يا عصام أنا مش عيله ··

ولم تكمل جملتها ·· تقلص وجه عصام كمن يعانى ألما عنيفا ولمعت حبات من العرق على جبينه ولفحت أنفاسه وجهها ساخنة ، وشعرت بجسمه يلاصق جسدها · وتراجعت حتى التصقت بجدار النافذة · ولانت ملامح عصام ولانت عيناه وأشرق فيهما نور ثاقب اخترق جسدها واستقر فى حناياها ··

وقطعت خطوات أمها لحظة السكون التى دامت بينهما ، وعيناه فى عينيها والنور فى حناياها ، وهز عصام رأسه كمن يفيق من حلم ، واحمر وجهه وأخرج منديله وجفف العرق من على جبينه ثم بدأ يحك ذقنه بيده ·

وفتحت أمها الباب نصف فتحة واستدار عصام دون أن يلتفت الى ليلى واتجه الى الباب ، وتراجعت أمها تفسح له الطريق ، وأقفل عصام الباب خلفها فى رقة وحرص ، وسمعت ليلى همسا فى الصالة ثم خطوات تبتعد ··

وجرت ليلى الى المرآة وأسندت خدها اليها ولكن برودة المرآة لم تطفىء ذلك الشيء الذى يتوهج كالشرار فى صدرها بل زادته اشتعالا · وجرت الى النافذة وفتحتها على مصراعيها وانكفأت على حافتها ودلت رأسها ويديها فى الهواء ··

كم دامت هذه اللحظة ؟ دقيقة ؟ عمر ؟ لقد عاشتها من قبل ، نعم عاشتها بكل تفاصيلها · متى ؟ قبل أن تولد ؟ بعد أن ولدت ؟ فى الحقيقة ·· فى الحلم ··

وانسحبت غمامة من على القمر وشعرت ليلى بالنور يغمرها ويتساقط كالأزهار من شعرها ويديها • وعرت جسدها رعشة من برودة الجو فاستقامت وأقفلت النافذة وعادت الى مقعدها ولمحت الطعام فشعرت بجوع شديد ، والتهمت عشاءها بشهية واندست فى قميص النوم وأطفأت النور ودخلت السرير وأغمضت عينيها ونامت نوما عميقا ولكنها صحت مبكرة مع الفجر •

***

صحت ليلى واسم عصام على لسانها ، وأبقت عينيها مغمضتين على صورته وهو يقف تجاهها يركز عينيه فى عينيها •

وشعرت وهي مستلقية في سريرها كأنها تعيش اللحظة من جديد •• شعرت بنور ثاقب يخترق جسدها ويستقر فى حناياها •

وتنهدت ليلى وتمطت وفتحت عينيها وراحت تستعيد ملامح عصام فى ذاكرتها ، وانطبعت أمامها صورته وهو يقف تجاهها يركز عينيه فى عينيها • وحاولت أن تتذكره كما كان منذ سنة ، منذ شهر ، منذ أسبوع • ولكنها لم تستطع ، وكأنها لم تشاهده من قبل ، وكأنها لم تشاهده الا أمس وهو يقف تجاهها ينظر اليها بوجهه الحليق وببذلته الأنيقة في لون البن المحروق ، وبربطة عنقه السماوية وبقميصه الأبيض بياض الثلج ••

ووضعت ليلى يديها على الوسادة تحت رأسها وابتسمت •• أليس من المضحك أنه كان دائما معها ، منذ الطفولة معها ، تحت سقف واحد ولم تره الا بالأمس ؟ وهذه الفكرة بدورها مضحكة • كيف ؟ كيف لم تره الا الامس ؟ لقد رأته آلاف المرات ولعب معها وهى طفلة ، وكان هو الذى علمها العد من واحد الى عشرة وكتابة اسمها بالعربية والانجليزية ، وهو الذى حماها من سيطرة محمود • ثم رأته بعد أن بلغت كل يوم • ومع ذلك لم تره الا أمس وكأنه مخلوق جديد ، وكأنها رأته من قبل بعين غير العين التى رأته بها أمس ، عين •• عين القلب ، عين الحب ••

وقفزت ليلى جالسة فى سريرها وأحاطت فخذيها بذراعيها •• نعم هو الحب •• الحب • وهمست ليلى « عصام بيحبنى وأنا باحب عصام » •• واستمعت الى الكلمات كلمة كلمة • وملأتها الكلمات كأنها السحر بشعور

غامر من السعادة ، وعادت تردد الجملة كأنها أغنية ، تستمع كل مرة الى وقعها فى نفسها وهى تهز رأسها منتشية .

وغمرها الشعور بالسعادة حتى لم تعد تتحمله ، وأرادت أن تصرخ ، أن تغنى أن ترقص أن تقفز .. وقفزت من السرير الى وسط الحجرة وجرت الى النافذة ، وفى سرعة واضطراب فتحتها على مصراعيها ..

كان نور الفجر يمزق ما تبقى من وحشة الليل ، وحشة الظلام .. ووقفت ليلى رافعة الرأس مفتوحة الصدر ، وقفت تتلقى أشعة النور وكأنها تمتصها فى حناياها شعاعا وراء شعاع .

وأدركت فجأة ، وهى واقفة فى النافذة ، أن مرحلة جديدة من مراحل حياتها قد بدأت .. لقد انتهت دنيا أحلامها ، انتهت بلا رجعة ، حطمها أبوها .. وبدلا من دنيا الأحلام تفتحت أمامها دنيا الحقيقة ، لا دنياهم الكئيبة المقيدة ، بل دنيا حرة ، تستطيع فيها أن تحب وتحب ، بلا خوف بلا وجل بلا لوم بلا ندم .. دنياها هى وهو .. دنياهما التى لايستطيع العالم الخارجى أن ينفذ اليها أو أن يتحكم فيها .. دنياها التى تستطيع فيها أن تعبر عن نفسها كالطير الطليق ، وهى تعرف طول الوقت أنها محبوبة وأنها مرغوبة وأنها محترمة وأن كل تصرف لها معقول ومقبول .

واستدارت ليلى وأعطت ظهرها للنافذة واستندت على حافتها بذراعيها وأغمضت عينيها ومضت تمشى فى الحجرة وهى تتمايل كأنها ترقص ثم توقفت وفتحت عينيها ، وعلى مبعدة عكست لها المرآة صورة فتاة متوردة الخدين يشع النور من عينيها ومن شفتيها ومن خديها ، وخيل اليها أن الشمس المنعكسة على المرآة تخدعها ، وجرت الى المرآة والتصقت بها ..

واكتشفت ليلى لأول مرة فى حياتها أنها جميلة .. ووجدت نفسها تضحك وحدها كالمجنونة أمام المرآة ، وابتعدت قليلا وأحنت رأسها وسندت صدغيها بيديها وراحت تسكن من موجات الضحك التى اجتاحت جسمها .

ولمدة أربعة أيام لم يظهر عصام · انتظرته ليلى ظهر اليوم الاول ثم في العصر ثم في المساء واليوم التالى والذى يليه ولم يظهر عصام ·

وانتحلت له الاعذار في بادىء الأمر ، قديكون مريضا أواختلف مع محمود ولكنه لم يكن مريضا ، ولم يكن مختلفا مع محمود · وشيئا فشيء تمكنت من ليلى الحقيقة التى حاولت أن تهرب منها ، أدركت أن عصام يتجنبها ، يتجنبها هى بالذات ·

وداهمها شعور ممض بالخوف ، كما لو كانت تركت وحيدةفىصحراء شاسعة مظلمة مخيفة ، وما من انسان معها ، ولا حائط تستند اليه ، وهى ضعيفة لا تقوى على الوقوف ، والأرض تغور تحت قدميها ، وهى لا تستطيع أن تنظر الى الخلف فقد انقطعت الصلة بينها وبين الخلف ، بينها وبين الاحلام ، ولا تستطيع أن تنظر حواليها فليس حواليها الا الصحراء الكئيبة ، ولا تستطيع أن تنظر الى الامام فليس أمامها الا الظلام ·

هل أخطأت ؟ ألم ينظر عصام اليها هذه النظرة ؟ وان لم يكن قد فعل فلم تغيب ؟ لم اذا يتجنبها ؟ هل أملت نفسها عليه ؟ هل فرضت نفسها عليه ؟ ···انها لم تتكلم ! لم تنطق ! يارب ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت ليتملكها هذا الشعور بالهوان ، بالضياع ؟ !

لو استطاعت أن تفهم ، لو فهمت حقيقة الوضع لهان عذابها ولكنها تحاول ولاتستطيع ، لاتستطيع أن تفهم لماذا اقتحم عصام حياتها هكذا ولماذا مضى هكذا ؟ ··· انها تستطيع دائما أنتصعد الى شقة خالتها وأن ترى عصام ، وأن تستوضحه الأمر ولكنها لن تفعل ولو طال هذا الوضع ألف سنة ، لن تملى نفسها على أحد ، لن تفرض نفسها على أحد ، وكفاها ما أصابها من هوان ، هوان لم يكن لها يد فيه فهو الذى جاء ، وهو الذى ذهب ···

ومن حول ليلى مضت الدنيا كما تمضى دائما ، وليلى تصبح وتمسى وتذهب الى المدرسة وتأكل وتتكلم وتذاكر وتندهش عندما تجد

نفسها تضحك أحيانا وتتحمس ٠٠٠ كانت الجرائد قد بدأت تتكلم عن ضرورة تنظيم كفاح مسلح فى منطقة القناة وباب التطوع قد فتح للفدائيين ، ومحمود قلق يتقلب كالحمص فى المقلاة وهو يمر بمرحلة اتخاذ قرار ، وفى قلب كل انسان تطوف رغبة فى أن يكون هناك فى القناة وجها لوجه أمام العدو فى معركة موت أو حياة ٠

وكانت هذه الرغبة تطوف بقلب ليلى أحيانا ، كما تطوف بكل قلب ، وفى كل مرة طافت هذه الرغبة بقلبها كانت تجد لذة غامضة فى تحقير نفسها ، فهى أولا بنت والبنت ليست انسانا ٠ وحتى لو كانت رجلا لما استطاعت ، انها ضعيفة وشرف الكفاح من أجل مصر ليس من نصيب الضعفاء !

وفى مرة همس لها خاطر حيرها ٠٠ فى المظاهرة لم تكن ضعيفة ، كانت قوية ، كانت خفيفة ، والجماهير تحميها وتسندها ، وحتى أبوها لم يستطع أن يخيفها وهى فى المظاهرة ؟

ولكنها سخرت من نفسها من جديد ، ان قوتها ، ان كان لديها قوة لا تنبع من داخلها ، بل تأتى من الخـــارج ، وهى على كل حال لا تستطيع أن تقضى بقية عمرها فى مظاهرة !!

* * *

كانت ليلى جالسة مع أمهـا العصر فى الصالة حين أخبرتها أن جميلة قد قررت قبول العريس وأن الخطبة ستعقد قريبا ، وقالت ليلى :

ـ يعنى جميلة كانت ويايا طول النهار فى المدرسة وما قالتش !

وقالت أمها :

ـ يمكن خايفة تجرحك ٠

وبدت الدهشة فى وجه ليلى :

ـ تجرحنى ؟

ـ يعنى عشان من سن واحدة وهى حاتتجوز قبل منك ٠٠ وأرادت ليلى أن تحتج ولكنها لم تجد فى نفسها القدرة حتى على الاحتجاج ٠ وجلست تستمع من أمها الى القصـــة كاملة وبدات تهتم بالموضـوع وتستقصى ما استعصى عليها فهمه ٠

فالعريس هو المقاول الذى قام ببناء بيت دولت هانم فى الدقى ، وقد طلب منها أن تخطب له بنت ناس على أن تكون بيضاء ، وفكرت دولت هانم فى جميلة وعرضت عليه صورتها فوافق وتقدم اليها وعرض أن يدفع مهرا قدره ٣٠٠ جنيه مقابل تأثيث أربع غرف . ووجدت خالتها أن العريس « لقطة » ولا يقع للبنت مثله مرتين . ولكن ظروفها المالية لم تكن تسمح بمواجهة نفقات الزواج ، فهى تعيش وجميلة وعصام على المعاش الذى تركه المرحوم زوجها ، ومصاريف كلية الطب « تقطم الوسط » وكل شىء ارتفع ثمنه « والدنيا بقت نار » .

ولم تصرح أم جميلة بهذه الحقيقة فى بادىء الامر « والواحد نفسه عزيزة » .

وتعللت بأن البنت ما زالت صغيرة ، ولكنها لم تقطع حبل الاتصال بينها وبين العريس خلال وساطة دولت هانم ، شدت الحبل باحتراس حتى لا ينقطع ثم فرغ صبر دولت هانم واضطرت أم جميلة أن تخبرها بالحقيقة من خلال دموعها . وتولت دولت هانم تنظيم المهمة .

أخذت جميلة الى شيكوريل واشترت لها فستان دانتيل بمبى ومن شيكوريل الى الكوافير حيث أشرفت على تصفيف شعرها وتزيين وجهها ، ومن هناك الى بيت دولت هانم حيث كان العريس فى الانتظار .

وكانت هذه نقطة التحول ، فعندما رأى العريس جميلة أمامه وجها لوجه ، لحما ودما «والبنى آدم مش زى الصورة» وقع «لشوشته» ، كما قالت أم ليلى .

ولكن المؤكد أن جميلة لم تقع « لشوشتها » فى العريس فى بادىء الامر ، فقد أخبرت ليلى أنه عجوز وبلدى وبكرش .. ولكن التحول حدث تدريجيا ، أوصل العريس جميلة وأمها الى البيت بعربته الفورد ، وفى الطريق أراهما فيلته فى الهرم وقال انه سيخليها من السكان لتسكنها العروسة ، وبدأ رأس جميلة يلف .

ولكن مشكلة أم جميلة كانت ما زالت قائمة ، كيف تؤثث أربع حجر بثلثمائة جنيه ؟ هذا الى جانب الاثواب اللازمة لجميلة وقمصان النوم والملابس الداخلية وما الى ذلك ؟

ولكن أم جميلة لم تفكر فى المشكلة طويلا ففى اليوم التالى زارتها دولت هانم وأخبرتها « ان الراجل حايجنن على جميـــلة ومابينامش الليل » وأنه اكراما لعينى جميلة يعرض أن يقوم هو بتجهيز البيت بأكمله والمطبخ بكل المعدات بما فيها الفريجيدير والبوتاجاز ، وأن يدفع علاوة على ذلك المهر الذى كان سيدفعه أولا وقدره ٣٠٠ جنيه ٠

ولم تسع الدنيا فرحة أم جميلة وبدأت « تدوى على ودن البنت والدوى على الودان برضه بينفع » ٠٠

وأسندت ليلى ظهرها على المقعد وتصورت خالتها وهى « تدوى على ودان جميلة » وانطبعت أمامها صورة خالتها بجسدها الملىء وسمرتها الرائقة وشعرها المصفف وملامحها السمحة الدقيقة ٠ ورأتها وهى تميل على جميلة تقبلها وتحتضنها وتدللها وكأنها طفلة صغيرة وتأسرها فى نفس الوقت بقبلاتها وبنعومتها وبحنانها ٠

وابتسمت ليلى ابتسامة خفيفة ٠٠ انها تعرف طريقة خالتها ، تعرفها جيدا ، ان خالتها مختلفة تماما عن أمها ، انها تشبهها فى الشكل فقط ، ولكنها أكثر مهارة منها فى فن الحياة ، ان خالتها تعرف دائما ما تريد ، وتصل دائما الى ما تريد بالنعومة وبالقبلات وبالحنان ، وأمها قد تعرف ما تريد ولكنها لا تصل دائما اليه ، انهـــا تهاجم الانسان وتصرح بما تريد وتؤنب وتلوم وتقرع ، بينما لا تصرح خالتها أبدا بما تريد ، انها توحى به بلفتة ، بكلمة عابرة ، وتلف وتدور فاذا ماوجدت مقاومة تراجعت مؤقتا لتعاود السعى ، اذا قالت جميلة :

— لأ يا مامى مش عاجبنى ، مش عايزه أجوزه ٠

قالت هى :

— بلاش يا حبيبتى ، أنا مش عايزه حاجة الا انك تكونى دايما مبسوطة ٠

ثم تشير اشارة عابرة ، الى فلانة الفلانية التى تزوجت عن حب ثم فشلت فى زواجها لأن الاستقرار المالى أساس كل زواج سعيد ٠

وتقول لجميلة فى مناسبة أخرى :

— نفسى يا جيجى يكون عندك أحسن عربية فى البلد وأحسن

فساتين ، انت جميلة يا جيجي والجمال ده خسارة يتبهدل يا حبيبتي ٠
وقالت أم ليلى :

ـ شاطرة ٠

وانتزعت هذه الكلمة ليلى من تفكيرها وقالت :

ـ هى مين ؟

ـ أختي سميرة ، خالتك ، شاطرة عرفت تطوى البنت تحت جناحها والبنت كمان عقلها طار لما سمعت حكاية الخاتم السوليتير دى ٠٠

ـ سوليتير ايه ؟

ـ العريس عقبال عندك حايجيب لها خاتم سوليتير و ٠٠

ودق جرس الباب الخارجى وقامت ليلى لتفتح ووجدت على الباب سيده خادمة خالتها ٠ ورفعت سيده وجهها المكتنز الى ليلى وانفرجت شفتاها الغليظتان عن ابتسامة :

ـ الست الصغيرة بتقول اتفضلى شويه ٠

وأعطت سيده ليلى ورقة مطوية ٠٠

وفتحت ليلى الورقة وقرأتها :

« سناء وعديله هنا ، أرجو أن تطلعى ، واذا لم تطلعى سأنزل لاحضارك ، قبلاتى »

وقالت ليلى لسيده وهى ترد الباب :

ـ انتظرى شويه ٠

وأمسكت ورقة وقلما وبدأت تكتب وقد تجهم وجهها ٠٠

وقالت أمها :

ـ مش عايزة تطلعى ليه ؟

ـ دماغى بتوجعنى ٠

ـ عايزاهم يقولوا ايه ؟! غيرانه !

وجزت ليلى على شفتها وهى تكتم سيل اللعنات التى توالت فى ذهنها وقالت :

- أنا ! أنا غيرانه ؟!

- خلاص ، اطلعى باركى لخالتك وللبنت •

وقفت ليلى مترددة فى الصالة •• انها لا تريد أن ترى عصام ، ولكن لا بد أنه ما زال فى الخارج مع محمود • ثم أنها لا تستطيع أن تنقطع عن خالتها نهائيا ، وخاصة أن ذلك الانقطاع سيفسر تفسيرا عجيبا بعد خطبة جميله ، وان رأته ، ان كان موجودا ، ستعامله بطريقة عادية كما لو كان شيئا ما لم يحدث بينهما •

وفتحت ليلى الباب وقالت لسيده :

- طيب يا سيده قولى للست انى طالعه •

ومضت سيده فى تثاقل وهى تهز ردفيها •

ووقفت ليلى أمام الدولاب وامتدت يدها دون أن تشعر الى أجمل أثوابها ، الى ثوبها الاحمر حمار البطيخ •• لقد قالت خالتها أنه يبرز جمال بشرتها •• لا لن تلبس هذا الثوب ، لن تتزين له ، لن تسعى الى استعادته • ونحت ليلى يدها عن الثوب واختارت بلوزة وردية وجيب أسود بسيط ومشطت شعرها القصير فى اهمال وصعدت الى شقة خالتها وضربت الجرس •

* * * *

فتح عصام الباب وكان مرتديا ملابس الخروج ، بذلته الكحلى المقلمة التى يعتز بها ، ووقف يسد الباب وكأنه لا يريدها أن تدخل ثم تراجع الى الخلف •

ونسيت ليلى ما انتوته من معاملته بطريقة عادية ، فما أن لمحته حتى تجهم وجهها وأشاحت بنظرها بعيدا عنه • وتقدمت فى اتجاه حجرة الجلوس ••

وهمس عصام يناديها :

- ليلى ••

واستدارت تواجهه • وفى عينيه رأت نظرة عجيبة ، نظرة لم ترها من قبل فى عينى انسان •• نظرة حيوان حبيس يتألم •• نظرة حيوان جريح ••

وقفزت الدموع الى عينيها وأغمضتها وجزت على شـفتها لتكتم الدموع واستدارت لتمضى فى طريقها من جديد ٠

ووضع هو يده على كتفها فى رقة متناهية ، وكأنها مخلوق رقيق يخشى عليه أن يتحطم من لمسة يده ، وعندما استدارت لتواجهه من جديد كان وجهه قد لان وعيناه قد لانتا وأشرقتا بنور ثاقب يخترق جسمها ويستقر فى حناياها ٠

وسالت من عينيها دمعتان مسحتهما بكم ثوبها ، وهزت رأسها فى حيرة وفتحت باب حجرة الجلوس ودخلت ٠

* * * *

ووقف عصام أمام باب حجرة الجلوس الذى أغلق فى وجهه ٠٠لا٠٠ لا يمكن أن تتركه هكذا ، هكذا ، والدموع فى عينيها ، لا ، لا يمكن أن تتركه ، انها معه هنا فى جسده ، فى دمه ، فى أحضانه يمسح بقبلاته دموعها وخديها وفمها الدقيق الوردى المنفرج كزهرة متفتحة ٠٠ وشعر عصام بالدم يغلى فى عروقه ويتركز فى مؤخرة رأسه وكأن ليلى فى صدره فعلا ، وكأنه يقبلها فعلا ، يذيب فى قبلاته حرمان أربعة أيام وحرقة أربعة أيام ، يقبلها فى نهم ، فى جنون ، بلا توقف ، بلا انقطاع، فى فمها المستدير ، فى صدرها المستدير ، فى جسمها المستدير ٠٠

وهز عصام رأسه وكأنه يفيق من حلم ، واحمر وجهه وجلس على مقعد فى الصالة وعينيه معلقة بباب حجرة الجلوس ٠٠ انه قذر ! كيف يجرؤ على التفكير فيها بهذه الطريقة وكأنها ٠٠ وكأنها امرأة رخيصة فى الطريق ؟ وهى ابنة خالته وأخت محمود ، ووجهها وجه طفل ، وجه أم، وجه أخت ، وجه يصرف الشيطان نفسه عن الشر ، وهو لم ينقطع عن التفكير فيها لحظة خلال الاربع أيام الماضية ، بهـذه الطريقة القـذرة المخجلة ٠٠

ذلك اليوم ٠٠ عندما التصق جسمه بجسمها بالقرب من النافذة شعر بألم مفاجىء ، ألم حاد ممض وكأن سكينا قد اخترق ظهره بغتة ثم ٠٠ ثم نظرت اليه بعينيها و ٠٠ وارتد طفلا ، استعاد نفس الشعور اللذيذ الهادىء الهانىء الذى لم يستشعره سنينا طوالا ٠٠ شعوره وهو طفل وأمه تميل عليه فى سريره بوجهها الحلو ٠ وغزت جسده سكينة تخدره وتهدهده ، سكينة لم يعرف مثلها طوال حياته ، وأدرك

اذ ذاك ، أدرك فجأة أن مصيره قد ارتبط بهذه الفتاة الحلوة التى تقف تجاهه ، الى الابد ٠٠ الى الابد ٠

ولم يعرف كيف خرج من الحجرة وكيف استمع الى هراء محمود وكيف صعد الى شقته ؟ هل طار أم مشى ؟

وفى فراشه كانت ليلى معه ٠ فى قلبه ، فى دمه ، فى جسده ، وشعور ممض ، شعور غارق فى أعماقه لا يدرك كنهه ، شعور يحول بين سعادته والاكتمال ٠

ثم بدأ وهو مستلقى على السرير يفكر فى ليلى كجسد ، بهذه الطريقة القذرة المخجلة ، وكأنها ٠٠٠ وكأنها امرأة فى الطريق ٠٠٠ وطفا الشعور الممض الذى كان غارقافى أعماقه ثم تحدد تدريجيا واتضحت معالمه ٠٠ وأدرك عصام أنه فى مأزق مؤلم مضن ٠ انه يستطيع أن يتزوج ليلى ولكن متى ؟ بعد سنين طويله ، بعد أن يتخرج ، بعد أن يمضى سنة الامتياز ، وربما بعد ذلك بكثير ، بعد أن يستطيع أن يقف على قدميه ماليا ، وطوال هذه السنين ؟ ! طوال هذه السنين سيظل يشتهيها كما يشتهى الانسان امرأة فى الطريق ، سيظل يجرم فى حقها وفى حق محمود وخالته وأمه وأخته ، فى حق كل القيم الأخلاقية ٠٠٠

القيم الأخلاقية التى تعلمها والتى يؤمن بها تقول ان النساء نوعان ، امرأة فى الطريق تشتهى وأم أو أخت أو زوجة ، والمرأة التى تشتهى شىء رخيص ، يحاز وتنتهى قيمته بانتهاء الشهوة ، وهى صيد يصطاده الرجل ، وينتصر عليه ويسبيه كما تسبى النساء فى الحروب ويتفاخر بانتصاره أمام الآخرين ٠ والانسان لا يشتهى ابنة خالته ولا يشتهى حتى أخت صديقه اذا كان مهذبا ، لأن الشهوة مرتبطة بالجسد والجسد قذر الى أبعد حدود القذاره ٠

وفى تلك الليلة نام عصام نوما مضطربا وهو يتقلب فى سريره وكأنه بحر مائج مكفهر ٠ وصحا عدة مرات على نفس الحلم يضنيه ويعذبه ، حلم سخيف ، عديم المعنى ، حلم مخيف ٠٠

فهو يجرى فى حوار مظلمة ، حوار موحشة ، يجرى وخطر ما يهدده ، خطر لا يدرك كنهه ، ولكنه يدرك أنه يقترب منه خطوة بعد خطوة ٠

ويخرج الى ساحة واسعة ويرى فيها جمعا من النسـاء ويدرك أنه نجا• ويسرع يشق طريقه بين جموع النساء ، حتى اذا ما وصل الى الوسط سقط منهكا •

ويتلفت عصام حوله فيجد ملابسه غارقة في الدماء ، وعيني ميت تلاحقه ، تخرق رأسه وصدره ، تخرق جسمه وكأنها مسامير محمية •• ثم تستدير جثة الميت وتواجهه وتشير بأصبعها اليه •• الميت محمـود والدم دمه •

ويحاول عصـام أن يتراجع ، ولكن النساء من حوله يطوقنـه ، ويشرن اليه بوجوه مكفهرة ، بوجوه متشابهة ، بنفس الوجوه ، وجه •• وجه أمه •

وفي صعوبة يشق طريقا بينهن ، ويتراجع بظهره ، وهن يلاحقنه خطوة بعد خطوة ، وجها أمام وجه ، وأصابعهن مشرعة فى وجهه وفى صدره وفى جسده كالمسامير المحمية ••

ويلتفت عصام خلفه ليجد نفسه على حافة هاوية عميقة مظلمـة والنساء يتقلمن نحوه خطوة بعد خطوة ••

ويصرخ عصام ويستيقظ من النوم •

وفي الصـــباح قرر عصـــام أن يتجنب ليلى رأن يدفن عاطفته لهـا ، ولـــكي يتمكن من ذلك قرر في نفس الوقت أن يقـــوى من علاقته بعنايات ، زميلته فى الكلية ، ان العلاقة بينهمـــا لا تتعدى دور الاســـتلطاف ولكن من الممكن أن تتطور ، ان عينيهــا السـوداوين الكبيرتين تقولان أشياء وتعدان بأشياء وقد تخرج معه اذا طلب منها ذلك وقد تسمح له حتى بتقبيلها • ان عنايات جميلة قطعا ، بشعرها الاسود الذى ترسله فى خصلات على جبينها وبخصرها النحيل ، انها قطعا من أجمل بنات كلية الطب•منذ أيام السنية وهى جميلة ، أجمل بنات السنية•

وقد استطاع أن يصمد لقراره أربعة أيام كامله ، ولكن ها هو ذا يجلس فى الصالة وعيناه وأذناه وكيانه كله مشدود الى باب حجرة الجلوس • كان من المفروض أن يخرج ، أن يحضر حفلة الشاى فى كليته ويقابل عنايات كما اتفقا ، ولكنه لم يخرج ، اوتدى ملابسه ولم يستطع أن يخرج • وها هو ذا يجلس فى مكانه وكأنه مشدود الى باب

حجرة الجلوس بخيوط سحرية · لايقوى على الحركة ولايرغب فى الحركة· ينتظر فى صبر وكأنه خلق لينتظر ، لينتظرها حتى تخرج اليه وتنظر اليه بعينيها العميقتين ، وتلفه بحنانها ، وتعيد الى قلبه وجسده السكينة التى لم يعرفها فى حياته الا حين نظرت اليه بعينيها الرائقتين تلك النظرة ·

وسمع عصام صوت ليلى وهى تقول :

ـ دقيقة واحدة ، حاشوف خالتي وننزل على طول ·

وخرجت ليلى من الحجرة تتبعها جميله ، ومرت به دون أن تنظر اليه وقالت جميله :

ـ دهده يعني ما نزلتش ؟

وقال عصام فى اختصار وكأنه يريد أن يقفل الموضوع :

ـ عندى شوية صداع ·

ـ طيب ما تيجى جوه ·

ومشى عصام خلف جميله فى الممر المؤدى الى حجرة نوم أمه ، وحين وصل الى الحجرة كانت أمه تقبل ليلى وتقول :

ـ عقبال عندك يا حبيبتي ·

وعندما لمحته أمه التفتت اليه وقالت :

ـ ايه يا حبيبى انت ما نزلتش ولا ايه ؟

وقالت جميلة وهى تمد يدها بالأسبرو :

ـ عنده شوية صداع : الأسبرو أهو يا عصام ، وحا أجيب لك الميه ·

وخرجت جميلة من الحجرة ·

ووقف عصام الى جانب مقعد أمه ، وليلى تجاهه على السرير · ولم يرخ عينيه عنها ولكنها تعمدت أن تتحاشى نظرته ·

وتناولت أم عصام قطعة من « الأوبيسون » كانت تطرز فيها وعرضتها على ليلى :

ـ ايه رأيك فى الرسمة ، عشان صالون جميلة ؟

وفحصت ليلى الرسم وقالت :

ــ حلوه خالص يا خالتى ، والغرزة جميله ، أنت هايله خالص !

وقامت ليلى من مكانها لتعيد قطعة « الأوبيسون » وأمسكت بها خالتها وأمالتها اليها وقبلتها فى حنان · ورفعت ليلى رأسها وتقابلت عيناها بعينى عصام لحظة ثم أشاحت بوجهها بعيدا عنه ·

وقالت أم عصام :

ــ عارف يا عصام ليلى بتفكرنى بأيه ؟ بتفكرنى بنفسى لما كنت فى سنها ، صورة طبق الأصل ·

وابتسم عصام وأغمض عينيه لحظة ثم عاد يركزهما على ليلى ·

وقالت ليلى وهى تنظر الى خالتها ثم تتلفت حولها الى الغرفة الأنيقة الأثاث :

ــ مش معقول يا خالتى ، بقى أنا حلوة زيك كده ، ولا شيك ولا شاطره ؟!

وقالت خالتها :

ــ تمام يا ليلى ، دا أنت شبهى أكتر من جميله ، كان حقك تبقى بنتى مش بنت أختى سنيه

واستمعت جميلة الى جانب من الحديث وهى تدخل حاملة كوبا من الماء · وأعطت الكوب لعصام وهى تقول :

ــ هى ايه الحكاية ؟ نازلين مدح كده يعنى فى بعض !

وأمسك عصام الأسبرو فى يد والكوب فى اليد الأخرى · ووضع الأسبرو فى فمه وارتفعت اليد الأخرى بالكوب ·

ثم توقفت فى منتصف الطريق معلقة فى الهواء ·· كانت ليلى تنظر اليه نظرة تساؤل حزينة ·· نظرة عتاب ·· وجرع عصام الماء دفعة واحدة واستدار ليضع الكوب على مائدة مجاورة وتعمد أن يبقى مستديرا مدة حتى يتغلب على تأثره ·

وقالت ليلى :

ــ عن اذنك بقى يا خالتى ·

ــ مستعجلة ليه يا حبيبتى ؟

ــ نازله مع سناء وعديله ·

واستدار عصام وواجهها مبتسما :

ـ طيب سناء وعديله وراهم مشوار وأنت وراك مشوار أيه ؟

وقالت جميله :

ـ قول لها يا عصام !

ولم تنظر ليلى الى عصام وهو يتكلم ، وقفت عيناها عند ربطة عنقه ولم تتعداها الى وجهه ، وحين تكلمت ، لم توجه له الكلام :

ـ معلهش يا جميلة مرة تانية ٠

* * *

وعندما توقف المصعد أمام شقة ليلى صممت أن تدخل عديله وسناء معها الشقة ، واحتجت عديله بأن الوقت متأخر وألحت ليلى :

ـ عشر دقايق بس ، اخص عليك يا عديله والنبى عايزه أسألك فى حاجة ٠

ـ طيب ما تسالى دلوقتى ٠

ـ لأه جوه ٠

وجلست الصديقات الثلاث فى ركن من أركان حجرة الجلوس المذهبة وبعد أن اطمأنت ليلى الى أن الباب مقفل قالت :

ـ هى جميله قالت لكم الصبح على حكاية الخطوبه دى ؟

وقالت عديلة :

ـ هو دا السؤال ؟ أما انت بايخه صحيح ! طبعا قالت لنا ! أمال احنا جايين ليه ؟ مش عشان نبارك ؟

ـ أنا أصلى عايزه أعرف ، اشمعنى أنا اللى تخبى عنى ؟!

ومدت عديله رقبتها الطويلة الى الأمام ، ودقت على مسند الكرسى بأصبعها ونظرت الى ليلى بعينيها الكبيرتين المغرقتين فى السواد :

ـ بس كده ؟ أفهمك أنا ياستى ، لو قالت لك حاتقعدى تتفلسفى زى عوايدك ، والمثل بيقول الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح ٠

وضحكت ليلى وهزت كتفها :

ـ وأنا مالى حاتفلسف ليه ؟ ما دام عاجبها خلاص ، مبروك عليها ٠

وقالت سناء :

- ايه اللى مش عاجبك فيه يا ليلى ؟ ايه والنبى ؟

ولم تجب ليلى • وقامت عديله واقفة ووضعت يديها فى وسطها ومالت على ليلى كأنها تستجوبها :

- جيبه فاضى ؟

وابتسمت ليلى :

- مليان •

- عنده عربية ؟

- فورد •

- والفيلا ؟

- فى الهرم •

وأشارت عديله بيدها اشارة يأس وقالت :

- يا أختى بلا نيله ، ومش عايزاها تاخده ، طول عمرك كده ياليلى بش فقر !

وابتسمت ليلى وقالت .

- ساكته ليه يا سناء ، ماتلحقينى يا أختى •

وقلبت سناء شفتها الرقيقة وارتفع أنفها الدقيق الى أعلى وسألت عديله :

- بتحبه ؟

ووضعت عديله يدها على رأسها وتظاهرت بأنها داخت من السؤال وقالت :

- اتلهى ••

ثم استدارت تواجه سناء وتقول :

- دى جوازه يا خيبه مش روايه •

وضحكت ليلى حتى طفرت الدموع الى عينيها وضمت سناء شفتيها الرقيقتين وهى تخفى ابتسامتها واتسعت عيناها وهى تصطنع الدهشة

ـ أمال حاتتجوزه ازاى ؟

وأدركت عديله أن سناء تتعابط وأمسكت بذراعها وقالت

ـ قومى ، قومى يا مقصوفة الرقبة نروح ٠

ولم تتحرك سناء ٠

ـ والنبى يا عديله ، حاتتجوز ازاى ؟

وقلبت عديله كفها :

ـ حاتخلينى أقل أدبى ـ زى الناس ـ زى أمك ما اجوزت أبوك ٠

وقلبت سناء يدها بدورها وهزت كتفها :

ـ من غير حب ، من غير شعر ، من غير شوق ، من غير ٠٠

وقاطعتها عديله وهى تجلس :

ـ بس ، بس ، انت حاتلضميهم ، ما احنا حافضينهم ٠

وقالت ليلى :

ـ المسألة مش هزار يا عديلة ، انت زى أمك ؟ أفكارك زى أفكار أمك ؟ أمك اجوزت من غير حب لأنها ما كانتش تقدر تعمل غير كده ، ما كانتش تقدر تختار ، وان اختارت ما تقدرش تتجوز اللى اختارته ٠ أمهاتنا كانوا حريم ، ملكية للأب بتنتقل للزوج ، ولكن احنا مالناش عذر ، تعليم واتعلمنا ، وكل شىء فهمناه ، وضرورى نتحكم فى مصيرنا ، الحيوان نفسه بيختار ٠

وتحمست سناء ومدت يدها تخبط بها على كف ليلى وتقول :

ـ يا بت ياجامده ، تعجبينى ٠

وقالت عديلة ببرود :

ـ ومين قال لك ان جميله ما اختارتش ؟

وقالت ليلى ونظرة حزينة تبدو فى عينيها :

— لا ، ياعديله . جميله ما اختارتش ، اللى اختار أم جميله والناس اللى حواليها ، والافكار القديمة بتاعتهم و ..

وأكملت سناء كلام ليلى : .

— ... ومواصفات ابن الحلال ، انه يكون ابن ناس وكويس ومريش ومقطوع من شجرة ولا يسكرش ولا يدخنش .

وقالت عديلة :

— أما بواخه صحيح ، ضرورى تفهموا ان الناس مش زى بعض . جميله عندها فكرة عن الجواز وبتحاول تحققها ، جميله عايزه العربيـــة وعايزه الفريجيدير وعايزه السوليتير وعايزه ...

وأكملت سناء كلامها :

— الشارى اللى يدفع أكتر ، مش كده ؟

وتدخلت ليلى فى الكلام :

— جميله عايزه الحاجات دي كلها ، لان الناس فهموها ان الحاجات دى مهمه ، أن قيمة الانسان فى امتلاك الحاجات دى . أن الانسان مايكونش محترم الا اذا كان غنى .

وقالت سناء :

— لا ، وفيه كمان نقطه تانيه ، هى جميله مش كانت عايزه تتجـوز واحد تانى ؟!

وقالت عديله :

— واحد تانى مين ؟

وأدركت ليلى أن عديله لا تعرف قصـــة جميله وممدوح وقالت لكى تستبعد الموضوع من المناقشة :

— دا كان مجرد كلام

وسادت فترة سكون ثم قالت ليلى فى وجوم :

— عارفين حكاية صفاء دى ، مايتروحش أبدا من دماغى . بتخلينى

دايما أعتقد ان البنت النهارده ما تقدرشي تعيش زى أمها ما كانت عايشه
وقالت سناء :

- العقلية قطعا اتغيرت ، بالنسبة لأمهاتنا الجواز كان نصيب مكتوب على الجبين ، لا الواحد يقدر يغيره ولا يهرب منه ، ضرورى يتقبله زى ما هو ·· وبالنسبة لنا الوضع اتغير لان عقلية الحريم اتغيرت ، البنت النهارده ماتقبلش الوضع اللى كانت أمها بتقبله ·

وقالت عديله :

- طيب قومى يا حضرة المفتى الاعظم ، قومى أحسن الساعه قربت على التمانيه ، وبعدين أمك تضربك ·

وقامت سناء وهى تضحك ووقفت عديله فى وسط الحجرة وقالت فى سخرية :

- والله احنا مصيبتنا سوده ، على الاقل أمهاتنا كانوا فاهمين وضعهم ، أما احنا ، احنا ضايعين ، لا احنا فاهمين اذا كنا حريم ولا مش حريم ، ان كان الحب حرام ولا حلال ، أهلنا بيقولوا حرام وراديو الحكومة طول الليل والنهار بيغنى للحب والكتب بتقول للبنت روحى انت حره ، وان صدقت البنت تبقى مصيبة ، تبقى سمعتها زفت وهباب ·· بالذمه دا وضع ؟ بالذمه احنا مش غلابه ؟!

وأغمضت ليلى عينيها وارتجفت شفتها السفلى ورسمت بيدها على حافة المقعد خطوطا متشابكة متعارضة · وقالت عديله :

- يللا بينا ، أظن اتفلسفتوا كفايه

وضحكت سناء وقالت :

- يعنى انت اللى ماتفلسفتيش ··

وهزت عديله كتفها وهى تبتسم :

- يعنى ماليش نفس ، أهو اتفلسفت باللى فيه القسمه ·

ووقفت ليـلى تودعهم حتى اختفيـا عن نظرها وأقفلت البـاب ببطء واتجهت الى غرفتها وعند باب الغرفة توقفت قليلا ·· لا ·· لا ·· أنها لا تريد أن تنفرد بنفسها ·· واستدارت واتجهت الى غرفة الجلوس

حيث جلست أمها الى آلة الخياطة تخيط لها قميصا للنوم ، ورفعت أمها عينيها وقالت :

- نزلوا ؟

- أيوه نزلوا !

وظهرت على ملامح الأم علامات الارتياح ، وابتسمت ليلى فى نفسها، ان أمها لا ترتاح ولا تطمئن حتى ينزل الضيوف .

وجلست ليلى الى جانب أمها ومدت يدها الى كتاب على مائدة مجاورة وقلبت صفحاته حتى وصلت الى الصفحة التى وقفت عندها وبدأت تقرأ وصوت آلة الخياطة يصل الى أذنيها متصلا حينا ومتقطعا حينا آخر .

٥

دق جرس الباب الخارجى وجرت نبويه الخادمة لتفتح الباب .واتضحت خطوات فى الممر ورفعت الأم عينيها فى توجس ثم انفرجت ملامحها . ووقف عصام على عتبة الباب مترددا وعلى شفتيه بسمة مرتبكة .

وقالت الأم :

- ماتيجى يا عصام

- هو محمود لسه ما جاش ؟

- زمانه جاى - ادخل يابنى .

وجلس عصام على مقعد يواجه ليلى وأمها . وحجبت ليلى وجهها بالكتاب وتظاهرت باستئناف القراءة . وواصلت أمها العمل بعد أن قالت لعصام:

- مبروك يا بنى عقبال عندك .

وساد الصمت لا يقطعه الا صوت الة الخياطة . وعصام يسلط عينيه على ليلى وليلى تتظاهر بالقراءة .

وقال عصام :

- بتقرى أيه ؟

وأزاحت ليلى الكتاب عن وجهها ، وقالت فى جفاف :

ـ كتاب لسلامه موسى ·

وابتسم هو ، ابتسامته نصف المكتملة :

ـ اشمعنى سلامه موسى ؟

ـ لقيته فى مكتبة محمود ·

ـ اذا كنت عايزه تقرى كتب قديمه عندك كتب ··

وذكر عصام اسم أحد المؤلفين ·

ـ قريت له ، لكن سلامه موسى أحسن ·

ومال هو بنصفه الأعلى الى الأمام وهو يحادثها عبر الحجرة :

ـ أحسن فى ايه ؟

ـ سلامه موسى بيقول اللى هو عايز يقوله على طول ، ولكن التانى بيلف ويدور وفين وفين على ما يقول اللى هو عايز يقوله ·

ونظرت ليلى الى عصام نظرة مباشرة صريحة ، واحمر وجهه وحك ذقنه بيده ثم ابتسم وقال :

ـ انت أصلك لسه صغيره ياليلى ، ومش فاهمه ان فيه ظروف تخلى الكاتب ما يقدرش يقول اللى هو عايزه مباشرة ·

وتوقفت آلة الخياطة وقالت الأم :

ـ ونويتوا أمتى ان شاء الله ؟

والتفت اليها عصام وفى عينيه نظرة مرتبكة وكأنه ضبط وهو يرتكب جريمة وقال :

ـ العريس عايز النهارده قبل بكره ، ولكن أنا بقول كفايه الخطوبة دلوقت ، والجواز لما تبقى تاخد التوجيهية ·

وقالت الأم :

ـ طبعا يا بنتى ، بعد التعب دا كله ، تخرج من غير شهاده ··

ودارت آلة الخياطة من جديد ·

وقالت ليلى :

- يعنى جميله مش حاتروح الجامعة ؟!

وابتسم عصام :

- يعنى انت اللى حاتروحى الجامعة ؟

- ومارحش ليه ؟

- وفايدتها أيه ؟ كل بنت مسيرها الجواز ·

وتوقفت الأم عن العمل وضحكت ضحكتها القصيرة اللطيفة

- يسلم فمك يابنى ، طول عمرك عاقل ، مش زى الشعنونة دى وأخوها ·

وبدأت ليلى ترسم بيدها على ثوبها خطوطا متوازية لا تتقابل ورفعت رأسها وقالت فى جد ووجوم :

- عارف يا عصام ، أنا ما كنتش عارفه أنك رجعى كده !

وفلت الخيط من الابرة وانهمكت الأم فى لضمه ·

- أنا مش رجعى يا ليلى ، ولكن أنا عايش فى الجامعة وأدرى بظروفها وما أحبش ان أختى تكون فيها ولا أنت · وأنت ··

وارتجفت شفته السفلى وغزا عينيه حزن عميق ، يعكس رغبة حبيسة ترتجف فى أعماقه ، رغبة فى الاندماج بهذه الفتاة التى تجلس أمامه ·

ودخل الخيط فى الابرة وانفرج وجه الام ·

وتحركت موجة جياشة فى كيان ليلى وكأن عصاما نقل اليها بهذه النظرة احساسه ، ولمعت الدموع فى عينيها وتناولت الكتاب الملقى الى جانبها فى لهفة وغطت به وجهها ·

وقالت أمها :

- أطلب لك شاى يا عصام ·

وباغتته كلماتها من جديد وقال مرتبكا :

- بلاش تعب ياخالتي ٠

- مافيش تعب ، أنا خارجه بره على كل حال ٠

وأدار عصام رأسه حتى اطمئن الى أن خالته قد اختفت ، وتردد قليلا وهو يتململ في جلسته ثم وقف واتجه الى ليلى وهي ما تزال تغطي وجهها بالكتاب ووقف على مبعدة منها وقال في صوت مختنق ثقيل :

- ليلى

وسقط الكتاب من بين يدى ليلى ومالت لتستعيده ٠ ورفعت الى عصام وجهها تدريجيا وهي تناديه بدورها ، بشفتيها المنفرجتين ، بخديها الورديين ، بعينيها اللتين تلتمعان في خط من نور ٠ واقترب عصام منها وكأنه مشدود اليها بقوة هائلة ، قوة لا تقاوم ، وقال :

- أنت عارفه ؟ مش كده ؟ عارفه من غير ما أقول ٠

ولم تستطع ليلى أن تتكلم ، ضمت شفتيها في شبه ابتسامة وأغمضت عينيها وهزت رأسها من أعلى الى أسفل هزات متكررة ثم فتحت عينيها على سعتهما بغتة ، وكأن فكرة طرأت لها ، فكرة انتقصت من هذه السعادة التي غمرت كل ذرة من جسمها ٠ وهبت واقفة وقالت في صوت مشروخ :

- لكن انت ما جتش يا عصام ٠ كل الايام دى ما جتش ٠ ليه ؟ ليه يا عصام ؟

وارتسم على وجهها ألم لا يحتمل ٠ ومد عصام ذراعيه ليحتضنها ، ليؤكد لها أنه لا يستطيع ، حتى لو أراد ، أن يبتعد عنها ثم توقفت ذراعاه في الهواء لحظة وانهارت ثقيلة الى جانبيه ٠ وأشاح بوجهه عنها وهو يقول :

- كنت خايف يا ليلى ٠

وأشارت ليلى بيدها الى صدرها في دهشة :

- خايف مني ؟ مني أنا ؟

وابتسم وهو ينظر اليها في حنان :

- خايف عليك ٠

- من ايه ؟

وقال عصام بعد تردد :

- من نفسى .. ومن الناس ومن الظروف ومن .. فى الحقيقة مش عارف أفهمك الموقف ازاى يا ليلى .

- والناس مالهم ومالنا يا عصام ؟ أنا مش فاهمه حاجه ، مش فاهمه حاجه خالص و ... .

وتوقفت ليلى عن الكلام حين سمعت خطوات أمها تقترب من الحجرة واتجه عصام الى آلة الخياطة وتظاهر بفحص القميص ..

وقالت الأم لليلى وهى تتجه الى مكانها :

- هو ايه اللى انت مش فاهماه ؟

وقالت ليلى في ارتباك :

- حته من الكتاب ، مش قادره أفهمها .

وجلست الام أمام آلة الخياطة وهى تقول :

- طيب ما تخلى عصام يفهمك .

وزال ارتباك ليلى ومالت برأسها الى كتفها وهى تبتسم فى خبث .

- عصام مش عايز يفهمنى .

وأخفى عصام ابتسامته ونظر الى خالته وهو يقف تجاهها وقال :

- أنا قلت لأ يا خالتى !

- أبدا يابنى ، طول عمرك ابن حلال وبتفهمها كل حاجة ، مش محمود اللى ماعندوش صبر .

ودقت ليلى الأرض بقدمها وعيناها تلمعان فى شقاوه :

- حتى كمان مش عارف ، مش عارف يفهمنى ...

وانفجرت فى الضحك ، والتفت اليها عصام وود لو استطاع أن يحتضنها بين ذراعيه ، أن يدفن هذا الوجه الضاحك فى صدره ويكتم هذه الضحكات بقبلاته قبلة وراء قبلة . ود لو استطاع أن يحتويها ، أن يفنيها فيه فلا تضحك منه ولا تضحك الا له ولا ...

وسمع صوت مفتاح يفتح الباب الخارجي وتوقفت ليلى عن الضحك واحمر وجه عصام وعاد الى مكانه الاول وجلس فى مقعده .

* * * *

ودخل محمود وصافح عصاما فى حرارة وكأنه لم يره من سنين ثم قبل أمه فى فمها وفى جبينها وخديها قبلات صغيرة متناثرة وهى تقاومه وتقول :

ـ ما تتكسف يا محمود ·

ووجهها يحمر كفتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ويدها تمسح فى ارتباك على شعرها الذى تسللت اليه خيوط من فضـــة ومحمود يحتج ويقول :

ـ ايه ؟ الواحد مايقدرش يبوس أمه كمان ؟! أمال يا أخوانا يبوس مين ؟ ايه رأيك فى المشكلة دى يا عصام ؟

وأدركت ليلى وهى تنظر الى أخيها أنه قد مر بمرحلة القلق ، وأنه قد اتخذ قرارا ·· وجلست على مقعدها وقد ركزت عينيها عليه ·

وقال عصام :

ـ لا ، دا أنت رايق أوى النهاردة !

وقال محمود :

ـ قرارات يا أستاذ ، قرارات خطيرة ·

وانسحبت رجفة الى جسم ليلى وتركزت فى رأسها ·· محمود ذاهب الى القناة ، الى القناة ·· وترددت هذه الكلمات فى رأسها وكأنها نشيد وغزت جسمها موجة من فخر ، من حنان ، من خوف ، وهبت واقفـــة واندفعت الى محمود وعيناها تلمعان · أرادت أن تحتضنه وتقبله ولكن عندما حاذته انحرفت عنه فى خجل وقالت بصوت مرتجف دون أن تنظر اليه :

ـ أعمل لك شاى يا محمود ؟

وأدرك محمود أن ليلى قد فهمت وليخفى تأثره جذب شـــعرها مقربا رأسها اليه وقال :

ـ بعدين ، بعدين يا ليلى ··

وعادت ليلى الى مكانها وعصام يقول :

ــ والحفلة كانت كويسة ؟

ــ حفلة ايه ، ودا وقت حفلات ! أنا مش فاضى للكلام الفارغ ده ٠٠ ولكن على فكرة انت يعنى خرجت من الكلية من غير احم ولا دستور

ــ كنت تعبان ٠٠

ــ تعبان ولا جيت تلبس وتستوجه عشان الحفلة ؟

ــ أدينى مارحتهاش ياسيدى ٠٠ ٠

ــ أمال الوجاهة دى عشان أيه ؟

ــ كنت رايح وبعدين غيرت رأيى ٠٠

وابتسم محمود فى خبث وقال :

ــ ولكن صاحبتنا حاتزعل ٠٠ حاتزعل تمام ٠

ولمح عصام ليلى تنظر اليه ، واحمر وجهه وقال :

ــ أنت حاتلبخ ٠

ورفع محمودَ كتفيه وذراعيه واصطنع البراءة وقال :

ــ أنا قلت حاجة ! حا أغير هدومى وأجيلك ، عندى أخبار خطيرة

وخرج محمود ٠٠

* * * *

جلست ليلى صامتة وقد جمد وجهها وإستأنفت أمها عملها ٠ وبدأت آلة الخياطة تدور وتطن فى أذنى ليلى ، وارتفع طنينها تدريجيا حتى خيل اليها أنها أصبحت معاول تدق فى رأسها بعنف ٠

وهبت ليلى واقفة وهى تنظر الى عصام وأشاح عصام بوجهه بعيدا عنها ٠٠

والآلة تدور والمعاول تطرق فى رأسها بعنف ٠ وارتفع الدم فى جسد ليلى وتركز فى رأسها وتقدمت نحو عصام وقد أعطت ظهرها لأمها

وبدأت شفتاها تكون كلمات دون أن يرتفع صوتها وهى تدعم كلماتها باشارات من يدها :

— مين هى ؟ مين هى ؟

وأغمض عصام عينيه ·· مجنونه ·· قد تلتفت أمها ، قد يدخل محمود ، ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل فى هذه المجنونة ؟

وتوقفت الآلة وهزت ليلى رأسها وكأنها تستيقظ من النوم

وقالت أمها :

— ماتروحى يابنتى تشوفى الشاى ! هى طبخه ولا أيه ؟!

ولكن الخادمة دخلت بالشاى فى هذه اللحظة ووضعته على مائدة صغيرة أمام عصام

وعادت ليلى الى مكانها وقد جمد وجهها · ونظر اليها عصام من طرف عينه ورأى فى عينيها نظرة أكدت له أن الخطر لم ينته بعد ، وأفرغ فنجانا من الشاى وسار به الى آلة الخياطة ووضعه عليها وقال :

— ما تتفضلى يا خالتى ·

— اشرب انت يا عصام ، أنا ماأشربش شاى دلوقت ··

وجر عصام مقعدا من الخيزران وجلس يشرب الشاى فى حمى خالته ·

وبدأت الآلة تدور من جديد والمطارق تقرع فى رأس ليلى والدم يتركز فى رأسها · وبيد مرتجفة انتزعت ورقة من كراسة تجاورها وبقلم رصاص كتبت فيها شيئا وطوتها وقامت واقفة · ووقف الفنجان فى يد عصام · وتقدمت منه ليلى وحاذته معطية وجهها لأمها ومالت على آلة الخياطة وكأنها تبحث عن شىء وقالت أمها :

— بتفتشى على أيه ؟

ومن تحت الآلة أسقطت الورقة المطوية فى يد عصام اليسرى وعادت الى مكانها بالمقص ·

وبقيت الورقة كقطعة الثلج فى يد عصام وظل منحنيا فترة لايجرؤ

على فضها ثم مد يديه تحت الآلة وقرأ :

من هى ؟ ما هى علاقتك بها ؟ أجب فى الحال والا سألتك أمام الجميع .

وتطلع عصام الى ليلى وقد جلست تقص أظافرها متظاهرة بعدم الاكتراث وفى عينيها نفس النظرة الخطرة .. قد تفعلها ، انه يعرفها ، يعرفها مندفعة الى أقصى حد ، تفكر بقلبها لا بعقلها كما يقول أبوها ..

وبدأ عصام يشعر بصوت الآلة فى أذنيه وفى كيانه بأجمعه .. وهى تدور فى رتابة ونظام ، تدور وتدق ، تدق .. ك .. كالساعة .. يجب أن يتصرف قبل أن يرجع محمود ، يجب ، والآلة يرتفع صوتها تدريجيا وتدق والوقت يمضى ، ووجهه يكفهر وعيناه تدوران بين الباب وليلى فى سرعة وفى جنون .. كيف ؟ كيف يتصرف ؟ والآلة تدق ، ماذا يقول لهذه المجنونة ؟ وكيف ؟ والآلة تدق وتدق ..

ونهض عصام واقفا وقد ارتسمت على وجهه علامات الغضب وسار الى ليلى بخطوات بطيئة ثقيلة وهو يخرج من جيبه قلما ويفتحه ويقول :

ــ شفت القلم الجاف دا يا ليلى ؟

ويقترب من المائدة التى تجلس بجوارها ويخرج من جيبه مذكرة ، ويضعها على المائدة وينحنى عليها بالقلم وهو يقول :

ــ شوفى قد ايه خطه لطيف .

ويكتب على صفحة بيضاء كلمة بالانجليزية ثم يشطبها فى ارتباك ويكتب :

أنت مجنونة وأنا أحبك .

وكان هذا ما انتوى كتابته ، ولكنه يرى النظرة التى تشرق فى عينيها ويود لو قضى بقيــة عمره يكتب وهى تنظر اليــه . ويكتب من جديد :

- أحبك ، أحبك ، أحبك •

وفى سرعة ، وفى عنف ، وفى قوة يرسم تحت الكلمات خطوطا ثقيلة ، خطوطا عميقة ، خطوطا تمزق الورقة ، والدم يتركز فى رأسه والآلة تطرق فى رأسه ، ثم يشعر بغصة فى حلقه ، ويلوى وجهه بعيدا عنها وتبدو فى عينيه نظرة حزينة •• نظرة حيوان حبيس ، حيوان جريح ، ويستقيم دون أن ينظر اليها ويطوى المذكرة ويضعها فى جيبه ويستدير وحين يصل الى مكانه ينهـار على الكرسى منهكا • ويخرج عصام بيد مرتجفة سيجارة يشعلها ، ويمتص الدخان ويختزنه فى صدره ، ويظل مطبقا فمه برهة ثم يفتحه ، ويتصاعد الدخان فى حلقات ، حلقات متشابكة متعارضة ، وهو يطيل النظر اليها ثم ينفرج وجهه تدريجيا ويغمض عينيه ويستمر فى التدخين •

وتجلس ليلى جامدة متوترة لا تعرف ماذا تفعل بهذه الفورة التى اجتاحت جسمها ، فورة لا تطاق ، لا تحتمل ، فورة من سعادة من حنان من ألم • وتود لو استطاعت أن تقفز ، أن ترقص ، أن تصرخ ، أن تغنى ، أن تقول للناس ان عصام يحبها ، وانها تحب عصام ، والفورة جياشة تعصف بها •

وأمها ؟ أمها تجلس الى جانبها تخيط ذيل القميص بالابره فى هدوء ، هدوء قاتل •

وقفزت ليلى واقفة واندفعت خارجة من الحجرة •

* * * *

وقال محمود وهو يدخل بمنامته :

- ايه يا ست ماما ، مافيش عشا النهارده ولا ايه ؟

وغرزت الأم الابرة فى القميص وقامت واقفة وعندما وصلت الى الباب ، استدارت وكأن فكرة طرأت عليها وقالت لمحمود :

- مش تبارك لعصام ، جميلة حاتتجوز •

- تتجوز ! تتجوز مين ؟

وخرجت الأم من الحجرة وقال عصام فى تردد :

- العريس ، العريس اياه ••

وواجه محمود عصام :

- ازاى يا عصام ، ازاى انت وافقت على حاجه زى دى ؟

- يا أخى هى عايزه وأمها عايزه ، حاأعمل أيه أنا ؟

وجلس محمود فى مقعد مجاور صامتا ثم قال .

- حرام عليكم ، الجواز من غير حب مش جواز ، دا ...

ولم يكمل محمود ، واحمر وجه عصام ، أدرك الكلمة التى أراد محمود استعمالها والتى استعلها كثيرا من قبل كلما ناقشا موضوع الزواج كموضوع عام دون تحديد أشخاص .

وقال محمود بارتباك وهو ينوى انهاء الموضوع .

- أنا طبعا تكلمت كلام عام .

وقال عصام فى غضب .

- طيب تسمح تنزل الأرض شويه .

- أرض ! أرض ايه ؟

- يعنى نتكلم فى الواقع ، ماتحلقش فى نظريات وأفكار أكبر مننا . فى حالتى أنا تقترح ايه ؟

- حالتك ؟!

- يعنى تقترح أيه فى موضوع جميله ، أعمل أيه أنا كانسان مسئول عنها ؟ أطلقها فى الشوارع عشان تحب ؟!

- ما حدش بيقول كده ولكن البنت صغيرة وقدامها فرص كتيره ومافيش داعى للاستعجال .

وقال عصام فى احتداد :

- كل ده تسويف ، هروب من المشكلة ، الجواز السليم ضرورى يكون أساسه الحب ، والراجل عشان يتجوز ضرورى يحب وكذلك البنت مش كده ؟

- تمام .

ووقف عصام وقد أفقده الغضب السيطرة على نفسه وواجه محمود وقال بصوت ثقيل :

- طيب ، نفرض مثلا أنك اكتشفت أن ليلى بتحب ، تعمل ايه ؟

وبدت الدهشة على وجه محمود وقال :

- ليلى ! - ليلى أختى ؟!

- أيوه ليلى - ليلى أختك .

وشحب وجه محمود وقال عصام :

- افرض !

وتنهد محمود فى ارتياح وهز كتفه وقال :

- وأفرض ليه ! ليلى صغيره ومش ملتفتة لحاجات زى دى .

وقال عصام فى انتصار :

- تمام زى ما أنا قلت ، كلام نظرى ، كلام جميل ، كلام مفصول عن الواقع ، واللى على البر عوام .

وضحك فى سخرية ثم استأنف كلامه :

- البنت ضرورى تحب وتتجوز على حب . كل بنت ، أى بنت ، بس مش أختى ولا أختك .. أخوات الناس التانيين . مش كده ؟

وسكت محمود .

وقال عصام فى قسوة وهو يضيق الحلقة حول محمود :

- أنا سألتك سؤال يا محمود ، مابتجاوبش ليه ؟

وأشاح محمود بنظره بعيدا فى اتجاه النـــافذة وقال وهو يهز كتفيه :

- سؤال ايه ؟

وأطلت ليلى بوجهها من الباب ولم يرها أحد منهما ..

ـ حايقولوا اتعقل فكر ، استنى لما تشوف حايحصل ايه ..

وتطلع عصام الى باب الغرفة وود لو استطاع أن يهرب ..لا ، لا مكان له هنا ، وهما بعيدان عنه ، وهو وحيد ، وحيد وكأنه يقف فى صحراء موحشة ..

وقال محمود وهو يبتسم ابتسامة واسعة :

ـ هم حايقولوا كده بس ، بكره يقولوا الامثال والحكم الغالية اياها .

وهزت ليلى رأسها وهى تكتم ضحكتها وقالت :

ـ الباب اللى يجيلك منه الريح

ـ سده واستريح

وبدأت هى ومحمود يتناوبان الأمثال وهما يتصنعان الجد وكأنهما يلعبان لعبة مسلية :

ـ وفى التأنى السلامة ...

ـ وفى العجلة الندامة .

ـ ونومه وتمطيطه ...

ـ أحسن من فرح طيطه .

ـ وان كان لك عند الكلب حاجه ...

ـ قل له ياسيدى .

ـ والطير اللى تقصص ريشه ...

ـ ما يعرفش يطير .

وانفجرا ضاحكين كطفلين يلهوان . ومدت ليلى منديلها تمسح دمعة سقطت على خدها . والتقت عيناها بعينى عصام ونظرت اليه فى دهشة وكأنها نسيت أنه معها على المائدة ، ثم أشاحت بوجهها عنه .. لا .. لن تنظر اليه ، لن تستجدى منه شيئا ، ان الحب لا يستجدى ، حب مصر لا يستجدى ، ان لم ينبع من القلب فلا فائدة ، لا فائدة .

ومسحت ليلى عينيها وقالت تخاطب محمود :

ـ طيب وبابا !

ــ بابا حايكشر ويشاور ويقول :

وأكملت ليلى كلام محمود وهى تضخم مخارج ألفاظها وتشير بيدها اشارات مسرحية مبالغ فيها :

ــ أنا عارف ، الحركة دى مش حاتجيب الا الخراب ·· الخراب ·· الخراب ··

ووجد عصام نفسه يغرق فى الضحك · وتتابعت عليه الضحكات متتالية متلاحقة وانحنى على المائدة ··

وحين استقام اكتشف أن سكينة حلوة قد انسابت الى نفسه ، سكينة ويقين ··

وركز عصام عينيه على محمود وقال فى صوت هادىء :

ــ يا ترى ألحق أسافر فى الدفعة بتاعتك ؟

وفى هذه المرة تعمد عصام أن يتحاشى نظرات ليلى التى انصبت عليه ·· لا ان قراره هو قراره الخاص ، لم يكن لها يد فيه ، ويجب أن تدرك ذلك تماما ·

★ ★ ★ ★

وعندما خرج عصام أسرعت ليلى وراءه وقال محمود :

ــ على فين ؟

وردت ليلى فى اضطراب :

ــ عصام نسى قلمه ·

وجرت خلف عصام على السلم ، وصاحت :

ــ عصام ··

واستدار عصام يواجهها وهو على بعد درجات منها ، وقالت ليلى بصوت مرتفع وهى تشير بيدها اشارات مبهمة :

ــ القلم ، قلمك ، نسيته ·

وتحسس عصام قلمه ووجده فى مكانه وقالت ليلى هامسة :

ــ الورقه ··

وقلب عصام يده متسائلا • وهمست ليلى من جـديد وقد فرغ صبرها :

ـ الورقة التى فى المذكرة •

وفهم عصام • وهز رأسه وهو يبتسم متعجبا من اندفاعها ••ونزل خطوات السلم فى بطء وهو ينظر فى عينيها •• وأعطـــاها المذكرة بأكملها •

وبدأ يطلع درجات السلم وهو يبتعد عنها درجة بعد درجة ، وهى تنتظر حيث هى •

واستدار عصام فجأة وجرى الى ليلى ومد يدا متخبطة تمسح على وجهها ثم تمتد الى شعرها فتثيره •

وصعد درجات السلم قفزا وهو يجرى مقطوع الأنفاس الى بيته •

- ٦ -

وتدفق نبع صاف يجرى ، واعترضت المستنقعات مجرى النبع فى الطريق ، تريد أن تمتصه ، أن تفنيه فيهـــا ، أن تحيله بركودها الى ركود • والنبع فتى فوار جياش عميق ، والمستنقعات عتيقة ترسبت على مر السنين ، تجثم على أرض مصر فى اطمئنان وهدوء ، وصفحتها تلتمع تحت أشعة الشمس •

ولكن تحت الصفحة اللامعة طين ، طين يسد مجرى النبع ، والنبع الجياش الفوار يشق مجراه فى صعوبة بين الطين ، ويخلف وراءه جانبا من مياهه الصافية — التهمها الطين — ثم يندفع جياشا فوارا الى آخر الطريق

وفى آخر الطريق سد ، سد من صخور •

والمستنقعات تجثم فى اطمئنان وفى هدوء •• لاجدوى من الانطلاق •• لا جدوى من الاندفاع •• الركود قرين الحكمة ••

وصفحة المستنقعات تلتمع تحت أشعة الشمس •

***

أعلن محمود وعصام قرارهما للعائلتين ليلة السفر ، وكان على كل منهما أن يواجه عائلته قبل أن يواجه العدو • واختلفت الأساليب وفقا

لاختلاف العائلتين ولكن الاختلاف كان اختلافا مظهريا • وكانت الأساليب في جوهرها واحدة متكررة ، دعوة للتعقل والتأنى ، وعـــدم التهور والاندفاع ثم محاولة للحد من هذا الاندفاع والانطلاق بالتهـــديد حينا وباثارة الناحية العاطفية حينا آخر •

وفى بيت محمد افندى سليمان تكتلت العائلتان لمواجهة الموقف وعلى الأريكة جلست الأختان سنيه هانم وسـميره هانم وقد شحب لونهما ، وعلى يمينهما على المقعد المجاور جلس سـليمان أفندى وعلى يسارهما جلست جميله ، وعلى الأريكة المقابلة عصام ومحمود ، وخلفهما فى الفراغ بين الأريكة والنافذة وقفت ليلى •

كانت الأخبار قد هزت الأختين وشل كيان كل منهما خوف من فقد وحيدها ، والى جانب الخوف كانت سميره هانم تعانى ألما ممضا ينخر فى رأسها كالحمى ، كيف ؟ كيف استطاع عصام أن يخدعها ؟ انه لم يخف عنها أبدا شيئا ، فكيف أخفى عنها هذه الأخبار طوال هذه الأيام ؟!•• وشعرت سميره هانم بشعور الزوجة المحبة المحبوبة التى تكتشف فجأة خيانة زوجها لها ، وشلتها الصدمة ، جردتها من مهارتها ومن أسلحتها المتعددة ، فلجأت الى أختها ، وألقت أختها العبء على زوجها سليمان أفندى فهو أعقل وأحكم وأقدر على حل مثل هذا الموقف الذى لم يسبق له مثيل فى عائلتها •

ووضع سليمان أفندى رجلا على رجل ، وقال لمحمود وعصام انه لا يحاول اجبارهما على العدول عن قرارهما ، فالرأى الأول والأخير لهما • وهو رجـل يود أن يناقش الموضـوع مع رجال مثله فى هـدوء وترو وتعقل وحكمه • وهو ليس أقل وطنية منهما ولكنه أكبر سنا وأكثر حكمة وفهما لحقائق الأمور ، وهو لا يندفع وراء عاطفته مثلهما بل يفكر بعقله ، وعقله يقول أن الحكومة غير جادة فى موقفها • فالجيش مثلا لم يشترك فى المعركة • وعناصر الخيانة متوفرة فى السراى والأحزاب وفى الحكومة نفسها • والجواسيس من المصريين يملأون منطقة القنال ، والمواد الغذائية تهرب الى القوات البريطانية على مرأى من الحكومة وعلى مسمع منها •• وماذا تستطيع الشجاعة والبطولة أن تفعلا تجاه هذه العوامل ؟ وماذا يستطيع حفنة من الفدائيين أن يفعلوا وهم يواجهون الجيش الانجليزى المزود بأحدث الأسلحة ؟

لا •• ان المسألة ميئوس منها ولن تجلب على البلاد الا الخراب ••

ولو كان هناك جدوى لكان هو أول المشجعين لهما على السفر بل لانضم اليهما شخصيا ، لو قبل فى صفوف الفدائيين ، ولكن لا جدوى من الانطلاق ، لا جدوى من الاندفاع .

وانخدع محمود وعصام بالصوت الهادىء ، بالملامح الهادئةالساكنة .. بمنطق سليمان افندى الحكيم . واندفعا يتناقشان مناقشة رجل لرجل ، وأخذا يتناوبان الحديث يفندان حجج سيمان افندى .. فالموجة الشعبية كفيلة بأن ترغم الحكومة على اتخاذ اجراءات حازمة والا تعرضت للسقوط ، وكفيلة بأن تخرس الملك وتسحق عناصر الخيانة . والكفاح لن يبقى محصورا على حفنة من الفدائيين ، بل سيمتد تدريجيا حتى يشمل الجيش والشعب بأكمله . وقد هدد ضباط الجيش فعلا بالاستقالة والانضمام الى الفدائيين ان لم يشترك الجيش بأكمله فى المعركة ..

وبدأ صوت سليمان أفندى يتغير واختفت النغمة المعسولة من كلامه . وتجمعت معالم الغضب فى وجهه ..

واكتشف محمود وعصام أنهما قد خدعا ، وأن المناقشة لم تكن بريئة كما ادعى ، وانما هى محاولة مستترة لمنعهما من السفر .

واضطر سليمان أفندى الى السفور ، وخرج بالمناقشة الى نطاقها الشخصى البحت وصوته يحتد تدريجيا ، وانفرد محمود هـــذه المرة بالاجابة :

ـ ليه انتم ؟!

ـ وليه مش احنا !

ـ ليه ابنى أنا ، مش أولاد الناس التانيين ؟

ـ ان كان كل واحد حايمنع أولاده ، ما حدش حايسافر .

ـ والدراسة ؟

ـ تستنى .

ـ طبعا انت يهمك ايه ؟! أبوك بيشقى ويعرق ويدوب عشـــان حضرتك تبقى بنى آدم ..

ـ فيه حاجات كتير أهم من التعليم

ـ اللى هى أيه يا حضرة ؟

ـ أيه فايدة ان الواحد يبقى متعلم وعبد ؟!

ــ أبوك أهو عايش كده ، وجدك من قبله ، يبقوا عبيد ؟

واحتد محمود وفقد سيطرته على نفسه :

ــ طبعا عبيد ٠٠ كل واحد ما يكافحش عشان يتحرر من الاستعمار يبقى عبد ٠

واحتقن وجه الأب ، وقام واقفا ، ونعت محمود بأنه ابن عاق ووقح وقليل التربية ، ثم قال فى سخرية :

ــ حضرتك فاهم نفسك بطل ٠ مش كده ؟

ــ أنا مش بطل ، أنا راجل ، راجل بيدافع عن حريته ٠

ــ أنت مش راجل ، أنت عيل ، عيل ضحكوا عليه ٠

ــ ما حدش ضحك على ٠٠

ــ أنت فديه ، خروف بتدبحه الحكومة ، عشان تقنع الناس أنها وطنية ٠٠

ــ أنا مايهمنيش أيه غرض الحكومة ، اللى يهمنى هو غرضى أنا وغرض الشعب ٠

ــ الشعب ! ٠٠ الشعب حاتخدمه لما تقع هناك من أول يوم ؟ لما تقع ميت ؟!

وكتم الأب دموعه بصعوبة ، وارتفع عويل كل من سنيه هانم وسميره هانم ، وأشاح محمود بوجهه بعيدا ليخفى تأثره ، وقال وهو ينظر الى الأفق البعيد :

ــ أنا عارف ، عارف ومستعد للاحتمال ده ٠

واستدارت ليلى وواجهت النافذة ٠

وصرخ الأب وقد بلغ به الغضب منتهاه ٠

ــ طبعا مايهمكش ، يهمك أيه ؟ حضرتك تموت بطل ، وتنحرق أمك وينحرق أبوك ، وتنحرق أختك ٠

وشحب وجه محمود ، وغشت عينيه طبقة من الدموع ، وقال فى توسل :

- أرجوك تفهم ، أرجوك يا بابا حاول انك تفهم أنا ضرورى أسافر، ما أقدرش ما أسافرش ٠

وهز الأب رأسه فى يأس ، ومشى فى اتجاه الباب ، وعندما وصله استدار وقال وقد جمد وجهه :

- لو سافرت ، لا أنت ابنى ولا أعرفك ، وعتبة البيت ماتعتبهاش٠

وتوقف الاب عن الكلام ثم ارتجفت شفتاه وهو يقول :

- ان رجعت ٠٠

وخرج يهرول الى حجرته ٠

* * * *

واتجهت أم محمود الى حيث يجلس ، ووقفت تستند بيديها على مائدة مستديرة تفصل بينها وبينه وتقول :

- اعقل يابنى ، عشان خاطرى ، عشان خاطر أمك الغلبانه ٠

وجمد وجه محمود وهو يتجه بنظره بعيدا عنها ٠

والتفتت الى عصام تستنجد به ٠

- أنت طول عمرك عاقل يا عصام ، عقله يابنى ٠

ومسح عصام وجهه بيده ٠

وركزت أمه عينيها عليه ، كان وجهها شاحبا شحوب الموت وعقلها يدور ٠٠ لا يمكن ، لا يمكن أن يسافر عصام ٠٠ كل انسان الا عصام ، ابنها ، حبيبها ، رجلها ٠ لا يمكن أن تعيش من غيره ، ولا يوم ولا ساعة ٠ ماذا تعمل ؟ ماذا تعمل لتوقفه ؟!

وعادت أم محمود تلح على عصام :

- ما بتردش ليه يا عصام ؟ اتكلم يابنى ٠

وقال عصام دون أن ينظر اليها :

- حاأتكلم أقول ايه ياخالتى ؟!

وارتخت ذراعاها الى جانبها وقد جمدت فيهما الحياة ، وقالت فى يأس وكأنها لا تأمل فى شيء ، وكأنها تقول الجملة لمجرد أنها تكونت فى عقلها :

- عقل المجنون ده •

وضحكت سميره هانم في سخرية مرة :

- هو عصام فاضل فيه عقل ، ما طيره محمود • البركة في محمود•

واحتقن الدم في وجه أم محمود والتفتت الى أختها :

- أنا عارفه ، أنت دايما تجيبي الذنب على محمود •

- عصام طول عمره عاقل ، وابنك اللي طول عمره شعنون •

والتفت محمود الى ليلى وهي تقف وراءه ، وابتسم •

وقام عصام واقفا ، وتقدم بخطوات بطيئة الى حيث تجلس أمه ، ووقف أمامها وقد انفرجت ساقاه وارتجف صوته بالغضب وهو يقول :

- أنا مش عيل عشان محمود يطير عقلي • فاهمه ؟

وتحكم عصام في صوته وهو يستأنف كلامه :

- ويجب تفهمي كمان ، اني مسافر بكره ، مهما عملت •

ورفعت اليه أمه وجهها ، واحتد من جديد ، وكاد يصرخ وهو يقول:

- مسافر •• مسافر •• فاهمه ؟

وقفزت أمه واقفة ، وألقت بنفسها عليه واحتضنته وهي تتشبث به في جنون • والتوى لسانها ، وكأنها فقدت القدرة على النطق السليم وهي تقول :

- ما أقدرش •• عصام ما أقدرش ما ••

وأشاح عصام بوجهه بعيدا عنها ، وفي رقة حاول أن يتملص من ذراعيها ، ولكنهما تشبثا به وكأنهما طوقان من حديد • وفي عنف خلص نفسه من ذراعيها ، وتراجع بظهره الى الوراء بعيدا عنها •

وأحنت أم عصام رأسها ، وأخفت وجهها بيديها •

وجرت اليها جميله واحتضنتها من الخلف وهي تبكي وتقول :

- حرام عليك يا عصام ، حرام عليك •

ومرت لحظة سكون لا يقطعها سوى عويل جميله •

ورفعت أم عصام رأسها ووجهها ما زال مغطى بيديها ، وحين استكمل الرأس ارتفاعه ، أزاحت يديها عن وجهها وقد تغير تغيرا كليا •

كانت ملامح الوجه الناعم قد اكتسبت صرامة والعينان القلقتان قد استقرتا فى محجريهما ، والفم المتدلى من جانبيه قد استقام .

ونظرت لحظة الى عصام وكأنها تقيسه ثم قالت :

— خلاص ياعصام .. دا قرارك النهائى ؟

وهز عصام رأسه دون أن يتكلم .

وخلصت أم عصام نفسها من بين ذراعى جميله فى عنف ، واندفعت تجرى الى النافذة ...

وشل الرعب الموجودين فى الحجرة وصرخت جميله صرخة مدوية . ولحقت ليلى بخالتها وهى تتسلق قاعدة النافذة وتعلقت بكتفيها .

وصاحت أم عصام :

— سيبونى ، سيبونى أموت نفسى ، مش عايزه أعيش .

ونحى عصام ليلى ، وجذب أمه من كتفيها بعنف الى أسفل ، وفى عنف أدارها اليه ، ووقف أمامها وجها لوجه ويداه ما زالتا على كتفيها ، والتقت عيناه بعينيها فى نظرة طويلة ..

وأغمضت أم عصام عينيها لحظة ، والدم يعود الى التدفق فى عروقها . ولان وجهها ، وعادت الى وسط الحجرة ، خفيفة الخطوة ، رافعة الرأس ، وعلى وجهها راحة وسكينة .

وأمسكت جميله بذراع أمها وقالت لعصام :

— يللا بينا على بيتنا ..

وسار عصام خلف أمه وجميله .

* * * *

وفى الساعة الحادية عشر مساء وبينما كان محمود يحزم حاجياته ، أرسل اليه عصام ورقة مطوية مع الخادمة .

وقرأ محمود الورقة والقاها الى ليلى وهى تجلس على طرف السرير :

— تفضلى يا ستى .

وفى الورقة قرأت ليلى :

« أمى مغمى عليها منذ ثلاث ساعات ، أرسلت فى طلب الطبيب ولم يحضر بعد . محمود ماذا أستطيع أن أفعل ؟ اننى لا أستطيع أن أتخلى عن أمى وهى فى هذه الحال ، وبعد ما فعلته من أجلى ومن أجل جميله ، لا

.. لا يمكن يا محمود . أنت تفهم أليس كذلك ؟ وعندما تتحسن سأحاول اللحاق بك ، مع السلامة وقلبى معك ومعكم جميعا . »

عصام حمدى

وقال محمود وهو يرمى بفانله صوف فى الحقيبة :

— وحانعمل أيه بقلبه ، حاينفعنا فى أيه ؟!

ولم تكن ليلى تنصت اليه ، كانت تنظر بعيدا وهى تفكر وفجأة ركزت عينيها على محمود وهو يجلس الى جانب الحقيبة وقالت :

— تفتكر يا محمود ، خالتى عيانه صحيح ؟

وتطلع اليها محمود فى بلاهة لحظة ثم قفز واقفا وقد اتسعت حدقتا عينيه :

— لأ مش معقول ! مش معقول .

وكتمت ليلى ابتسامتها وهزت رأسها وقد ضاقت عيناها فى خبث .. واقترب منها محمود .

— عايزه تقولى انها بتمثل .. !

وهزت ليلى كتفيها وقالت وهى تضحك فى مرارة :

— ما تمثلش ليه ، هو دور الانتحار كان وحتى ؟!

وتوقف محمود مصعوقا وضحكت ليلى ضحكة خالصة .

— عارف يا محمود ، ساعة ما رمت نفسها على الشباك وجيت أشدها عملت ايه .. ؟

— أيه ؟.. أيه يا ليلى ..؟!

ورفعت ليلى رأسها وغامت عيناها وهى تتمثل ما حدث وقالت فى صوت خافت وكأنها تحادث نفسها :

— غمزتلى بعينها وقرصتنى فى أيدى ..

وبدت على وجه محمود علامات عدم الفهم ، وضحكت ليلى .

— يعنى كأنها بتقول لى : ما تخافيش دا كده وكده ..

وخبط محمود كفا على كف ، وارتسمت فى ذهن ليلى صورة أمها وهى تجلس فى الصالة وتقول :

- أختي سميره شاطرة ، عرفت تطوى ولادها تحت جناحها ..

* * * *

وفى الفجر جلست الأم فى الصالة على المقعد المواجه للباب صامتة شاحبة متصلبة كالجثة الهامدة . وأمامها جلست ليلى .

وانحنى محمود على الحقيبة يحاول اقفالها .

وطرق الباب طرقة خفيفة ، وقام محمود وفتح الباب ، ودخل عصام بردائه المنزلى ، وبدت على وجه محمود علامات الارتياح ..

ان وجود عصام ، وجود أى غريب ، يجعل عمليـــة الوداع أسهل وأبسط .

وزاغت نظرات الأم وقالت فى صوت ميت :

- هو عصام مش مسافر .. ؟

وقال عصام وكأنه يعتذر :

- أعمل ايه يا خالتى ؟ .. ماما عيانة خالص ..

وانخرطت الأم تبكى وهى تكتم نشيجها حتي لا يصل صـــداه الى الأب الذى اعتكف فى غرفته .

وقامت ليلى واقفة واتجهت الى أمها وربتت على كتفها وقالت

- بس يا ماما ، هو عصام كان حايحرسه .

وقالت الأم بصوت واهن :

- واشمعنى هو ، اشمعنى هو اللى يروح لوحده ..

وتنهد محمود فى ضيق وقالت ليلى دون أن تنظر الى عصام :

- عصام كمان حايسافر لما خالتى تتحسن .

وأشاحت الأم بيدها مبدية عـــدم تصديقها لكلام ليلى وغرقت فى صمتها من جديد وهى تهز رأسها ما بين الحين والحين .

ونظر اليها عصام فى دهشة وخطر بباله أنها لم تسأل عن أمه - أختها - بالرغم من أنه قال أنها مريضة للغاية ..

ونجح محمود فى قفل الحقيبة بمساعدة عصام · وقام واقفا وقد أمسك بالحقيبة ·

وخيل لليلى أن الشحوب يلائم وجه محمود وأنه يبدو أكثر وسامة فى بذلته العسكرية ·

وبدا الارتباك على وجه محمود وأسقط حقيبته على الأرض ، وتقدم الى أمه بخطوات مضطربة وقبلها فى جبينها · واستدار ليذهب ثم عاد اليها وأمسك بيديها وقربهما من فمه وقبلهما بلهفة · وسالت دموع الأم · وآستقام محمود واتجه الى ليلى ولف يده حول كتفها وقبلها ، وهرول بحقيبته الى الباب ·

وجرت ليلى خلفه على السلم واستدار يواجهها وهز رأسه وقال :

— لأ يا ليلى ، أنا مش عايزك أنت بالذات تعيطى ·

وقالت ليلى وهى تمسح الدموع بكفها :

— أنا ما بعيطش يا محمود ، ما بعيطش ··

— انت فاهمة يا ليلى ؟ مش كده ؟ فاهمه أنا رايح ليه ·· ؟

وهزت ليلى رأسها بالموافقة وقد أشرق وجهها والتمعت عيناها ، وقال محمود :

— وادراكي ان فيه حد فاهم ، حد عزيز على ، حايخلينى مستريح ·

وابتسمت ليلى وقالت :

— أنا فاهمه يا محمود وكلهم بكره يفهموا ، مع السلامة وحاسب على نفسك ··

ووضع محمود الحقيبة واحتضن ليلى وقبلها ونزل السلم من جديد · وصاحت ليلى :

— احنا منتظرينك ، منتظرينك يا محمود ·

وسمعت صوت عصام من خلفها يقول :

— مع السلامة ، مع السلامة يا محمود ·

ورفع محمود يده ملوحا لكليهما دون أن ينظر الى الخلف ·

وأفسح عصام الطريق لليلى لتمر ، ومضى خلفها فى اتجاه الشقة . ودخلت ليلى ثم استدارت وواجهت عصام وهو ما يزال فى الخـــارج ووضعت يدها على الباب تهم باغلاقه وكأنها تمنعه من الدخول .

وقال عصام :

- حادخل أشوف خالتى .

وهزت ليلى رأسها علامة عدم الموافقة دون أن تتكلم ، ورأت وجه عصام ينقلب وقالت :

- مش دلوقت يا عصام ، مش دلوقت ، اطلع فوق ، اطلع لخالتى .

وأقفلت الباب وعصام ما زال متسمرا فى مكانه .

ووقفت ليلى برهة تستند بوجهها الى الباب وهى تستمع الى خطوات عصام تبتعد متباطئة على السلم .. لقد خذلها ، خذلها ؟ كيف ؟.. لقد خذلها والسلام .

وعويل أمها يرتفع تدريجيا حتى يصبح كمعاول تدق فى رأسها وتهد كيانها وتحول بينها وبين التفكير .

- ٧ -

وبدأت ليلى ترقب صندوق البريد وهى ذاهبة الى المدرسـة وهى عائدة من المدرسة وفى أوقات توزيع البريد وفى غـير أوقات توزيع البريد وكأن حياتها تركزت فى ذلك الصندوق الخشبى الصغير ، وتتالت خطابات محمود ترسل الرجفة الى جسمها ، رجفة فخر وحنان .

وكان يكتب لها مرتين فى الأسبوع ، وأحيانا ثلاث مرات . وكانت تشعر وهى تقرأ خطاباته أنه يجلس تجاهها فى حجرته ، يحكى لها وقد اتسعت عيناه ، وكأنهما قد تفتحتا على عالم جديد . وكل شىء فى هذا العـالم جميل ومثير . الناس والاحداث والتجارب الجـديدة والافكار الجديدة والأصدقاء الجدد .

ولكن صديقا واحدا من بين هؤلاء الأصدقاء يسحر محمود فيكتب عنه فى كل خطاب وكأن حسين عامر هو الزمار الذى يقـود محمود بمزماره الى العالم المسحور ، ومحمود يمضى فى ذلك العالم ينفعل بكل

تجربة جديدة وبكل فكرة جديدة ..

كتب اليها يقول :

« فجرت اليوم لأول مرة ، أول قنبلة حارقة فى معسكر بريطانى . ووقفت بعيدا أرقب نتيجة عملى ، وعندما اندلعت النـــار فى المعسكر خيل الى أن قبسا من النور قد ملأ قلبى وكيانى »

وفى خطاب آخر : « لقد كبرت يا ليلى ، كبرت وأشـــعر كأنى لم أبلغ الا بعد أن أتيت الى القناة »

وكتب يقول : « أنا أحيا يا ليلى أحيا . أتفهمين يا عزيزتى ؟ أحيا منفعلا كل ساعة وكل دقيقة من عمرى . كنت أحسب وأنا فى القاهرة أنى أحيا ، ولكنى أدركت بعد تجربتى الأخيرة أننى كنت مخطئا . ان الركود موت لا حياة . أنت تسأليننى ألا أخاف ؟.. طبعا خفت أول الأمر ، والخوف هو الذى يجعل للكفاح لذة ، فالانسان يتقـــدم وهو خائف ولكن قوة أكبر منه ، أكبر من خوفه تدفع به آلى الأمام وتجعله يعمل ما ينبغى أن يعمله بكل ثبات وبكل دقة . وعندما ينتهى كل شىء ينتشى الانسان ، اذ يدرك أنه تغلب على نفسه ، على ضعفه وعلى فرديته ومرة بعد مرة يتحرر الانسان من الأنانية التى تسيطر على كل شىء فى حياتنا ، ويشعر أنه فرد فى مجموع ، وأن حياته مهمة طالما هو فى خدمة هـــذا المجموع ، وأنه لو فقد حياته لن تكف الأرض عن الدوران ، بل سيواصل الآخرون العمل الذى بدأه ، العمل آلذى فقد حياته من أجله واذ ذاك يتحرر الانسان من آلخوف ، يتحرر من « الأنا » ..

* * * *

ـ أنا حا أجنن يا ليلى . ومش لاقى فرصة أتفاهم معاك ، فيه أيه ؟ مش تفهمينى ..

قالها عصام لليلى وهما يقفان فى محل شيكوريل بين الباب والمصعد ينتظران عودة جميلة وأمها من « آلكيس » . وكان اليـــوم أول أيام « الأوكازيون » والباب الزجاجى لا يكف عن الحركة .

ولم تجب ليلى ، وقال عصام فى صوت هامس :

ـ أيه يا ليلى أنت مش بتحبينى ..؟

ومرقت سيدة عجوز مصبوغة الوجـــه الى المحل ، وركزت ليلى نظرها على الباب الزجاجي وهو يتأرجح خلفها،وأشعة نور النيون تنكسر عليه وقالت :

ـ أظن انت عارف يا عصام ٠٠ ؟

ـ أنا مش عارف حاجة وبصراحة حا أجنن ٠ انت زعلانة عشان ما سافرتش مع محمود ٠٠ ؟

ونظرت ليلى الى عصام وهو محمل بالمشتروات وقالت :

ـ وحا أزعل منك ليه ؟ هو السفر بالقوة ٠٠ !

ـ أمال متغيرة من ناحيتى ليه ؟

وانفتح باب المصعد على مصراعيه وخرج منه حشد من الناس تقدم فى اتجاه باب الخروج ٠

وقالت ليلى وهى تنظر الى الخارجين من المصعد :

ـ أنا مش متغيره ولا حاجة ٠٠

ـ لأ ، مش عوايدك ٠

وأدارت ليلى رأسها الى عصام وقالت فى قسوة :

ـ عايزنى أعمل ايه ؟ أغنى ؟ أرقص ؟ وأخويا بيحارب

وهمس عصام فى يأس :

ـ انت ما بتحبنيش ، ما بتحبنيش خالص ٠

وفتحت ليلى فمها لتتكلم ، ولكن الناس فصلوا بينها وبين عصام واضطر عصام الى التراجع أمام الضغط وهو يحاول أن يحفظ توازنه بالمشتروات التى تثقله ٠

وقال رجل يلبس بذلة رمادية لزوجته التى تضع قبعة بريشة على رأسها :

ـ ضحكوا علينا ، دا مش القماش الأصلى ، دا تقليد ٠٠

وأزاحته من الطريق امرأتان تحتضنان مشترواتهما ، وعلى وجهيهما علامات الانتصار ٠

وقال الرجل ذو البذلة الرمادية من جديد :

- دا تقليد ..

ولكن صوته غرق فى زحمة الأصوات الأخرى .

- أما شروة ! أهى دى الفرص ولا بلاش !

قالت سيدة فى ثياب سوداء . وردت عليها أخرى :

- ولا الست أم بمبى اللى كانت عايزه تخطفها منك .

وضحكت السيدة ذات الملابس السوداء

- والله كنت قتلتها قتل .

وعاد الرجل ذو البذلة الرمادية يقول :

- دا مش الأصلى ، دا تقليد ..

وقالت زوجته وهى تسوى ريشة قبعتها :

- هس . بلاش دوشة ، أنا شايفة الماركة بعينى . قماش انجليزى أصلى ..

وتأففت فتاة طويلة الرقبة بحاجبين مقوسين وقالت لزميلتها :

- أف . أنا كنت حا أتخنق . دا مش أوكازيون ده يا حبيبتى ، دا حرب ، والله احنا فدائيين صحيح ..

وضحكت زميلتها .

وارتجفت ليلى حين باغتتها خالتها من الخلف ، ووضعت يدها على كتفها وقالت :

- بشرفك يا ليلى ، مش كسبنا الشروة دى ..؟

* * * *

ولم يرخ عصام نظره عن ليلى ، وأمه وجميله تكملان بقية مشترواتهما ، ركز عينيه عليها وكأنهما مشدودتان اليها .

ورأت ليلى النظرة العاتبة فى عينيه ، نظرة حيوان جريح يتألم .. ماذا جرى لعصام ؟ هل جن ؟ أين ذهب تعقله واحتراسه ؟ ألا يدرك أن أمه معنا وأن جميلة معنا ؟

وفى الطريق الى البيت أشارت سميرة هانم الى تاكسى وركبت فى المقعد الخلفى مع جميله وبينهما أكوام من المشتروات ، وفى المقعد الأمامى جلست ليلى وعصام ٠٠

وقرب عصام جسده من ليلى حتى أصبح فخذه لصق فخذها ٠ ولفحت أنفاسه خدها ثقيلة متلاحقة ، ومد يده يمسك بيدها فى رقة ، وحاولت هى أن تخلص يدها من يده وعنفت قبضته ، وجذبت يدها وازدادت القبضة عنفا ٠ وكتمت ليلى صرخة ألم ولمعت الدموع فى عينى عصام وارتخت قبضته ٠ وأخرج من جيبه قلما وورقة وكتب فى الورقة كلمات ثم أسقطها فى جيب معطف ليلى ٠

ووقف عصام يدفع حساب « التاكسى » وحيت ليلى خالتها واندفعت مرتبكة الى شقتها ، وفى الصالة قرأت ما كتبه عصام :

« أرجوك ٠٠ أرجوك يا حبيبتى لا تهجرينى ٠٠ لا تهجرينى »

وارتجفت يد ليلى وهى تعيد الورقة الى جيبها ، وكانت يدها ما تزال ترتجف وهى تضرب جرس شقة عصام ٠

* * * *

فتحت جميلة الباب وقالت :

- أيوه ، أهى ليلى جت ، تعالى يا ستى لما نشوف المشكلة دى ٠

واتجهت ليلى مع جميلة الى حجرة أمها ٠

وعلى السرير جلست سميرة هانم وأمامها قطع القماش مفرودة منثورة بألوانها الصارخة المتنافرة ، لا يكاد نظر الانسان يستقر على لون منها حتى ينتقل الى الآخر ثم يكمل الدورة ليعاود النظر من جديد ٠ وغشى نظر ليلى وقالت خالتها :

- كويس اللى جيتى يا حبيبتى ٠

وتقدمت ليلى من خالتها ٠ وأشارت سميره هانم الى « موديلات » لأثواب مرصوصة بمحاذاة حافة السرير وقالت :

- آدى القماش وآدى الموديلات ٠ نقى بقى ٠٠

وقالت جميلة :

- أنا يا أقول الدانتل الأحمر للفستان آلدرابيه ده · ايه رأيك يا ليلى ·· ؟

ولم تترك سميرة هانم فرصة لليلى لتتكلم :

- لأ يا جميلة ·· الدانتل الأحمر ضرورى يتفصل سامبل خالص درابيه فى دانتل ؟! آلدرابيه عايز شيفون · آه ، ايه رأيك نعمل الموديل الدرابيه ده فى الشيفون ·· ؟

- أنهى شيفون ·· ؟

- الشيفون اللى لون قلب الفسدقة ·

وجرت آليها جميلة تقبلها ·

- انت هايله يا ماما ، يبقى جنان ، جنان خالص ··

وتطلعت ليلى الى الباب فى قلق وانقبض وجه جميلة وقالت وهى تقف فى مواجهة أمها وتشير بإصبعها :

- بس على شرط يا ماما ، مش عشان الخطوبة ·

- دا يبقى جميل أوى يا روحى · شيفون طبيعى جنان !

وهزت جميلة كتفيها وطفرت الدموع آلى عينيها ·

- لأ يا ستى وأنا مالى ، أنا قلت لك أنا عايزه دانتل جيبير عشان الخطوبة ··

- الجيبير أنا حا اجيبهولك يا حبيبتى · بس عشان كتب الكتاب مش الخطوبة ··

وسالت دموع جميلة على خديها وقالت بصوت يخنقه النشيج :

- طيب خلاص · خلاص يا ماما · مش عايره أتجوز ، مش عايزه أتجوز خالص ··

وسارت فى اتجاه الباب ·

وقامت أمها خلفها تجرى ، واحتضنتها وقالت :

- يا حبيبتى ! ·· وتزعلى نفسك كده ! ·· طيب خلاص أنا

حا أجيب كل اللى انت عايزاه ، عايزه الدانتل لون ايه ؟

وقالت جميلة وهى ما زالت تبكى :

- سيمون ..

- والجزمة ؟

ومسحت جميلة دموعها بكفها :

- ستان لون الفستان .

- بس كده ، بكره الصبح حا أنزل أجيب الدانتل وأوصى على الجزمه . بس تعالى دلوقت اديني رأيك فى الموضوع ده خلينا نخلص . الوقت بيجرى وما عدش على الخطوبه الا أسبوع .

وسحبت سميرة هانم جميلة من يدها وقالت وهى تنظـــر بعيدا وكأنها تحلم :

- وبعد الخطوبة حا تحتاجى لكل الفساتين دى ، يوم فى الاوبرج ويوم فى مينا هاوس ويوم فى الحلمية بالاس ..

وضحكت جميلة :

- بس يا ماما مش عايزه الرمادى ده . دا ميت خالص .

وقالت ليلى وهى تجلس على الفوتيل وعينـــاها مشدودتان الى الباب :

- بالعكس يا جميلة دا حلو أوى ، دا حتى لون هادى وجميل .

وجلست خالتها على حافة السرير وقالت :

- دا مش هادى بس يا ليلى ، دا اللون الرمادى ده يبرز جســـم الست ، الراجل مش حايبص للون . اللون مش حايلفت نظره ، اللى حايلفت نظره الجسم ، العود .

وكتمت ليلى ابتسامتها ، وضحكت جميلة ..

- انت واعية يا ماما ، واعية تمام .. !

وضحكت سميره هانم وضربت ابنتها على فخذها ، وهى تجلس قبالتها وقالت :

- أمال فين عصام ؟ •• عصام ذوقه حـــلو أوى فى الفساتين •• روحى ناديه يا جميله ، ولا أقولك ، طبقى معايا القماش أحسن يتمرمط، وليلى تناديه •

وقامت ليلى واقفة ، وقالت خالتها :

- تلاقيه فى المكتب يا ليلى

* * * *

فتحت ليلى باب الغرفة وقفلته خلفها ولفتها موجة من حنان وألم • كان عصام يجلس وقد دفن رأسه بين ذراعيه على المكتب • ووقفت ليلى ترقبه لحظة ثم تقدمت منه على أطراف أصابعها ، وعندما حاذته مست كتفه بيدها ولكنه لم يتحرك وكأنه مستغرق فى النوم ومالت عليـه بنصفها الأعلى وقالت فى همس :

- عصام ••

وباغت الصوت عصام وأزاح ذراعيه ورفع رأسه اليها •

واستقامت ليلى فى خوف ، ولكنه أمسك بذراعيها بقبضتيه قبل أن تتراجع الى الخلف ••

كان وجهه متغيرا ، وكأن ملامحـــه قد فقدت حدودها : الأنف مفرطحة ، والوجنتان قد تهدلتا ، والذقن قد تدلت ، والفم ارتخى من الجانبين ، وفى العينين نظرة زائغة وكأنه غائب عن الوعى •

ورفع عصام جسده اليها فى بطء وقبضتاه تثبتانها فى الأرض • وملامح وجهه تتحدد وتكتسب قوة وعنفا والنظرة الزائغة تستقر وتتركز تدريجيا ، والوجه ينقلب ويربد • وفى العينين نظرة تهديد واصرار وكأنه سيضربها •• وقبضتاه تعنفان على ذراعيها ، وجسمه يطـــاول جسمها ، ووجهه يلامس وجهها ، وشفتاه تسقطان على شفتيها •

وألقت ليلى برأسها الى الخلف وصاحت بصوت مخنوق :

- عصام ••

ولم يبد عليه أنه سمعها • لم يلن الوجه ، ولم تتغير النظرة •

وتراجعت ليلى الى الخلف خطوة وراء خطوة ، وتابعها عصام خطوة بعد خطوة ، وتطلعت الى الخلف ، وحاولت أن تغير اتجاه تراجعها ، ولكن عصام شد على ذراعيها ، واتجه بها الى الفراغ بين المقعـــد والحائط • والتصقت ليلى بالحائط

- سبنى .. سبنى يا عصام ..

ولم يبد عليه أنه سمعها ، أنزل يديه ببطء وهما تحيطان بذراعيها وأمسك بيديها ، وقرب جسده من جسدها . ورفعت ليلى رأسها وألقت بها الى الخلف ، الى الحائط ، وسرت البرودة فى أطرافها ، وقالت وفمهـا يرتجف :

- حاصرخ .. حاصرخ يا عصام .

وسحق عصام جسدها بجسده ، ونزل فمه مفتوحا على عينيها ، ومسح خدها فى بطء ، ثم انسحب فجأة الى فمها .

وتثلج فم ليلى وجمد ، ثم بللت دموع عصام خديها ..

وانهار على المقعد المجاور ووضع مرفقيه على فخذيه ، وأسند وجهه الى يديه ، وانفجر باكيا ..

وارتفع نشيجه تدريجيا ، ووقفت ليلى متسمرة فى مكانها ، وفى جسمها خواء وفى عقلها خواء ، وكأنها قد استيقظت من حلم لتوها .

وسمعت عصام يبكى . واستولى عليهـا مزيج من الرهبة والخجل وكأنها ارتكبت شيئا مشينا ، وكأنها دخلت مكانا مقدسا لا حق لهـا فى دخوله ، ورأت شيئا مقدسا لا حق لها فى رؤيته ، وودت لو استطاعت أن تهرب بعيدا .. وعويل عصام يملأ أذنيها ..

ومدت ليلى يدا مرتجفة ترددت وهى معلقة فى الهواء ثم استقرت فى رفق على كتف عصام .

وقال عصام فى صوت يقطعه النشيج :

- انت بتحتقرينى . مش كده ؟

وقالت ليلى فى همس :

- بس يا عصام ، بس أرجوك .

وأزاح عصام يدها عن كتفه ونظر اليها فى كراهية وقال وقـــد استقام صوته :

- ابعدى .. ابعدى عنى ، مش عايز أشوفك ، مش عايز أشوفك خالص ..

وضمت ليلى شفتيها وخرجت من الغرفة تجرى ٠

* * * *

كانت ليلى تجلس فى حجرتها تنسج « جاكيت » من « التريكو » وكان أبوها فى الخارج وأمها فى زيارة أختها عندما دخلت عليها الخادمة وقالت :

ـ سى عصام بره يا ستى ٠٠

وجمد وجه ليلى وقامت واقفة ٠ وسارت فى اتجاه النافذة مولية ظهرها للخادمة وهى تقول :

ـ قولى لعصام ان ماما بره ٠٠

ـ قلت له يا ستى ، بيقول عايز يشوف حضرتك ٠٠

ـ قوليله نايمه يا فاطمة ٠٠

ـ أوعى آنت يا فاطمة ٠

قال عصام ، وأزاح الخادمة الصغيرة برفق من مدخل الباب ٠ ودخل الغرفة ٠ ولم تتحرك ليلى ، إستقام رأسها وبقيت مكانها معطية ظهرها لعصام ٠ وساد الصمت لحظة ثم قالت ليلى فى صوت جامد دون أن تستدير :

ـ عايز أيه يا عصام ٠٠؟

ـ أنا ٠٠

واقترب منها :

ـ أنا آسف يا ليلى على كل اللى حصل ٠

واستدارت ليلى ببطء وواجهته ٠٠ كان بياض وجهه قد اختلط بالاصفرار ، وتحت عينيه هالة سوداء عميقة ، وكأنه مريض من زمن ٠ وقالت ليلى فى صوت ميت بلا تعبير :

ـ خلاص يا عصام ، اعتبر المسألة منتهيه ٠

وارتجفت فتحة أنف عصام وقال :

ـ مسألة ايه ٠٠ ؟

ولم تجب ليلى • جلست على طرف السرير ومدت يدا مرتجفة الى قطعة التريكو وبدأت تعمل ، تدخل الابرة فى غرزة وتلف حولها الخيط ثم تجذبه بأحكام وتمرر الغرزة الجديدة من الغرزة القديمة ثم تفلت الأخيرة من الابرة وتبدأ من جديد •

واقترب منها عصام وقال بصوت أرق :

– قصدك آيه يا ليلى •• ؟

وجذبت ليلى الخيط بشدة فانقطع • وألقت بقطعة التريكو فى ضيق على السرير الى جانبها وقالت :

– العلاقة اللى بينا ، اعتبرها منتهية •

وركز عصام نظره على قطعة التريكو ، وانحنى وأمسكها بكلتا يديه ثم أرخى قبضتيه عنها وتركها تسقط من بينهما على السرير • واستدار معطيا ظهره لليلى • وسار الى مائدة تواجهها فى خطى بطيئة وقد تهدل كتفاه ، وارتكز بيديه على المائدة ، وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه :

– أنا كنت عارف انك مش حا تغفريلى انى ما سافرتش مع محمود •

وسحبت ليلى قطعة التريكو وأفلتتها بعصبية من الابرة ، ولكى تصل الخيط المقطوع بدأت تحل جزءا من الذى نسجته ، ويدها اليمنى تتحرك من الشمال الى اليمين فى حركة عنيفة متكررة ثم •• ثم اكتشفت أنها قد حلت جزءا أكبر من الجزء الذى أرادت أن تحله ، واستقرت يداها فى حجرها وقد أطبقتهما على قطعة التريكو وقالت فى مرارة :

– مش دا اللى أنت عايزه ؟

ولم يجب عصام • استمر فى وقفته وقد أولاها ظهره •

– يعنى ما بتتكلمش ••

واستدار عصام يواجهها ووجهه أشد شحوبا •

– لو تتصورى ؟ لو تتصورى أنا باحبك قد أيه ••!

وانخفض صوته حتى كاد يتلاشى فى المقطع الأخير من الجملة •

ولمعت الدموع فى عينى ليلى وجمد وجهها وأشاحت بنظرها بعيدا وقالت بصوت مخنوق :

ـ انت ما بتحبنيش ، لـــو كنت بتحبنى ما كنتش عملت الـــلى عملته فوق ..

وقامت ليلى واقفة وسقطت قطعة التريكو من حجرها على الأرض وقالت فى احتداد وهى تواجه عصام :

ـ ليه ؟ ليه عملت كده ؟

ـ عشان با أحبك ..

وضحكت ليلى ضحكة أشبه بالعويل وسارت فى اتجـــاه النافذة وأسندت جبينها الى الزجاج وقالت :

ـ عارف يا عصام أنا كنت طول الوقت حاسه بأيه ؟ كنت حاسه انك عايز تضربنى ..

واستدارت وهى ما زالت قريبة من النافذة وواجهته :

ـ لأ يا عصام ، دا مش حب ، سميه أى حاجـه تانيـــة . بس مش حب ..

وجلس عصام على الكرسى الأسيوطى المواجه للسرير وقال :

ـ انت صغيرة ومش فاهمه حاجة ..

واقتربت منه ليلى وقالت :

ـ أنا مش صغيرة ، وفاهمه كل حاجة ، وبرضه با أقول ان ده مش حب ..

ورفع عصام رأسه اليها وهو جالس ، وقال فى مرارة :

ـ فاهمه ايه ؟! فاهمه ان الحب هو اللى بتقرى عنه فى الروايات ؟ فاهمه انى مش قادر أنام ، مش قادر أذاكر ، مش قادر أعيش ؟ فاهمه العذاب اللى أنا عايش فيه لما تبقى جنبى ومش قادر أبص لك ، مش قادر ألمسك ..؟

وانخفض صوت عصام تدريجيا ، وانحنى ظهره وهو يركز نظراته على الأرض .

— ولما أبعد عنك ، أقول ليلى كانت ويايا وما شفتهاش كفاية ، وأبقى حاأجنن زى المحبوس فى زنزانه ، وأرجع تانى والى حصل الأول يحصل تانى ٠

ورفع عصام الى ليلى عينين مغرورقتين بالدموع

— عارفه يا ليلى زى أيه ؟ زى واحد فى الصحرا بيحفر الأرض عشان يوصل لنقطة ميه ، ويفضل يحفر ويقول دلوقت حاأوصل ، كمان شويه حاأوصل ، المرة الجاية ، وفى كل مرة بينزل لتحت ، فى كل مرة بيتحبس أكتر فى الحفرة الى بيحفرها ، ولا بيوصلش ، والميه مابتظهرش ، ما بتظهرش ٠

وضرب عصام مسند المقعد بقبضته وهو ينطق الكلمتين الأخيرتين٠ وهب واقفا وواجه ليلى وهو يقول فى غضب وسخرية :

— تقدرى تفهمى الشعور ده ؟!

وركزت ليلى عينيها على الأرض ، ولمحت قطعة التريكو مرمية ، واتجهت اليها وانحنت والتقطتها واعتدلت فى بطء ووضعتها على السرير وقالت فى هدوء :

— عصام ، انت بستنى مرة قبل كده — مش كده ؟ تقدر تقول لى ليه يومها أنا ما خفتش ؟

وقال عصام

— عشان يومها كنت بتحبينى والنهاردة ما بتحبنيش

وأشارت ليلى بيدها تستبعد كلامه

— كلام فارغ ٠٠ شعورى من ناحيتك ماتغيرش ٠ تحب تعرف ليه ماخفتش يومها يا عصام ؟

وأطبق عصام شفتيه وجلس على المقعد من جديد وقالت ليلى وهى تذرع الحجرة :

— كان يومها فيه حاجة ، حاجة فى ايديك ، حاجة فى وشك وفى عنيك وفى حركاتك ، حاجة تخلى أى شىء تعمله معقول ، ومش معقول بس ٠٠ معقول وجميل ٠٠

وتوقفت ليلى أمام عصام وقالت

- كان يومها فيه حب ، أما النهارده ، النهارده كنت بتبص لى زى ما أكون عدوتك ، زى ما تكون عايز تنتصر على . ليه ؟ ليه يا عصام ؟

وغطى عصام وجهه بيديه ولم يجب

وقالت ليلى بصوت مرتجف

- ليه تعاملنى بالشكل ده ؟

وقام عصام وسار في اتجاه النافذة .

وأنهك الصياح ليلى ، وانهارت على طرف السرير وهى تكرر بصوت خافت

- عشان ايه ؟ عشان ايه ؟

واستدار عصام وسار اليها وانحنى عليها ومس كتفها بيده مسة رقيقة وقال بصوت هامس :

- أنا خايف يا ليلى خايف ، من يوم ما سافر محمود وأنا خايف ، من ساعة ما قفلت الباب فى وشى ، وأنا خايف لتضيعى منى ، خايف لأفقدك والخوف ده بيجننى وبيخلينى مش عارف أنا با أعمل ايه !

وأشاحت ليلى بوجهها بعيدا وقال عصام

- تأكدى انى لو كنت فى وعيى ما كنش ممكن أقرب منك .. أنت ما تقدريش تتصورى أنا متألم قد أديه من اللى حصل ..

وتوقف عصام قليلا ثم أكمل كلامه

- يمكن لو عرفت ، اننا من يوم ما ابتدينـــا نحب بعض ، وأنا ضميرى بيعذبنى ، وطول الوقت شاعر إنى با أعمل حاجة غلط ، انى با أخون الثقة اللى الناس وضعوها فى ، يمكن لو عرفت كده تقدرى تتصورى قد أيه أنا متألم النهارده .

وفجأة فهمت ليلى تصرفاته السابقة التى احتارت من قبل فى فهمها .

فهمت لماذا يحمر وجهه عندما يدخل أبوها أو محمود أو أمها ، أنه يعتبرها ملكا لهم ، أنه يشعر بالخجل وبالعار وبالجرم لأنه يحبها . والعاطفة التى تملؤها هى بالفخر وبالاعتداد وبالرغبة فى الحياة وبالايمان بها تملؤه هو بالشعور بالاثم .

وأظلم وجه ليلى وقالت فى قسوة :

— اذا كنت حاسس انك غلطان عشان ما سافرتش القنال . ليه ما بتسافرش يا عصام ؟

وفوجيء عصام بسؤالها . ورفع يده عن كتفها واستقام وقد تجمع الغضب فى وجهه :

— أنا مش غلطان . وانت عارفه الظروف اللى منعتنى

وقاطعته ليلى فى برود

— محمود كمان كان عنده ظروف وسافر

— دا اللى أنت عايزه تقوليه من الصبح . مش كده ؟

وقالت ليلى :

— أنا .. ؟

وقاطعها عصام

— قولى ، اتكلمى ، قولى أنك بطلت تحبينى عشان مش بطل زى أخوك ..

وقالت ليلى

— أنا ما قلتش كلام فارغ زى ده

ولكن عصام كان قد وصل الى حد من الغضب لم يعد يسمع معه سوى صوته

— أنت مين أنت عشان تهينينى ؟ مين أنت عشان تحتقرينى ؟ أنا مش عبد لك ولا لأخوك . أنا حر ، فاهمه ؟ واذا كان عشان با أحبك .. عشان كنت با أحبك اعتبرى المسألة منتهية ، منتهيه خالص .

وتوقف عصام وهو يستجمع أنفاسه ثم قال

ـ أنا زهقت خلاص · أنا عايز أحب بنت طبيعيه بتفكر زى البنات ما بيفكروا ، وبتحس زى البنات ما بيحسوا · أنا زهقت منك ، ومن فلسفتك ومن أطوارك ··

وانحنت ليلى وأخفت وجهها بين يديها وقالت :

ـ خلاص يا عصام ـ انتهينا ـ تقدر تخرج ·

ـ طبعا حا أخرج · فاهمة ايه ؟ انى ما أقدرش أعيش من غيرك ؟

وأزاحت ليلى يديها عن وجهها وقامت واقفة وقد شحب لونها :

ـ أخرج

ونظر اليها عصام وتردد لحظة ثم سار الى الباب وخرج وطرقه خلفه

* * * *

جمد وجه ليلى وجلست على طرف السرير وأمسكت بقطعة التريكو وحاولت أن تدخل الأبره فى الغرز المحلولة · وكانت يدها ترتجف بالأبره والغرز تفلت منها ولكنها تعيد المحاولة فى اصرار وفى استماتة وكأن كيانها كله قد تركز فى هذه المحاولة ··

وفتح عصام الباب ودخل الغرفة من جديد ، ووقف يحك ذقنه بيده لحظة ثم قال فى صوت خافت :

ـ فيه حاجة واحدة عايز أعرفها وأظن من حقى انى أعرفها ، من حقى أنى أعرف أنا واقف فين بالضبط ·

ولم تجب ليلى وبقى نظرها مصوبا على قطعة التريكو وهى تدخل الغرز فى الابرة وكأنها لا تراه ، وكأنها لا تسمعه ·

وتقدم عصام الى داخل الغرفة وقال

ـ فيه سؤال واحد عايزك تجاوبينى عليه ، وأؤكد لك ان لو كانت الاجابة لأ ، مش حتشوفى وشى بعد كده خالص ·

ولم تجب ليلى واستمر عصام يتقدم حتى واجهها

ـ ليلى ، أنت بتحبينى ولا لأ ؟

وغص حلقه بالكلمات وأشاح بوجهه بعيدا عنها

وأطبقت ليلى فمهـــا • وغصت عيناها بالدموع ولم تعد تر شيئا وأنزلت قطعة التريكو ووضعتها على حجرها

وانحنى عصام عليها ووضع يده على كتفها وقال

- أنا آسف يا ليلى ، آسف على كل حاجة ، وأنا فعلا ما أقدرش استغنى عنك ، ما أقدرش أعيش من غيرك • بس أرجوك • أرجوك تريحينى

وأغمضت ليلى عينيها وطفرت الدموع منهما

وقال عصام :

- كلمة واحدة يا ليلى ، مش عايز الا كلمة واحده ، انت عاطفتك اتغيرت من ناحيتى عشان ماسافرتش

وضمت ليلى شفتيها ، وهزت رأسها عـــلامة النفى وهى ما تزال تغمض عينيها •

وقال عصام فى توجس :

- زى زمان ، زى زمان تمام يا ليلى ؟

وهزت ليلى رأسها بالموافقة دون أن تتكلم وتهلل وجه عصام ومال عليها حتى قارب وجهه وجهها وقال فى صوت هامس :

- قوى قد ما أنا باحبك يا حبيبتى ؟

وابتسمت ليلى وفتحت عينيها ونظر عصام اليها لحظة والحنان يشرق فى عينيه ثم مس شعرها بشفتيه

٨

ولمدة خمسة عشرة يوما عاشت ليلى فى توتر عصبى شديد ، كما لو كانت تعيش فى دوامة ، كما لو كانت تعيش فى حلم ثقيل • ولكن انتهى كل شىء ، انتهى والحمد لله •

وطيلة هذه الأيام بعث عصـــام فى قلبها الخوف والبرودة ، قبل حفلة خطوبة جميلة كانت تصرفاته تصرفات مجنون وفى ليلة الخطوبة بلغ جنونه أقصاه ثم انقطع عنها خمسة أيام كاملة •

وفى البداية ظنت أنها تستطيع أن تفهمه .. انه يخاف أن يفقدها وسيزول خوفه اذا ما أكدت له حبها وفعلت ذلك فى كل فرصة . ولكنها أدركت بعد مدة أن الكلمات لا تجدى . كان يجلس صامتا لا يتكلم ولا يتحرك وفى عينيه هذا الاصرار والتهديد وكأنه سيضربها ، وأمها تلاحظ، وخالتها بدأت تلاحظ ، وجميلة بدأت تلاحظ ، وهو لا يشعر بهن ، وكأنه غائب عن الوعى ، والنظرة الغريبة فى عينيه لا تبارحهما ، واذا ما انفرد بها لحظة قال فى يأس وكأنه غريق :

ـ ضرورى نجد حل

وبدا عصام أكثر تماسكا عندما ظن أنه وجـد الحل ، اقترح أن يتزوجا فى الحال ، قال انه فكر فى الموضوع طويلا ووجـد أنه ممكن ، فهو يستطيع أن يقـوم بعمل اضافى الى جانب دراسته والأجر الذى يتقاضاه بالاضافة الى دخله الحالى يمكن أن يكفيهما ، ومن الناحية العملية لن يتغير شىء وكل ما سيحدث أنها ستنتقل لتعيش معهم ، والشقة تتسع لهم جميعا وخاصة وجميلة ستتزوج وتنتقل الى بيت زوجها والمسألة طبيعية وبسيطة ومفهومة .

ووافقت ليلى على أن المسألة طبيعية وبسيطة ومفهـومة ، ولكنها تساءلت هل هى كذلك بالنسبة لأمها وأمه . ان أمها تريد لهـا أن تتزوج بأسرع ما يمكن ، ولكن بمهر مثل مهر جميلة ، ومن رجل لا يقل غنى عن زوج جميلة . وأمه ؟ أمه لا تريد له أن يتزوج الآن ، أمه تريد له أن يتخرج وأن يفتح عياده وأن يغتنى وأن يتزوج بابنة باشا أو بيه على الأقل . ان مستقبله مرسوم بمنتهى الوضوح والدقة وكذلك مستقبلها . لا ، ان أمها لن توافق وكذلك أمه ، وستعملان على تفريقهما بكل السبل المعقولة وغير المعقولة . فلماذا يواجهان هذا الاحتمال دون ضرورة ؟ لماذا يعرضان نفسيهما لهذه الخطورة ؟ نعم هى تعرف أن أمه تحبها ، وتحبها جداً ولكن على شرط ، على شرط ألا تفسد لها خططها وألا تتعلق بعصام وهو يطلع السلم ، وتقف به عند شقة محمد أفندى سليمان قبل أن يصل الى بيت الباشا أو البيه .

لا ، لم يكن من السهل اقناع عصام . لم يستطع أن يفهم أن كل عائلة تضع لابنها أو لابنتها خطة مرسومة من يوم أن يولد أو تولد . وعلى الانسان أن ينفذ هذه الخطة . فاذا فعل فاز بحب عائلته وبرضائها

عنه وان لم يفعل — ان خرج على الخطة المرسومة وعلى الاصول — ضربوه كما ضربها أبوها حين خرجت فى المظاهرة ، وحرموه من حبهم كما حرم أبوها محمود من حبه حين سافر الى جبهة القتال أو حتى قتلوه كما قتلوا صفاء .

واحتج عصام واتهمها أنها تردد كلام محمود وقال أنه سيثبت لها أن هذا الكلام كلام فارغ . فهو متأكد من حب أمه له ومتأكد من أنها لا تريد له سوى ما يريده لنفسه .

وهل أمه تحب جميلة أيضا أم أن هذا الحب مقصور عليه ؟ طبعا تحبها . فلماذا اذن أرادت لجميلة غير ما أرادت جميلة لنفسها ؟ لقد أرادت جميلة أن تتزوج شخصا معينا وزوجتها أمها بشخص آخر .. وصعق عصام .. ومن هو هذا الشخص المعين ؟ جارهم ممدوح ، وكان يحب جميلة ، وجميلة تميل اليه وطلب يدها من أمها .. لا لم يكن يعرف ، لم تكن لديه أدنى فكرة . ولماذا رفضت أمه ؟ ان ممدوح شاب ممتاز ، ومحاسب فى شركة محترمة ، والمستقبل أمامه مفتوح ؟

نعم ممدوح شاب ممتاز ، والمستقبل أمامه مفتوح ، ولكنه لن يمتلك أبدا فيلا فى الهرم ، ولا سيارة فورد ، ولن يستطيع أبدا أن يشترى لزوجته خاتم سوليتير ، ولا أن يدفع مهرا مثل الذى دفعه عريس جميلة الذى لا يستطيع فك الخط !

ولكن كيف ؟ كيف لم يعرف ؟ ولم أخفت أمه هذه الحقائق ؟ كان من الطبيعى ألا يعرف ، ومن الطبيعى أن تخفى عنه أمه كل شيء فربما تدخل وأفسد الخطة المرسومة لجميلة .

لا . لم يكن من السهل اقناع عصام بضرورة الانتظار حتى يتخرج حتى يستطيع أن يستقل عن أمه لو اقتضى الأمر هذا الاستقلال . لم يكن يرغب فى الاقتناع . كان الاقتناع يتضمن استبعاد الحل الوحيد الذى وجده للخروج من الأزمة التى كان يجتازها .

ولكن الدلائل التى تشير الى استحالة هذا الحل كانت كثيرة وواضحة ، وكان لا بد له من أن يقتنع واقتنع .

وعادت نظرة التهديد والاصرار تطل من عينيه ، وفى عينيه رأتها ليلى ، وفى نظرات أمها المرتبكة الخجول ، وفى المرآة..فى حجرتها

وهي تجرب ثوبها الأبيض وخالتها تجرى فيه التعديلات الأخيرة ، وفى المرآة عند الحلاق وهي تصفف شعرها انعكست نظرة الاصرار والتهديد .

وفى المرآة فى حجرة أم عصام رأت ليلى النظرة من جديد ، رأتها تلك الليلة ، ليلة خطوبة جميلة .

***

تلك الليلة كانت سعيدة فى ثوبها الأبيض بياض القمر الذى يطل من جوانب السرادق الذى أقيم فوق السطح بمناسبة اعلان الخطوبة ، كانت تعبث في طيات ثوبها الرقيقة المتراكمة والخدم يرفعون الطعام عن الموائد ، وفرقة موسيقية تجلس على منصة عالية تعزف الموسيقى حين قالت سناء :

ـ فستانك جميل يا ليلى ، عارفه عامله فيه زى ايه ؟ زى الملاك .

ومسحت عديلة فمها بالفوطة وقالت وهي ترسم بيدها أنصاف دوائر فى الهواء ، تشير الى البروز فى جسم ليلى :

ـ كل ده ملاك ! دا ملاك مبطرخ قوى .

وضحكت ليلى واحتجت سناء :

ـ لكن وشها ، بشرفك ، وشها مش زى وش البيبى ؟

ولمحت ليلى أباها وهو يغادر المكان بعد أن انتهى العشاء .

لقد قال لخالتها انه سيحضر اكراما لخاطرها . ولكنه لا يستطيع بأى حال أن ينتظر الى نهاية الحفـلة ، لا يستطيع أن يرى المنكر الذى حرمه الله .

وتنقلت جميلة بين الموائد تحيي الضيوف ، وخلفها خطيبها فى بذلة سوداء ، وساعته الذهبية الكبيرة معلقة على كرشه بسلسلة ذهبية ضخمة كالسلاسل التى تقيد المساجين . ولكن جميلة كانت رائعة بثوبها الدانتل الكثيف من وحدات من ورق الشجر ، وقد شغلت أطرافها بلؤلؤ أبيض رفيع يلتمع تحت الأنوار التى تتألق فى السرارق ، وبعنقهـــا الابيض الطويل وشعرها الأسود السخى الذى يستدير حول صدغيها ثم يرتفع ليبرز أذنيها الصغيرتين ، وبعينيها الرائقتين كنبع صاف ، كعينى عصام ..

ـ الجدع ده ضرورى بيحبك يا ليلى

قالت عديلة وهى تميل بنصفها الاعلى على المائدة ٠

واستدارت اليها ليلى ، كانت تتأمل أمها وقد جلست منكمشة الى جانب دولت هانم ، نصف ميته كما هو شأنها منذ أن سافر محمود ٠

ـ مين ؟

ـ عصام أخو جميله ، ما بيرخيش عينه عنك خالص

وقالت ليلى وهى تكتم ابتسامتها :

ـ انت مصيبة

ومالت عليها عديلة برقبتها الطويلة وبعينيها السوداوين الكبيرتين

ـ أمال فكرك أيه ! أنا أفهمها وهى طايره

وقالت سناء وهى تتصيد كعادتها قصة حب

ـ والنبى صحيح بيحبك ياليلى ؟

ولم ترد ليلى ، رفعت يدها تحيى صدقى ابن سامية هانم
وقالت عديلة :

ـ حاتعملى حدقة علينا يا بت انتى ، دا مش بيحبك بس ، دا حياكلك أكل !

وقامت ليلى واقفة وهى تضحك

ـ دقيقة بس ، حا أكلم ماما أحسن بتشاور من الصبح ٠

وسارت فى الممر بين الموائد متجهة الى مائدة أمها ٠ وابتسم لها بعض المدعوين وابتسمت لهم ، ورأت نظرات الاعجاب تطوقها ، وجذبتها سيدة لا تعرفها من يدها واحتضنتها وقالت لها « يا روحى عليك يا ختى بنت مين أنت يا حبيبتى ؟ »
واستأنفت سيرها فى خطى خفيفة وكأنها تطير ، وطيات الفستان الأبيض الشفاف كجناحى طائر أبيض كبير ، تنفرج ثم تنطبق ، لتعود فتنفرج من جديد ٠

وقالت دولت هانم :

ـ تعالى يا حبوبة ، تعالى ورينى ، اللى لابس فستان جميل كده مش يوريه للناس ؟!

وضحكت ليلى ضحكات متتابعة متلاحقة . كانت تريد أن تضحك بلا انقطاع .. بلا سبب بلا سبب ..

وقالت أمها :

- حا تقعدى لازقه مطرحك طول الليل ، اتحركى ، سلمى على الناس أهم كلهم قرايبك .

وأدركت ليلى على الفور أن دولت هانم وأمها تريدان عرضها على الناس فربما كان بينهم عريس لائق . ولكنها لم تغضب ، ضحكت من جديد ضحكاتها القصيرة الفوارة المتتابعة . وابتدأت بمائدة سامية هانم وانتوت أن تتبعها ببقية الموائد . ولكنها شعرت فجأة برغبة شبيهة برغبة القطة الصغيرة التى تبحث عن الدفء . أرادت أن يدللها أحد ، وأن يربت على كتفها ، وأن يمسح شعرها ، وأن يقول لها من جديد انها جميلة . وانحرفت الى حيث يقف عصام .

كان يقف على باب السرادق المؤدى الى سلم السطح يكلم أحد الخدم . ومدت ليلى يدها ووضعتها على كتفه واستدار يواجهها .. كانت عيناها تلمعان فى خفة وفى رعونة ، وشفتاها منفرجتين فى ابتسامة مكتومة ، وبريق يشع منهما .. من أين ؟ من وجهها ومن جسمها ، بريق يلف وجهها ويلف جسمها . وسرى البريق الى عصام ، سرى فى نظرات بينهما لم تكتمل ، وفى بسمات لا تكتمل .. وفى كلمات لا تكتمل . ولف البريق ليلى وعصام وضمهما فى وحدة منفصلة عن بقية الموجودين .

وتمتم عصام بصوت ثقيل :

- تعالى نخرج بره شويه

واستدار الى الخارج ، وهمت أن تتبعه وانكسرت الوحدة .

اصطدم عصام بأمه وهى تدخل السرادق بعد أن فرغت من غرف الطعام للخدم وسائقى العربات .

- عصام - البنت الرقاصة مصممة على ستاشر جنيه ، مع ان على بك متفق معاها على عشره . انزل شوف ايه حكايتها .

وقال عصام فى غيظ مكتوم :

- ما ينزل هو يا ستى .

- معلهش يا حبيبى عشان خاطرى ، قول لها على التناشر . أحسن أنا قلت ولا مليم زياده ، وما أحبش أرجع فى كلمتى .

وسارت أم عصام الى داخل السرادق بعد أن ربتت على كتف ليلى . وتطلع عصام الى وجه ليلى وقال :

- تعالى ويايا

ولكنه كان يعرف أنها لن تفعل هذه المرة ، كان البريق قد اختفى من وجهها ومن جسمها . وهزت ليلى كتفها فى دلال دون أن تتكلم وبقية من رعونة فى عينيها . ووقف عصام وكتفه الى جانب كتفها وقال فى صوت هامس دون أن ينظر اليها

- عارفة ان ما جتيش حا أعمل ايه ؟

وقالت وهى تنظر بعيدا :

- ايه ؟

- حا أبوسك قدام كل الناس دول .

ونظرت اليه من طرف عينها

- اذا كنت شاطر

واستدار عصام يواجهها وقد تركزت نظراته على الخط العميق الذى يفصل بين نهديها ، والذى تكشف عنه فتحة ثوبها

وقالت ليلى وقد احمر وجهها :

- لأ يا عصام ما تبصش كده ، كل الناس شايفانا

وهز عصام رأسه وقال بصوت ثقيل خافت متقطع :

- أنتى حلوة النهارده ، حلوه قوى يا حبيبتى

واستدار خارجا من السرادق وهو يكاد يهرول .

* * * *

وسارت ليلى فى اتجاه عديلة وسناء ، واستوقفها صدقى فى الطريق

ـ ايه ما فيش بونسوار ولا حاجة ؟ خلاص ما نعرفش بعض ولا ايه؟

وصافحته ليلى وهى تبتسم فى خجل ، ولمعت فى عينى صدقى نظرة اعجاب عابثة وقال :

ـ تسمحيلى أقول لك حاجة ؟

ـ اتفضل

ـ انت النهارده ساحقه

وضحكت ليلى وتورد وجهها ، وقالت وهى تميل برأسها جانبا :

ـ ساحقه ! يعنى ايه ساحقه ؟

ـ يعنى قاتله ، ودا حرام كمان ٠

وتظـــرت اليـــه ليلى من طـــرف عينها ، وهى تكتم ابتسامتها ، واستأنفت سيرها ٠

وقالت عديلة :

ـ ودا يطلع مين كمان ؟

ـ دا صدقى ، صدقى المغربى ابن سامية هانم ٠

وقالت سناء :

ـ أما جذاب بشكل ، دا شبه « جريجورى بك » تمام ، ما تتجوزيه يا ليلى

وقالت عديلة فى لهجة حاسمة

ـ ما يجوزهاش ٠

واحتجت ليلى

ـ يعنى أنا اللى عايزه أتجوزه ؟

وقالت سناء :

ـ وهى ليلى وحشه ، دا حتى باين عليه واقع فيها

وضحكت ليلى وقالت :

ـ أهو أنت كده يا سناء ، تحبلى البغله ٠

وقالت عديلة :

ـ حتى لو كان واقع فيها ، يمشي معاها معلهش ، لكن يجوزها لا ٠٠ فيه نظام طبقات يا حضرة

ونظرت اليها ليلى فى اعجاب

ـ كلك حكم يا عديله ٠٠ دا مره بيقول ٠٠٠٠

ـ وقالت سناء

ـ هس

وشعرت ليلى بيدى رجل تستقران على كتفيها العاريين ، وتوقفت عن الكلام وقد تصلب جسمها ٠ وأدارت رأسها الى الخلف ورأت صدقى وعيناه تطلان فى عينيها فى جرأة وفى ثقة

ـ مش تعرفينى بزميلاتك ، ولا الطرابيزه دى عايزه تحتكر الحلاوة اللى فى الحفلة كلها ؟

وقدمته ليلى الى سناء وعديلة ، ومدت سناء يدها بحركة آلية تصلح من شعرها ، وتصلبت يد عديلة على المائدة وهى تحنى رأسها ٠

وشعرت ليلى بالحرج ويدا صدقى ما زالتا مستقرتين على كتفيها ، وأحست أن كل العيون مركزة عليها ، ورأت عصـام يقف عند مدخل السرادق وفى عينيه نظرة خطيرة ، نظرة قاتلة ٠

وقالت فى اضطراب :

ـ ما تقعد يا صدقى بك

وكان صدقى يسحب مقعدا خاليا عندما وقف عصام تجاه ليلى وقال فى صوت غاضب دون أن ينظر الى صديقاتها :

ـ خالتى عايزاك

وغمزت عديلة سناء ، وتقدمت ليلى عصام ، وقال صـــدقى شيئا وضحكت عديلة وسناء ٠٠

وسارت ليلى فى اتجاه مائدة أمها وارتفعت أنغام الموسيقى مزغردة صاخبة ، واندفعت الراقصة من باب السرادق تجرى وغطاء من الشيفون الأحمر يهفهف على جسدها ٠

ووقف الجالسون حول الموائد عند دخول الراقصة ، وانتهز عصام الفرصة وسحب ليلى من يدها سحبا الى خارج السرادق

* * * *

وقالت ليلى وهى تستند على سور السطح وقد تقطعت أنفاسها :

- جرى ايه يا عصام ؟

- فيه أيه بينك وبين الولد ده ؟

- ولد مين ؟

وهز عصام رأسه فى قسوة

- الولد اللى بيقرص فى كتافك ! أنا ما كنتش افتكر أنك رخيصه بالشكل ده ؟

وأقفلت ليلى عينيها ، وتقلص وجهها ، وكأنها قد تلقت صفعة • وقال عصام فى وحشية :

- ما تتكلمى ، ما تنطقى ، ساكته ليه ؟

وفتحت ليلى عينيها وقالت :

- انت وقح وقليل الأدب كمان

واستدارت متجهة الى مدخل السرادق ، وجذبها عصام من يدها

- أنا اللى قليل الأدب ولا أنت ؟ ضرورى شجعتيه ، لابد ، لابد انك شجعتيه •

واستدارت ليلى اليه ويدها ما زالت فى قبضته وقالت فى هدوء

- أيوه شجعته ، وبا أحبه كمان عاير إيه ؟

ووجم عصام وارتخت قبضة يده على يدها • وانتهزت هى الفرصة وانتزعت يدها فى عنف وجرت الى داخل السرادق •

* * * *

كانت الراقصة ترقص أمام على بك خطيب جميلة وقد ألقت بنصفها الأسفل على حجره وهو يحاول عبثا أن يبتعد بجسمه الى الخلف حتى لا يلمس جسدها جسده ، وجميلة تبتسم وتشد على يد أمها التى تقف الى جانبها ، والضحكات تعلو من جوانب السرادق •

وأشارت عديلة ولكن ليلى تجاهلت اشارتهـا ، وسارت الى حيث تجلس أمها منكمشة وحيدة ، وجلست تجاهها تدق المائدة بيدها فى حركة متكررة ميكانيكية •

وقالت الأم :

ـ مالك ؟

ـ ما فيش ·

ـ مافيش آزاى ؟ ذا أنت لونك مخطوف خالص ·

واستمرت ليلى تقرع المائدة دون أن تشعر بحركة يدها وقالت :

ـ دماغى بتوجعنى

ودخل عصام السرادق وسحبت ليلى يدها الى جانبها وقامت واقفة وسارت فى طريق أفقى الى حيث يجلس صدقى وعديلة وسناء · واسرع عصام فى خطاه حتى التقى بها فى منتصف الطريق وهمس فى أذنها بصوت خافت

ـ ارجعى أحسن لك

واظلم وجه ليلى وألقت برأسها الى الخلف وتابعت سيرها وقالت عديلة :

ـ جرى ايه يا ست ليلى ؟ عمالين نشاورلك من الصبح · عايزين نروح

وقال صدقى فى خبث :

ـ سيبوا ليلى فى حالها ، ليلى يظهر مشغوله خالص ·

وودت ليلى لو استطاعت أن تصفعه على وجهه · وجلست بين عديلة وسناء وهى تقول :

ـ ما بدرى

وقالت عديلة :

ـ لأ يا ستى مش بدرى ، يا دوب كده ، بس نسلم على طنط سميره وجميله ونروح على طول ·

وقالت سناء :

ـ فعلا احنا اتأخرنا خالص ·

وقال صدقي :

ـ تسمحوا أوصلكم ، والله دا يبقى شرف كبير خالص .

وابتسمت سناء وقالت عديلة :

ـ كتر خيرك يا صدقي بيه ، مافيش لزوم ، احنا ساكنين قريب خالص .

وقامت واقفة وتبعتها سناء وصافحتا صدقي وسبقتهما ليلى الى حيث تقف خالتها بجانب جميلة .

وقبلت كل من سناء وعديلة جميلة ثم صافحتا خطيبها .
وقالت سميرة هانم :

ـ ايه رأيكم بقى فى العروسه ؟
وقالت سناء :
ـ جنان يا طنط جنان ! الفستان ..

وأكملت عديلة :

ـ والى جوا الفستان ، والحفلة كلها حاجه حلوه خالص ، عقبال الفرح ان شاء الله .

ـ عقبال عندكم يا حبيبتى .

وتطلعت سناء الى خطيب جميلة لحظة ، وقد ارتفع أنفها الصغير ، الارستقراطى الى أعلى ، ثم قالت له فى جفاف ، وكأنها تلومه على شىء :

ـ جميله عروسه تستاهل ان الواحد يحطها فى عنيه .

وضحكت جميلة ضحكة عالية . واحتضنت سميرة هانم سناء وقال على بك :

ـ يا ست هانم احنا قلنا حاجة ، على العين والراس ياست هانم على العين والراس .

وقالت عديلة لليلى فى همس :
ـ المبلاطى ..

وقالت سميره هانم وهى تعطى ليلى سلسلة مفاتيح الشقة :

- وبالمره يا حبيبتي هاتي لخالتك الجاكيت الفورير من الدولاب أحسن بردت خالص ٠ يظهر خالتك عجزت ٠ ما عدتش بتستحمل البرد

وبرم على بك شاربه وقال وهو يبتسم ابتسامة واسعة :

- العفو يا ست هانم ٠ يا ست هانم العفو ٠

* * * *

وقالت عديلة وهي تلبس معطفها :

- أما حته نطع

وقالت سناء :

-نطع ميرى صحيح

وقالت ليلى وهي تبرم شاربا وهميا وتترقص :

- عقبال عندكم يا ست هانم يا ست هانم عقبال عندكم

ولوحت لسناء وعديلة وضحكاتهما ترتفع من المصعد وعادت الى الشقة لتأتي بجاكتة خالتها ٠

وخلعت ليلى الجاكت من على الشماعة ووضعته على كتفيها وأقفلت باب الدولاب ٠ ووقفت تتطلع الى نفسها في المرآة وتراجعت الى الخلف وهي تضم الفورير الى صدرها بيديها ، وجمدت يداها على صدرها ٠٠ في المرآة رأت عصام يقف على الباب وفي عينيه نظرة سوداء قاتلة ، وأدرك عصام أن ليلى قد رأته ودخل الغرفة وأقفل الباب خلفه ، وربع يديه على صدره ٠

واستدارت ليلى له ببطء وقالت وهي تصطنع الهدوء :

- خالتي بردانه وعايزه الجاكتة ٠

ولم يجب عصام ، لم يتحرك من مكانه ، وفي وجهه هدوء مريب هدوء قاتل ٠

وتسلل الخوف الى صوت ليلى

- عايز ايه يا عصام ؟

- حا أقتلك

- آنت مجنون !

وقال عصام دون أن يفقد صوته الهدوء :

- أنا عارف انى مجنون . لكن قلت لك - ما تروحيش عنده .

وتقدم منها ببطء ورأسه ممدودة الى الأمام ، كالقط حين يتربص بفريسته خطوة فخطوة .

وتراجعت هى حتى التصقت بالسرير وهى تقول فى صوت باك
- كنت با أغيظك ، كنت باأغيظك يا عصام

واقترب منها حتى كاد يلمســـــها وفلتت من بين يديه ووقفت تواجهه والسرير يفصل بينهما

وقال عصام بنفس الهدوء المخيف :

- ما تتعبيش نفسك يا ليلى - مش حاتفلتى منى

- أرجوك يا عصام . أرجوك تسيبنى

ومسح عصام وجهه بيده فى عنف وقال فى حدة

- وانت ما سبتنيش فى حالى ليه مادام بتحبى واحد تانى ؟

- كنت باأضحك عليك ياعصام . كنت بااضحك عليك

وحاولت أن تشق لنفسها طريقا الى الباب ولكنه لحق بها وأمسك بكتفيها وأدارها اليه بعنف وأسندها الى الباب .

- أنا عارف انك كنت بتضحكى على ولكن مش حتضحكى على تانى

ومسحت يداه على كتفيها العاريين واستقرتا مفرودتين على كتفيها بالقرب من عظمتى رقبتها .

- أبدا

وألقت ليلى برأسها الى الخلف وأغمضت عينيها وقال عصام فى وحشية :

- ومن امتى وانت بتضحكى على ؟ من امتى وانتى ماشية مـــع الجحش ده ؟

واستقامت رأس ليلى وقالت فى صوت هادىء :

ـ اقتل يا عصام . أقتل وريحنى

وتحرك اصبع يده اليمنى الكبير يمسح على صدرها ويداه ما زالتا مستقرتين فى مكانهما وقالت ليلى :

ـ ما دام انت بتعتقد فى كده ، يبقى أحسن تموتنى

ـ ليه ؟ أنا غلطان ؟

ولم تجب ليلى . سالت الدموع من عينيها المغمضتين

وتحرك اصبع يده اليمنى الكبير على عنقها من جديد ومال وجهه عليها وهو يكرر :

ـ أنا غلطان ؟

وقالت دون أن تفتح عينيها

ـ انت عارف ، عارف انك غلطان ؟

وسقطت شفتاه على شفتيها واستقرتا عليهما منهكتين تعبتين .

ثم جمدت شفتاه على شفتيها ، وتقلصت يداه على رقبتها وابتعد بوجهه عن وجهها وقال بصوت مختنق :

ـ أنا قلت لك ماترجعيش ورجعت .. رجعت ..

وارتجف جسم عصام وارتجف صوته وزاغت عيناه وهو يصرخ كالمجنون ويقول :

ـ انت بتاعتى .. بتاعتى أنا .. ملكى أنا .. فاهمه ؟
وضاقت قبضتاه على عنقها وصرخت ليلى بصوت متحشرج :

ـ سيبنى ..

ومدت يديها وبقوة لا عهد لها بها ، انتزعت يدى عصام عن رقبتها وجرت فى اتجاه الاريكة ووقفت تواجهه كالقطة المتنمرة .

ـ أحسن لك تبعد عنى ـ خالص .. فاهم ؟
وأطرق عصام برأسه وازدادت ليلى عنفا :

- أنا مش ملكك ولا ملك أى انسان ، أنا حره ، فاهم ؟

وانقض عليها عصام وقد اربد وجهه · وبدأت بينهما معركة عنيفة صامتة ثم تمكن عصام منها وألقاها ممددة فوق الاريكة ·· وجسم عصام كالصخرة فوق جسمها ويداه تطوقان ذراعيها كطوقين من الحديد وفمه اللزج فوق عينيها فوق فمها فوق رقبتها فوق صدرها ·· ودقات أقدام تدب في السطح وزغاريد وموسيقى وحرارة تلهب وجهها وجسمها وأنفاس عصام المتقطعة وقدماه ·· قدماه يسحقان قدميها والزغاريد تعلو والموسيقى ·· ووقع أقدام فى الممر وطرقة على الباب وصوت ممطوط ينادى :

- سى عصام ·· سى عصام ·

والقرع يشتد والنداء يتكرر وعصام لا يسمع ·· وصرير أسنانها فى خد عصام وصرخته ، وعصام يصحو على القرع والنداء وقبضتاه ترتخيان على ذراعيها وتنهالان على كتفيها ضربة بعد ضربة وعويله المكتوم وخطواته وهو يبتعد ، وصرير الباب وهو يفتح ويقفل ، وصياحه المجنون فى الممر :

- خلاص ، غورى من وشى ، غورى ، أحسن اقتلك ·

وصوت الخادمة المطوط وهى تقول : يوه يا سيدى ، وخطوات الخادمة تبتعد وخطوات عصام تتردد فى الممر تروح وتجىء ثم تبتعد فى بطء · وطرقة الباب الخارجى تهز البيت وصوت تنفسها العريض وهى تدرك أنها نجت بالكاد من خطر محقق ، وبرودة الظلام تلسع قدميها وهى تتسلل من الشقة وتنزل السلم فى الظلام عارية القدمين كما لو كانت تحلم

* * * *

نعم كان حلما ثقيلا وانتهى والحمد لله ، لم ينته تلك الليلة ولكنه انتهى بعدها بخمسة أيام ، خمسة أيام جاء بعدها عصام ، عصام الذى تعرفه وتحبه ، لاذلك الغريب الذى بعث الخوف والبرودةالى قلبهاوجسمها ·· جاءها مشرقا هادئا متماسكا عطوفا حانيا وكأنه قد بعث من جديد :

- خلاص ياليلى خلاص ·

قال عصام :

- خلاص ياليلى لقيت حل .. مش حالمسك ابدا ، ولا اضايقك أبدا ، حا ابص لوشك الحلو بس واسمعك تتكلمى ، وأحبك وبس وأنتظر لغاية ما نتجوز .

ولانت ملامح عصام ولانت عيناه وأشرق فيهما نور ثاقب اخترق جسد ليلى واستقر فى حناياها ..

ولم يخطر لليلى فى غمرة سعادتها أن تسأل عصام عن الحل الذى وجده للخروج من الأزمة التى كان يعانيها .

***

« الحل ؟» ..

كتب محمود لليلى : « ليس هناك سوى حل واحد ، أن يحدث شىء هائل ، شىء يهز هؤلاء الناس المحترمين المستقرين المطمئنين ، معجزة تجبرهم على تمزيق أكفانهم ، والا فلن يتغير الأمر .. لن تتمزق الاكفان ، لأنهم يتمسكون بهـــا ويستترون خلفها .. يحسبون أنها تحميهم وتقويهم بينما هى فى الواقع تشل خيـــالهم وعقولهم وقدراتهم . وخلف هذه الأكفان يعيشون . كل واحد منهم يقول : لا لن أغامر ، لن أخاطر ، لن أخرج على الدائرة المرسومة لى . قد أضر نفسى ، قدأضر مصالحى ، قد أضر مستقبلى ، قد أضر أولادى . لا لن أفكر الا فى الافكار التى يتقبلها مجتمعى ، ولن أرغب الا فى الاشياء التى يرغب فيها من حولى ولن أفعل الا الاشياء التى يفعلونها ولن أشعر الا بالمشاعر التى يستشعرونها . ولن انفعل ، ان الانفعال قرين الألم وسأجنب نفسى الالم ولن أفعل سوى ما فيه صالحى أنا . وتحت أكفانهم يعيشون ، لايحبون حبا كبيرا ، ولايضحون تضحية كبيرة ، ولا يحلقون فى عالم الفكر والخيال والحس . ويتزوجون ويلدون قوالب قوالب متشابهة ، تفكر بنفس الطريقة وتتأثر وتؤثر بنفس الطريقة ، قوالب متكررة ، أوساط من الناس بلا عبقرية ، بلا نبوغ ، بلا تفنن ، بلا ابتكار ، بلا قدرة على الحب الحقيقى »

وفى مدة الثلاث شهور التى قضاها محمود فى القناة لم ينقطع عن الكتابة . ولكن خطاباته التى كانت فى بادىء الامر طويلة ومليئـــة - باحساساته وبانفعالاته ، أصبحت أقصر وأكثر رسمية أسبوعا بعـــد أسبوع حتى اقتصرت على سطور يسأل فيها عن صحة العائلة .

وأدركت ليلى أنه يخفى عنها شيئا وأرسلت تسأله عن السبب أكثر من مرة • وفى كل مرة كان يتحاشى الرد على سؤالها • وعندما ألحت بعث يقول انه مشغول وان قلة عدد الفدائيين تعني مزيدا من العمل ، تعنى أن يركز الانسان تفكيره وكيانه كله فى هذا العمل وأنه يكتب لمجرد أن تطمئن عليه العائلة •

وأدركت ليلى من هذه الاشارة أنه وزملاءه يشعرون بالوحـــدة وبالانعزال • وأرسلت اليه تسأله هل هذه هى الحقيقة التى يخفيها عنها • وفي آخر خطاب أرسله لها قبل أن يعود من القناة كتب يقول :

« نعم ، نحن معزولون وليس هذا شعورى أنا فقط بل شعور جميع زملائى هنا ، وان كان هذا لا يؤثر فينا ولن يمنعنا من تأدية المهمة التى جئنا من أجلها • لا ، ان الخيانة لاتهم والجاسوسية لاتهم ، ان الخــونة والجواسيس قلائل شواذ يمكن استئصالهم • ان الذين عزلونا ليسوا الخونة ولا الجواسيس ، انهم الملايين من الناس الطيبين الذين يحبون مصر، يحبونها طالما لم يتعارض هذا الحب مع مصالحهم النفعية • ان الخيـانة الحقيقية هى خيانة هؤلاء الناس الذين يحبون مصر بقلوبهم وأفواههم ، لا بسواعدهم ودمائهم • »

كان الخطاب يحوى أخبارا مؤلمة عن الحالة فى القناة ، فالى جانب الشعور بالعزلة ، كان هناك نقص فى الاسلحة وفى التنظيم وفى الملابس وفى الغذاء • والجانب الاكبر من الفدائيين من العمال والكادحين الذين تركوا خلفهم أعمالهم وأطفالا وأسرا بأكملها كانوا يعولونها • والحكومة تماطل فى مد الفدائيين بالاسلحة وبالنفقات الضرورية •

وفى ذلك الخطاب أخبر محمود ليلى أنه قادم الى القاهرة مع زميله حسين فى مهمة رسمية وان اقامتهما فى القاهرة لن تتجاوز ٢٤ ســاعة يعودان بعدها الى منطقة القنال •

وكانت لهجة الخطاب غاضبة وكأنه ••• وكأنه يشركها فى اللوم على هذا الوضع ! وما ذنبها هى ؟ ولكن أليست هذه هى الحقيقة ؟ أليست هى واحدة من الناس الطيبين الذين يحبون مصر ولكن لا يحبونها بما فيه الكفاية ليمزقوا أكفانهم ويهبوا لنجدتها ؟

وشعرت ليلى بالحرج وكأنها ارتكبت ذنبا ولم يفارقها هذا الحرج وهى تمد يدها لتصافح محمود •

٩

وكان محمود متغيرا للغاية • ولحظ أبوه هذا التغير وهم جلوس على مائدة الغذاء ونظر اليه فى رهبة لحظة ولم يقل شيئا ، واستمرت أمه تملا طبقه بالطعام رغم احتجاجه وكأنه كان صائما طيلة الفترة التى قضاها فى القناة •

وحاول هو أن يتكلم وسأل الأسئلة المعتادة عن الصحة وعن خالته وعصـــام وجميله وموعد زواجها وعرف أن جميله ستتزوج فى خلال أسبوع • ولكن فترات الصمت كانت تطول بين الجمـــلة والاخرى صمت وحرج وكانه غريب •• ولم يحاول أحد أن يفتح موضوعاللحديث أرادت أمه أن تسأله هل يأكل هناك جيـــدا وهل الغطاء كاف وهـــل يتعرض للخطر ولكنها كانت تعرف أن زوجها لا يريد آن يسمع كلمة واحدة عن هذا الموضوع ، واكتفت بأن تطيل النظر آلى ابنها وعينـــاها تدمعان بين الحين والحين •

وأراد أبوه أن يقول شيئا واحدا ، شيئا معينا يلح عليه ولا يحس بسواه ولا يرغب فى أن يقول سواه وكلما هم بالكلام نظر الى ملامح محمود التى اكتسبت صرامة وقوة والى الخطوط الخفيفة التى انتشرت فىجبهته والىعينيه اللتين فقدتا لمعانهما وكأن شيئاقد مات فيهماوسكت، لافائدة ، لن ينصت له هذا الشخص ، لن يسمع كلامه ، لن يرجع أبدا عما بدأ ، لقد تغير ، خرج عن طاعته نهائيا ، ويشيح الأب بعينيهبعيدا قبل أن تلتقيا بعينى ابنه •

وسارقت ليلى محمود النظر وارتجف فى أعماقها خوف مبهم ، كان يجلس وقد انتصب جسمه ، وانقبضت يده اليسرى على طرف المـــائدة وجمد وجهه ، وكيانه كله مشدود ، مشدود آكثر من اللازم فى تحفز وفى توتر ، وكأن من الضرورى له أن يبقى هكذا مشدودا لايرتخى أبدا•

وبدأت ليلى تأكل باحتراس ، ووقع الملاعق على الأطباق يقع على أعصابها وكأنها تخشى أن يحدث شيئا ما ، شيئا يزعج محمود ، كلمة أو ضجة تجعله يرتخى ، تجعله يضع رأسه على المائدة وينفجر باكيا •

وأزعج ذلك الخاطر ليلى وحاولت جاهدة ابعاده من خيالها •

أليس خوفها هذا مضحكا ؟ ألأنها ضعيفة تحسب الناس كلهم ضعفاء مثلها ؟ محمود لايمكن أن يحدث له مثل هذا الشيء • محمود قوى ، محمود حارب الانجليز ثلاثة شهر ، وهو عائد فى الغد الى القناة ليحاربهم من جديد • محمود لن ينهار ، لن ينهار أبدا ، من المستحيل أن يحدث له ذلك • ومن الطبيعى أن يكون المحارب متحفزا.، انه يحارب ولا يلهو مثلها ومثل الذين بقوا بعيدا عن القناة واكتفوا بترقب نتيجة المعركة •

وانتظرت ليلى فى صبر انتهاء وجبة الغداء ، نعم لقد تغير محمود ، ولكن كل شىء سيعود بينهما كما كان عليه حين ينتهى الغداء ، حين تنفرد به فى حجرتها أو حجرته ، حين يحكي لها وتحكي له كما كانا يفعلان من قبل ، وانتظرت ليلى انتهاء وجبة الغداء فى فروغ صبر •

وانفردت ليلى بمحمود فى غرفته ، وحكى لها وحكت له ، ولكن شيئا ما وقف بينهما •

وحاولت ليلى جاهدة أن تصل الى محمود وأن تقتحم ذلك السد الذى أقامه بينه وبينها وفشلت فى محاولتها ، ماذا حدث ؟ هل يخفى شيئا ؟ لا ، انه لايخفى شيئا عنها • لقد أخبرها بكل شىء ، كل شىء يمكن أن ينقله انسان الى انسان آخر فى كلمات ، ومع ذلك مازال ذلك السد المنيع يقف بينها وبينه وكأن •• كأن أشياء قد حدثت له ، أشياء انفرد بها عنها وكبر بها عنها ، وأصبح بها انسانا غير محمود الذى عرفته انسانا لاتستطيع أن تحسه وأن تسبر أغواره •

ولكن هل يمكن أن يحدث كل ذلك فى ثلاث أشهر ، مستحيل!! لابد أن شيئا ما يؤلمه وهى لا تستطيع أن تسرى عنه ، ربما يستطيع عصام أن يفعل شيئا ؟ نعم عصام صديقه وحبيبه وأسراره دائما معه ، ثم انه رجل والرجال أقدر فى هذه المواقف ، نعم ، فى الحال ، ستدعوه فى الحال •

* * * *

أوقفت ليلى المصعد ، وفتحت بابه واندفعت الى داخله ثم وقفت تبتسم فى ارتباك ، اصطدمت بشاب أسمر طويل وهو يخرج وتراجع الشاب الى داخل المصعد وقال :

ـ أنا آسف •

وابتسم فى وجهها ولحظت ليلى التغير الذى طرأ على وجهه أثر هذه الابتسامة · ذابت ملامحه الكبيرة القوية المحددة فى ابتسامته فصار وجهه الأسمر كوجه طفل رضيع · ولم تستطع ليلى أن تقاوم ابتسامته فابتسمت وهى تقول :

ـ طالع ولا نازل ؟

ومد الشاب يده يتحسس شعره الأسود الناعم وقال :

ـ لاطالع ولا نازل . خارج هنا فى الدور ده ·

وتراجعت ليلى لتفسح مكانا يمر منه ثم دخلت المصعد بعد أن مر وأقفلت بابه الحديدى ·

ولم يتجه هو الى احدى الشقتين ، وقف يتطلع اليها وفى عينيه نظرة آمرة آسرة ·· وكأنه يأمرها أن تبقى حيث هى ، وقالت ليلى وهى توشك على أقفال باب المصعد الزجاجى ·

ـ فيه حاجه ؟

ـ دقيقة واحدة من فضلك ·

ولم يكن صوته يأمر كنظرته ، كان على العكس من نظرته هادئا ، وكأن صاحبه يتحكم تحكما تاما فى كل نبرة من نبراته ·

ـ فين شقة الأستاذ محمود سليمان من فضلك ؟

ـ محمود ·· هنا

وأشارت ليلى الى شقتها ثم أدركت أن ذلك الشاب الذى يقف أمامها هو حسين عامر ، زميل أخيها فى القناة ، وملأها ذلك الادراك براحة نفسية عميقة وكأن متاعبها ومتاعب أخيها قد ذابت فى هذه الابتسامة الواسعة المكتملة التى تواجهها · وشعرت ليلى كأن الله قد استجاب لدعائها ، كأن الله قد أرسل حسين خصيصا فى هذه اللحظة بالذات ليسرى عن محمود ، وليقف الى جانبه كما وقف الى جانبه دائما فى القناة ، وتألق وجهها بفرحة غامرة وقالت :

ـ أهلا وسهلا ·

وفتحت الباب الحديدى على مصراعيه ، وانطلقت تقود حسين الى شقتها وقبل أن تمد يدها الى الجرس قال حسين :

- ليلى ..

لم يكن يسأل ، كان يناديها واستدارت وواجهته وقالت :

- حسين ..

- عرفت ازاى ؟

- وانت عرفت ازاى ؟ ..

والتقت عيونهما وضحكا معا .

واستدارت ليلى ، وقرعت الجرس وقال حسين :

- محمود كلمنى كتير عنك ..

وقالت ليلى دون أن تستدير :

- وكتب لى كتير عنك ..

- على كده احنا نعرف بعض كويس .. يعنى أصدقاء

واستدارت ليلى وواجهته وفى عينيها نظرة جادة .

- انت صاحب محمود .. مش كده ؟

وهز حسين رأسه يؤكد هذه الحقيقة وهو يبتسم واستطردت ليلى فى كلامها :

- والصديق يساعد صديقه اذا كان محتاج لمساعده .. مش كده؟ .

وقال حسين وهو يتأمل وجهها بعينيه السوداوين الواسعتين العميقتين .

- كده .

وأدركت ليلى أنها تستطيع أن تعتمد عليه وأن محمود يستطيع أن يعتمد عليه ، وانفرج وجهها فى ابتسامة واسعة وقالت :

- يبقى خلاص .. عن اذنك بقى .

وتركته خلفها ودخلت المصعد وتحرك بها وأشارت له بيدها ملوحة ثم اختفت • وعندما اختفت تذكر حسين فجأة الأنباء السيئة التى جاء يحملها الى محمود ، وشعر أنه هو بدوره فى حاجة الى مساعدة ، وأنهم جميعا فى حاجة الى مساعدة ، والبناء يتخلخل أمام أعينهم ، البناء الذى بنوه طوبة فوق طوبة بعرقهم وأعصابهم ودمائهم •

* * * *

وفتحت جميلة الباب ، كان وجهها متوردا وعيناها تلتمعان ، وما أن رأت ليلى حتى ارتمت فى أحضانها ثم سحبتها من يدها وهى تقول وأنفاسها مبهورة :

ـ فستان الفرح جه •• أما فستان ياليلى ! أما فستان !

وقالت ليلى وهى تخلص يدها من يد جميلة :

ـ دقيقه واحده ياجميله ، أصل محمود جه وعايزه أقول لعصام ينزل له •

وقالت جميلة وقد زايلها حماسها :

ـ اخص عليك ، مش حاتشوفى الفستان الأول • ؟

ثم ابتسمت وقالت :

ـ وازى محمود ؟

ـ كويس •• هو عصام فين ؟

ـ فى أودة المكتب •• أحسن كده برضه ، حا البس أنا الفستان على ما تيجى عشان تشوفيه على •

وكان عصام يجلس الى المكتب وأمامه كتاب مفتوح وكانت سيدة الخادمة ، تركع على الأرض تمسح بخرقة مبتلة آثار قهوة على السجادة وقدح القهوة مازال مقلوبا على جانبه على طرف المكتب •

ونهض عصام واقفا وعلى فمه ابتسامة مرتبكة

ـ أهلا ليلى •

وقالت ليلى وهى مازالت تقف بالقرب من الباب :

ـ محمود جه ..

وقال عصام بلا حماس :

ـ صحيح ؟ ..

وتقدمت ليلى الى داخل الغرفة .

ـ مش حاتنزل له ياعصام ؟

ـ دلوقت ؟

ووقفت ليلى تجاهه ..

ـ أيوه دلوقت .. الا اذا كنت مشغول .

وهز عصام كتفه وهو يبتسم :

ـ لا .. ولا مشغول ولا حاجه .

واستدار ليأخذ الجاكتة من على مسند الفوتيل المجاور للمقعد ومر فى طريقه بسيدة ، ورفعت اليه سيدة عينيها الكبيرتين كعيون البقر وهى تضرب السجادة بطرف القطعة المبتلة .

وقالت ليلى :

ـ عايزة أقول لك حاجة قبل ما تنزل ياعصام .

ولبس عصام الجاكتة وهو يقول :

ـ فيه ايه ياليلى ؟

وأطبقت ليلى شفتيها وأشارت بوجهها فى اتجاه سيده اشـــارة يفهم منها أنها لاتستطيع أن تتكلم أمامها ، ووقفا ينتظران انتهاء سيدة من عملها ، وزالت آثار القهوة من السجادة تماما وسيدة مازالت تركع مكانها تضرب الأرض بطرف الخرقة المبتلة .

وقالت ليلى فى رقة :

ـ مش خلاص يا سيده

ورفعت سيدة وجهها المنتفخ الى ليلى وضمت شفتيها المكتزتين ولم

تقل شيئا ، واستمرت تضرب السجاد بطرف القطعة المبتلة .

وضايقت الحركة المتكررة عصام وصاح فى حدة :

- ياللا ، خلصينا .

ورفعت اليه سيدة عينيها السوداوين الكبيرتين الجريئتين وهى مازالت فى جلستها وقامت فى تكاسل وهى تقول :

- يوه ياسى عصام ، يعني أسيب السجاده وسخه ولا ايه ؟

وتنفست ليلى فى ارتياح وسيده تكاد تخرج من الباب ولكنها عادت بقامتها المديدة المليئة الى داخل الحجرة وأخذت القدح فى بطء من على المكتب وخرجت من الحجرة تهز ردفيها فى تثاقل ، وعلى فمها نصف ابتسامة عائمة لا توجهها الى أحد وكأنها تبتسم من شيء خطر ببالها .. شيء سرى وخاص وهام ، شيء يعطيها الشعور بالأهمية .

وقالت ليلى :

- عصام ..

واقترب منها عصام فى خطوات سريعة وأمسك بيدها وانحنى يقبلها فى رقة متناهية قبلات قصيرة سريعة لاتكاد تمسها وكأنه يرضيها وكأنه يصالحها بعد أن أساء اليها .

وقالت ليلى :

- عصام ، عشان خاطرى خليك لطيف مع محمود ، لطيف خالص وأشاحت بنظرها بعيدا وهى تقول :

- محمود متغير .. متغير خالص ياعصام .

وقال عصام :

- أنا عارف هو حساس ، حساس زيادة عن اللزوم

ووضعت ليلى يدها على كتفه .

- تمام يا عصام

- فاكرة قد أيه كان متألم أيام مظاهرة ٤٦ ؟ لكن انت كنت‌صغيره خالص ياحبيبتى .

وقالت ليلى فى صوت هامس وهى تستعيد فى ذاكرتها تلك الايام

– برضه فاكره يا عصام ٠٠ فاكره كل حاجه زى ما تكون حصلت النهارده ٠

وأمسكت بيده ومشيا معا فى اتجاه الباب الخارجى وقالت :

– بلاش أنزل وياك أحسن ٠٠ حادخل أنا لجميله ، أنا مش عايزه محمود يفهم انى أنا اللى خليتك تنزل له ٠

وشدت ليلى على يد عصام وهى تبتسم وانحرفت الى غرفة جميلة ، وفتحت الباب ٠

* * *

كانت جميلة تولى ظهرها للباب وهى فى ثوب أبيض ٠

ووقفت ليلى لحظة مبهوتة ، خيل اليها أن الثوب هو ثوبها الابيض الجميل ، نفس القماش من الشيفون الابيض ونفس الطيات المتراكمة كجناحى طائر ابيض ٠٠ ثم استقامت جميلة واستدارت وواجهتها ٠

وهزت ليلى رأسها متعجبة من سخف الفكرة التى خطرت لها ٠٠ كان ثوب جميلة يختلف تمام الاختلاف عن ثوبها ، فالشيفون الأبيض من الخلف ليس بظهر الثوب كما ظنت ، انه مجرد وشاح فضفاض يحيط بالثوب الأصلى من الخلف والثوب الأصلى من الستان الأبيض المطرز باللؤلؤ الصناعى وبالترتر وبالخرز ٠

وقالت جميلة فى انتصار :

– ايه رأيك ؟

– جنان ٠٠ حاجه حلوه خالص ٠٠ ولا الأميرات ٠

ولكن كان فى نفسها بعض الضيق وكأن جميلة قد أخذت منها شيئا يخصها هى ٠٠ ثوبها الأبيض الجميل ٠

وقالت جميلة وهى تتقدم نحو المرآة :

– ولسه كمـــان ٠٠ لسه كاسمه مش بأين خالص ، السوسته مفتوحه ٠

وجلست ليلى على المقعد المواجه للمرآة وقالت :

– البت سيده بتاعتك دى رزلة قوى ، أنا عايزه أكلم عصـــام على محمود ، وهي واقفه ملطوعه ، نقول لها اخرجى ماتخرجش ٠

وقالت جميلة وهى تمد يدها تقفل السوستة :

– أصلها واخده على عصام ، صاحبته ياستى !

وانقفلت السوستة في صوت عنيف قاطع ٠

وقالت ليلى :

– صاحبته ؟! صاحبته ازاى ؟!

ونظرت جميلة الى ليلى نظرة جانبية ومدت يدها تسوى فتحة الصدر ثم شدت قامتها فى استعلاء وقالت :

– هو انت كده ياليلى ماتفهميش حاجه أبدا ؟ كل شاب فى السن دى ، ومش متجوز ضرورى يعمل كده ، والا مايبقاش راجل ٠٠

ومدت جميلة يديها وجمعت شعرها من أسفل وكومته الى أعلى ٠٠ ومالت بوجهها الى جانب تدرس أثر ذلك فى صورتها العامة ثم استدارت لليلى وهى تقول :

– ايه رأيك فى التسريحة دى يا ليلى ؟

وعند مارأت وجه ليلى الذاهل وفمها المفتوح فى بلاهـــة انفجرت ضاحكة ٠٠

– عارفه ياليلى ؟ عارفه انت بتفكرينى بأيه ؟ بتفكرينى بنفس ليلة ماشفتهم فى المطبخ ٠٠ ليلة الخطوبه قمت بالليل بمغص فظيع ، رحت المطبخ أعمل قربه سخنه ونورت النور وطفيته على طول ٠٠ وبلمت زيك كده ٠ وفضلت مبلمه يومين ، لغاية ماما مافهمتنى كل حاجه ٠

وجلست جميلة الى جانب ليلى وغزا عينيها تعبير حزين وهى تقول

– عارفه ياليلى ؟ عارفه انت بتفكرينى بأيه ؟ بتفكرينى بنفس ليلة

ومسحت ليلى وجهها بيدها وقامت واقفه ٠

وقالت جميلة :

ـ على فين ؟

وبلا تعبير قالت ليلى :

ـ نازله ••

وقامت جميلة واقفة وقالت في استنكار :

ـ اخص عليك يا ليلى ! يظهر الفستان مش عاجبك ! ليه يا ليلى ؟ دا جميل خالص ، دا الجونله لوحدها أخدت سبع أمتار •• شوفي ••

وسارت جميلة الى وسط الحجرة ورمت برأسها الى الخلف في كبرياء وثبتت كعب الحذاء في الارض ، ودارت حول نفسها دورات متواصلة متعددة والثوب يتطاير حولها في دائرة تتسع أكثر وأكثر •

ودارت الحجرة أمام عيني ليلى وخيل اليها أن السقف قد حل محل الأرض وأن الحوائط تتمايل بعضها على بعض •

وتوقفت جميلة وقالت وأنفاسها متقطعة :

ـ ايه رأيك ؟ بشرفك عمرك شفتي فستان زي ده ؟! ولا حتى في السينما ؟

وتمتمت ليلى دون أن تنظر الى الثوب •

ـ عريان •• عريان ••

ـ الصدر يعني ؟

ـ كله •• كله عريان •

ومدت جميلة يدها الى « بوليرو » مكمل للفستان ولبسته • واستدارت وهي تبتسم ابتسامة خفيفة •

ـ كده يعجبك ياستي الشيخه ؟

وهزت ليلى رأسها في يأس وقالت وهي تكاد تهمس :

ـ مافيش فايده ، عريان من جوه ، عريان ياجميله ، عريان •

ونظرت جميلة الى ليلى فى دهشة لحظة ثم صرخت ٠٠ كان وجه ليلى شاحبا ، وكانت شفتاها مرتجفتين وعيناها تائهتين بعيدا وكأنها غائبة عن الوعى ، ويداها لاتكفان عن الحركة ، تضمان دون جدوى فتحة الصدر فى ثوبها ، ثم تنزلان الى طرف الثوب تشدانه ، وكأنها تريد أن تصل به الى أطراف أصابعها ، ثم ترتفع اليدان الى فتحة الصدر من جديد ٠٠

ــ مالك ياليلى ؟

وهزت ليلى رأسها وكأنها تفيق من حلم ،وانهارت جالسة فى المقعد المجاور ٠

ــ مالك يا ليلى ، فيه ايه ؟ طمنينى ٠

ــ مافيش ٠

ــ أنا حاانادى ماما ٠

وقالت ليلى بصوت هامس :

ــ لأ ماتناديش حد ، أصل ٠٠ أصل عندى مغص ٠

ــ أعملك شاى ؟

وهزت ليلى رأسها علامة على الموافقة ٠

وخرجت جميلة ، وسمعتها ليلى تأمر سيدة الخادمة باعداد الشاى ثم تتجه الى حجرة أمها ٠

* * * *

وهبت ليلى واقفة ٠٠ وبدت النظرة التائهة فى عينيها من جديد ومشت فى احتراس شديد على أطراف أصابعها حتى باب الغرفة ، وأرهفت السمع ثم تقدمت وعبرت الصالة وفتحت الباب الخارجى ، وخرجت ووضعت يدها على سور السلم وهمت بالنزول ولكنها وقفت متسمرة ٠٠ كان أزيز المصعد يطن فى أذنيها وفى رأسها وكأن جسمها بأكمله يردده ، ومر بها المصعد وهو ينزل من أعلى الى أسفل ، ثم رأت حباله تنجذب الى أسفل تدريجيا ٠ ومالت برأسها على السور وتعلقت عيناها بالحبال وهى تنجذب الى أسفل ، وتدلت بنصفها الأعلى فى الفراغ الذى تركه المصعد والحبال

تجذبها الى أسفل ، وركزت يديها ورفعت جزءا آخر من جسمها فى الفراغ حتى أصبح جسمها أفقيا على السور والحبال تجذبها الى أسفل ٠٠ الى أسفل ٠٠ وارتخت قبضتها والحبال تجذبها الى أسفل ٠٠

وصرخت جميلة :

ـ ليلى ! ٠٠

وامتدت يد تمسك بظهرها وتشدها الى أسفل ، والتفتت ليلى ووجدت نفسها على السلم وجها لوجه أمام جميلة ٠

ـ ليلى ٠٠ بتعملى ايه ؟ انت مجنونه ؟

ووقفت ليلى مكانها والنظرة التائهة فى عينيها ثم اجتاح جسمها خوف بارد كالثلج وأدركت فجأة أنها نجت بالكاد من الموت وقالت فى صوت مختنق ٠

ـ جميلة ٠٠ انزلى معايا ٠

وبدأت ليلى تنزل السلم ولحقت بها جميلة ، واستمرت ليلى تنزل الى أسفل وتجاوزت باب شقتهم دون أن تدرى ونبهتها جميلة فاستدارت وصعدت بخطوات متثاقلة ٠٠ حجرتها ؟٠٠ ولا حجرتها ٠٠ انها تريد أن تنزل الى أسفل٠٠ الى أسفل حيث لاتشعر ولا تفكر ٠

* * * *

ودخلت ليلى البيت ٠٠ولمحت حجرة الجلوس مفتوحة وسرت رجفةالى جسمها ٠٠ عصام ٠٠عصام مع محمود ، وجرت الى غرفتها وكأن انسانا يطاردها ، وعند باب الحجرة وقفت مسمرة ، كان محمود يناديها بالحاح وجميلة تشدها ٠٠ وسحبتها جميلة الى حجرة الاستقبال وكأنها مسلوبة الارادة ٠٠

كان محمود يجلس فى أول مقعد على اليمين بالقرب من الباب ٠ وتوقفت ليلى تجاهه وكأنها لا ترى فى الغرفة سواه ٠ ونهض عصام من مكانه وسار فى اتجاه جميلة وقال وهو يشير الى ثوبها مستنكرا :

ـ ايه ده اللى انت لابساه ٠٠ ؟

وقال محمود لليلى :

ـ البلد بتتحرق ٠

وقالت ليلى دون أن يبدو على وجهها أى تغيير وكأنها تقرر حقيقة ثابتة :

— أيوه بتتحرق ٠٠ بتتحرق ٠

ولكن كان هناك وجه ينظر في وجهها ويبتسم ابتسامة واسعة ٠٠ ابتسامة كاملة ٠٠ إبتسامة بلا حدود ، وجه غريب ، وجه لغريب ٠

وصرخت ليلى وكأنها أدركت اذ ذاك فقط مايعنيه محمود وكأنها عادت لوعيها اذ ذاك فقط ٠

— بتتحرق ؟! بتتحرق ازاى ؟

ورأى محمود ابتسامة حسين وهو يقف منتظرا وقال :

— أختى ليلى و ٠٠٠

ونظر الى جميلة فى دهشة وهى فى ثوبها الأبيض ثم أكمل كلامه

— وبنت خالتى جميله ٠

وبقيت يد حسين معلقة فى الهواء لحظة ، ثم تلقفتها يد جميلة . وهمست جميلة فى أذن عصام بشيء عاد على أثره واجما الى الأريكة التى تواجه محمود وتبعته جميلة ٠

ولم ترخ ليلى عينيها عن محمود وتمتمت وشفتاها ترتجفان :

— ازاى يامحمود ؟ ازاى ٠٠٠

وبدا وجه محمود جامدا وهو ينظر بعيدا ، وينتزع صوته انتزاعا وكانه يجد صعوبة فى الكلام ٠

— الناس، الناس حرقوا السينمات وشارع فؤاد ، والبلد كلها نار ودخان ٠ ٠ ٠

وقالت ليلى بصوت باك :

— الناس يحرقوا البلد ؟ ! ليه ؟ ٠٠ ليه نحرق بلدنا ؟

ولم يجب محمود ، كز على شفته السفلى وأغلق عينيه وتركها غريبة وحيدة ، وتلفتت ليلى تنظر حولها ، كانت جميلة تجلس على طرف الأريكة فى احتراس حتى لايتكسر ثوبها وكان عصام منكمشا فى الطرف

الثانى من الأريكة ، وتوقفت عيناها عند حسين ، وابتسم حسين فى وجهها ابتسامته الواسعة ٠

- الواقع ان الناس مظلومين ، الناس خرجت عشان تحتج على المذبحه بتاعة الاسماعيليه ، والسراى والعناصر الرجعية انتهزوا الفرصة عشان يطعنوا الحركه الوطنيه ٠

وأخرج محمود سيجارة بيد مرتعشة وقال :

- الخيانه مابتدتش النهاردة بس ٠٠ الخيانه ابتدت من أول يوم، وآدى النهايه ، الحريق دا هو النهايه ، نهاية معركة القنال ٠

وانهارت ليلى على مقعد مقابل للمرآة الكبيرة التى تزين حجـــرة الجلوس ، وغامت عيناها بالدموع ٠ وعلى صفحة المرآة تكسرت أشعة الشمس الغاربة تاركة شعلة من الاحمرار ، وركزت ليلى عينيها على المرآة ونار ٠٠ ألسنة من النار تندلع فى المرآة أمام عينيها الغائمتين وتربط بينها وبين المرآة وكأنها مشدودة اليها بقوة سحرية ٠٠ وأصوات تطن فى أذنيها ، تطن كمواقد الغاز ٠

وقال حسين :

- البلد اللى فيها أبطال زى العساكر بتوع الاسماعيليه مش ممكن تكون دى نهايتها ٠٠ كانوا معزولين ، وكانوا عارفين ان البلد تخلت عنهم وكانوا يقدروا يسلموا ٠٠ يرفعوا منديل أبيض أو قميص ٠٠ ومع كده ماسلموش ، ماتوا على رجليهم ٠

ومسح محمود وجهه بيده وقال :

- وايه الفايده ؟ ايه الفايده ؟ دم وراح هدر

ومدت ليلى يدها تشد ياقة ثوبها بعيدا عن عنقها وعينـــاها مشدودتان الى المرآة ٠٠ دم ونار وهى تتطوح بين الدم والنار ، تتخبط وتسعى الى الخلاص ٠٠ والدم يحيطها من كل جانب والنار ٠٠ وجميلة هادئة كالتمثال بثوبها الأبيض ٠٠ وكلمة الخيانة تطن فى أذنيهـا ، ونار تطوق البلد وتخنقها ٠٠ تخنقها ٠

وانتفضت ليلى واقفة ، واندفعت تجرى من الحجرة ٠٠ ومن البيت

الى السلم ·· الى أعلى ·· الى النار ·· يجب أن ترى النار ·· النار التى تطوق البلد ، التى تخنق البلد ، يجب أن ترى النار ·

وقامت جميلة واقفة بدورها وهى تصرخ صرخات هستيرية وتقول

ـ السلم ·· السلم ·· السلم ·

وتطلب الأمر بعض الوقت حتى تتمالك جميلة نفسها وتخبرهم بالخطورة التى تتهدد ليلى ، واندفع محمود يجرى على السلم وتبعه عصام وخلفهما جميلة ·

ووقف حسين على العتبة ثم لمح المصعد صاعدا فأوقفه ودخل وأوصد خلفه الباب ·

* * * *

وظلت ليلى تقفز السلم وقد دبت فيها قوة عجيبة ، قوة تدفع بها وتشدها الى النار · ولم تر حسين وهى تدخل السطح ، اندفعت تجرى حتى انهارت الى جانب السور ·· كانت النار قد بدأت تحبو ولم تعد تظهر الا فى جهات متفرقة ضعيفة مائلة الى البهتان والزوال ، ولكن الدخان كان يجثم فى كتل ضخمة ، كتل بشعة كريهة على السماء ، وعلى الأرض وعلى الصدر تكاد تسحقه ·

ولمس حسين ذراع ليلى فى رقة وانتفضت تنظر اليه فى خوف ·

كان يقف الى جانبها يعطى ظهره الى السور ويستند بيديه عليه ·

وابتسم فى وجهها ابتسامته الكاملة الواسعة ولانت ملامحها وعادت تنظر الى كتل الدخان ·

وقال حسين فى صوت رقيق :

ـ مالك ؟ ··

ورفعت اليه ليلى عينين ميتتين، وعادت تنظر من جديد الى الدخان الأسود الكثيف ·

وقال حسين بصوت أرق :

ـ مالك ياليلى ؟

وتنهدت ليلى وقالت وهى تنظر الى كتل الدخان البشعة الكريهـــة .

- ليه كل حاجه كويسه تنتهى نهايه وحشه .

وجلس حسين على السور وقال وقد أحنى رأسه تجاهها :

- دى مش النهاية .. النهاية احنا اللى نعملها ، أنا وانت ومحمود وكل الناس اللى بيحبوا مصر .

وضحكت ليلى ضحكة قصيرة حادة أشبه بالصرخة وأشـــارت الى صدرها وقالت :

- أنا .. ؟

وانقلب وجهها واصطبغ بالكراهية والاحتقار ، وكأنها تتحدث عن عدو لدود ، وقامت واقفة وسارت فى تثاقل فى اتجاه باب السطح ، ولحق بها حسين ومد يده يلمس كتفها ، وقال وصـــــوته يرتجف بالانفعال :

- دى مش النهاية ، ما تصدقيش محمود ، صدقينى أنا .

وأدارها نحوه ورفع اليها وجهه مليئا بالرجاء وبالحنان وهو يقول:

- صدقينى أنا ..

وكأن كيانه بأكمله يتوقف على تصديقها له .

والتقطت عيونهما لحظة ، وفى عينيه رأت نظرة واثقة ، نظرة مباشرة صريحة طيبـــة نفاذة ، نظرة تعدها بغد أجمل ، ولانت ملامحها .. ثم مالت برأسها تتسمع الى خطى وأصوات تقترب من السطح وتبينت صوت عصام يناديها ، ونظرت الى حسين لحظة ثم قالت بصوت ميت :

- أنا مابصدقش حد .

واستدارت من جديد تسير فى اتجاه باب الســـطح ، وتوقفت متسمرة فى مكانها عندما اندفع من الباب عصام يتبعه محمود وجميلة .

وجرى عصام اليها وامتدت يداه تتحسسانها ، وتنتقلان فى سرعة وفى يأس وفى جنون من وجهها الى كتفيها وهـــو لايكف عن الهمس باسمها . وشعرت ليلى أن شيئا ما قد مات فيها ومدت يديها فى هدوء وأزاحت يدى عصام عنها ، وتركته خلفها وسارت فى اتجاه محمود الذى

وقف متسمرا متعجبا من سلوك عصام ، وتوقفت أمامه وقالت فيصوت ميت :

ـ يالللا بينا •

وتقدمت الى الباب فى خطوات متثاقلة ، ومرت بجميلة وهى تقف مولية ظهرها الى السماء ، مسمرة كالتمثال فى ثوبها الأبيض ، وكتل الدخان الكثيفة الكريهة تحيط بها كالاطار •

* * * *

وفى مساء ذلك اليوم اعتقل محمود فيمن اعتقل من الفدائيين ،وبقى فى المعتقل ستة شهور •

وطيلة الستة الشهور كان أبو ليلى يردد نفس الكلمات ، كلمات لا تتغير : أنا كنت عارف ، كنت عارف ان دى النهاية •

* * * *

وتركز كيان ليلى فى هذه الفترة فيمحاولة لاخفاء ما يعتمل فى نفسها عن الآخرين ، واستمرت تتكلم وتضحك وتتصرف كماعتادت أن تتصرف وتعود الى حجرتها آخر النهار مرهقة وكأنها ممثلة أطالت الوقوف على خشبة المسرح ، وعندما تتمدد على السرير تشعر بألم فى جسمها بأكمله ألم لا تستطيع أن تحدد موضعه وكأنها قد ضربت علقة •• لا ليس هذا تماما ، ان أمها تصف مثل هذا التعب الذى لايمكن تحديد موضعه وصفا أدق حين تقول : «جسمى مهزوم» نعم هو هذا ، جسمها مهزوم وليس جسمها فقط ، كل شىء فيها مهزوم ، كما لو كانت قد رفعت حملا ثقيلا أكبر مما تتحمله طاقتها فانكسر عمودها الفقرى •

الم يكن هذا مافعلته ؟ لقد تحدت أباها وتحدت أمها وتحدت تقاليدهم وأصولهم وأحبت ، أرادت أن تخرج على دنياهم الضيقة الىدنيا حية عريضة مليئة ، أرادت أن تبنى وعصام دنيا من نور ، كل مافيها شفاف •• كل مافيها أصيل ، دنيا غير الدنيا •• دنيا الحب •• دنيا الحق ، دنيا الجمال •• وماذا كانت النتيجة ؟ قهوةمسكوبةعلى البساط ومطبخ مظلم ، وجسم مهزوم وطين ، طين الدنيا التى هربت منها •

ومحمود ؟ محمود هو الآخر تحداهم وخرج ، انطلق محلقا ضاحكا مزهوا الىدنيا••دنيا الحبوالحق والجمال،وعاد منكمشا مطويا مكسور الجناح والقذى ملء عينيه والطين ، الطين الذى هرب منه ، ونار تطوق

البلد ، ودخان أسود كريه ، وسجن مظلم ، ودنيا أضيق من الدنياالتى انطلق منها محلقا ضاحكا مزهوا .. لا .. ان الزهو ليس من نصيب أخيها ولا من نصيبها .. الزهو موقوف على جميلة .

* * * *

فى زهو نظرت جميلة حولها وقالت :

ـ صحيح أودة السفرة عاجباك ياليلى ؟

ولم تنتظر جميلة الاجابة ، كانت تعرف أن ليلى لم تر مثل هذه الحجرة فى حياتها ، وان خالتها تنظر حولها فى تعجب كالريفية التى تزور القاهرة لأول مرة ، وأن زوج خالتها يخفى بالصمت شعوره بالحرج والارتباك .

ومن النافذة الزجاجية الواسعة تدفقت أشعة الشمس تشعل احمرار السجاد وتتألق على البوفيه الماهوجنى المرسوم بالماركترى ، والخضرة تنبثق من الحديقة من وراء الزجاج تكسر من حدة احمرار السجاد .

وأشارت جميلة وهى تجلس على رأس المائدة الى السفرجى بيدها اشارة خفيفة فى بساطة وبشكل طبيعى وكأنها تعودت أن تفعل ذلك طيلة حياتها ، وتقدم السفرجى يدور حول المائدة وجميلة تتحدث مسترخية مبتسمة منطلقة ويدها تعبث بحلية ماسيه فى عنقها ، وانحنى السفرجى الى جانب ليلى بطبق من الكاساتا على شكل هرم مغطى بالفواكه المحفوظة ، ونظر اليها عصام بعينيه الرائقتين وابتسم فى وجهها وقال

ـ خدى حتة كمان ياليلى ، انت طول عمرك بتحبى الجيلاتى .

وجلس يأكل الكاساتا فى تلذذ وقد استرخى فى المقعد .. لم يعد يشعر بالحرج تجاهها ، فى أول الأمر عندما قطعت علاقتها به ، وقبل أن يفهم السبب كان يشعر بالحرج ، وعندما عرف أنها عرفت زال الحرج وما الداعى الى الحرج ؟ ان ضميره نقى ، نظيف ، شفاف .. كأكواب الكريستال التى تتألق على المائدة ؟ لقد فعل مااعتقد أنه الواجب عليه تجاهها ، لقد أنقذها من شىء أهون منه الموت ، ولم يكن هناك طريق آخر ولو لم يفعل ما فعل لتسبب فى ضررها ، وأهون عليه أن يموت من أن يضرها وهو يحبها وسيظل دائما يحبها .

والمؤلم أنه كان يتصرف كما لوكان مايزال يحبها حقا! ولمتستطع

هى أبدا أن تفهم كيف يتأتى له أن يحبها ؟ كيف يستطيع أن يحب امرأة بروحه ، وأخرى بجسده ؟! والأخرى ؟ ألم يخطر فى باله أبدا أنها انسانة بدورها وأنه قد أضرها فى جسدها وفى عواطفها وفى انسانيتها؟ أبدا ·· انه مطمئن مرتاح وعلى وجهه تبدو نظرة جديدة حزينة ، نظرة الشهيد ، شهيد الواجب ·

نعم عصام مطمئن مرتاح ، وجميلة أكثر من مطمئنة ، انها مزهوة منتصرة ، لقد تقبلت الحياة كما هى ببساطة ، بلا تعقيد وبلا فلسفة وسمعت كلام أمها ومشت على الأصول ، وأنعمت عليها الحياة بالرضا وبالاطمئنان ·

وهى كانت فى يوم من الأيام تنظر الى جميلة فى تعال ، كانت تحسب نفسها أقوى من جميلة ومن خالتها ومن أبيها ومن أصولهم وتقاليدهم ، وكانت تضحك من أمها حين تقول : « اللى يعرف الأصول مايتعبش» ·

نعم ، عاشت فترة من الزمن فى ظل هذا الوهم السخيف ، وهى فى الحقيقة تافهة ومغرورة وحقيرة ، ممسحة كالممسحة التى يمسح فيها الناس أقدامهم ·

— ١٠ —

وفى صباح ٢٣ يوليه قامت ثورة الجيش المصرى وهزت الأعماق فرحة معتدة مزهوة ، ارتجفت على الشفاه والتمعت فى الدموع وغصت بها الحلوق ، وخرج الناس من بيوتهم يضعون أيديهم فى أيدى الضباط وعلى أيديهم قلوبهم ·

وجلس محمد افندى سليمان فى بيته الى جانب الراديو يستمع المرة بعد المرة الى البيان الذى أصدرته قيادة الثورة ، وقد شله الخوف من أن يحدث شيء يفسد الثورة ويحول دون خروج محمود من المعتقل ، لم يصدق أذنيه فى بادىء الأمر ، لم يصدق أن رجالا مثله ، مصريين مثله استطاعوا أن يتحدوا كل السلطات وأن يقلبوا الحكومة ، وحينما أدرك أن الأمر حقيقة حرفته موجة من الاعتزاز بنفسه وبمصريته ·

ثم ارتجف فى جسده خوف ممض تزايد حين سمع عن أتجاه الثورة

الى خلع الملك ‥ الأرض تدور لم تتوقف يوما عن الدوران ، والملك يحكم والمصريون يخضعون ، فكيف يتأتى لهؤلاء الرجال أن يغيروا الأوضاع ٠

واستمع محمد افندى سليمان الى خبر طرد الملك من مصر وهويجلس الى جانب الراديو وتحجرت الدموع فى عينيه فى رهبة واعتزاز وهو يرى الصنم الأول يتحطم أمام عينيه ٠

* * * *

وفى نفس اللحظة لم تكن ليلى فى البيت، كانت تمشى فى شارع القصر العينى ولمحت عاملا يرتدى بذلته الزرقاء ،يركب دراجة ويتقدم فى اتجاهها من بعيد وهو يلوح بيديه ، ويلتفت يمنة ويسرة يقول للناس شيئا والناس تتجمع في كتل صغيرة تتحدث ، والعامل يتقدم ويترك خلفه كتلا تتجمع ، وعندما أصبح العامل على مبعدة أمتار من ليلى توقف ونظر اليها ووجهه الأسمر يضحك وقال وهو يلوح بيده : «الملك خرج» ثم استدار يبلغ الخبر لصبى حاف يجرى فى اتجاهه ، وسرت الرجفة فى جسم ليلى ، واندفعت تجرى فى اتجاه العامل ، وخرج الناس من حوانيتهم ‥ وتجمعوا حوله يستوضحونه ، والعامل يكرر ووجهه يضحك « الملك خرج » ومدت ليلى يدها اليه ، وشد العامل على يدها فى بساطة وقوة وقال :

ـ مبروك ‥

ـ مبروك ‥ مبروك ‥ مبروك ٠

وأخذ الناس يرددون كلمة مبروك وكأنهم لايستطيعون النطق بغيرها ثم زالت الفواصل التى تفصل بينهم وأخذوا يربتون على أكتاف بعضهم البعض وهم يضحكون ويتندرون ، ووقفت ليلى لحظة بينهم وهى تشعر أنها منهم وأنهم منها ، وأنهم جميعا ساهموا بطريقة ما في طرد الملك ، وغزاها شعور بالارتياح وبالانتماء وبالاعتداد ، وودت لو طالت وقفتها بين الناس ولكن وقفتها لم تطل ، اعتدل العامل فى جلسته على الدراجة ايذانا بالتقدم وأراد الناس أن يستوقفوه ولكنه لم يتوقف ، تقدم وهو يلوح بيديه ويضحك ، يتصل بمزيد من الناس ويخبر مزيدا من الناس أن الملك قد طرد ، ويتقدم ، يتصل ويتصل ، وكأن هذا الاتصال يشبع فى نفسه رغبة جامحة ‥ رغبة فى أن يتصل بأكبر عدد من الناس فى هذه اللحظة بالذات ٠

***

اهتزت أبواب سجن الأجانب حيث اعتقل جانب من الفدائيين تحت الطرقات القوية ،وكأنها طرقة رجل واحد ، والطرق يختلط بالهتاف: تحيا مصر ، تحيا الثورة ، يسقط الاستعمار .

وكان من الممكن أن يكسر الشبان الأبواب فى هذه اللحظة ، ولكن لم يكن هناك ما يدعو لذلك ، كانوا يدركون أن أبواب السجن فى حكم المفتوحة ، وأنهم فى حكم الأحرار وأن المسألة مسألة أيام .

ولكن لم يطق الشبان أن تفصلهم الأبواب فى هذهاللحظة ،فىهذه اللحظة بالذات التى انتظروها عمرهم ، وعاشوا لها عمرهم ، أرادوا أن يتصلوا ببعضهم البعض وأن يتحسسوا بعضهم البعض واهتز السجن بالطرق والهتاف .

ولم يكن الوقت وقت طابور ،ولكن مأمور السجن أصدر أمرهبفتح الأبواب وتعانق المساجين والسجانون واختلطت الضحكات بالدموع وتمنطق معتقل بحزام سجان ورقص . والتفت حوله مجموعة تصفق له على الوحدة ، وتفرق المعتقلون فى مجموعات تتحدث وتضحك ، ثم ارتفع صوت يغنى :

بلادى بلادى فداك دمى
وهبت حياتى فدا فاسلمى

وساد الصمت لحظة ،ثم انضم الى الصوت أصوات ،والى الأصوات أصوات ، واعتدل الشبان فى وقفتهم واتسعت الحلقة حتى استوعبت الجميع ، واتصلت الأصوات كأنها صوت رجل واحد .. صوت قوى مزغرد يصل بين الناس فى طول مصر وعرضها

* * * *

وقال حسين لمحمود وهما يتمشيان فى الحديقة الخلفية لسجن الأجانب .

- أنا مش قلت لك ؟ عشان تبقى تصدقنى .

وابتسم محمود وهو يهز رأسه فى تعجب !

- لكن مين كان يتصور ؟! مين كان يتصور أن الأمور حاتتطور بالشكل ده ؟ وبالسرعة دى ؟

واقترب الصديقان من أريكة خشبية وانهار محمود جالسا وهو يتمطى ، وشعر اذ ذاك براحة عميقة تدب الى جسمه ، وكأن مسئولية ضخمة قد أنزاحت فجأة من على كتفيه وكأنه قد أسلمها لغيره ونفض يده منها وآن له أن يتمطى في ارتياح .

وقال حسين :

- بتفكر في ايه يا محمود ؟

ومد محمود يدا متراخية تحك ذقنه الطويلة وقال :

- في حلقه كويسه ، وحمام سخن وفرش نضيف .

وضحك حسين ضحكة قصيرة .

- يابختك ياعم ، حاتلاقي بيت متوضب مستنيك ، وأمك واختك على فكرة أختك لطيفه جدا .

ونظر اليه محمود وقال :

- انت مابتتجوزش ليه ياحسين ؟ بدل ماانت عايش وحدك كده .

واستغرق حسين في الضحك ثم رفع رأسه وقال :

- أنا مفلس ياأستاذ .

- سنتين مهندس في شركة محترمة ومفلس! مش معقول .. كنت بتاخد كام ؟

- ٣٥ جنيه .

- وما حوشتش حاجه ؟

- حوشت ..

- وبعدين ؟ ..

وابتسم حسين وهو يهز كتفه :

- جوزت أختي وخلصت منها .

ومال محمود على حسين ووضع يده على فخده وقال :

– لكن انت مين زيك ياعم ! مش يمكن تأخد البعثة اللى اختـــك قلمت لك فيها ؟

وقال حسين :

– أنا مش عايز أسافر دلوقت ٠

واعتدل محمود فى جلسته وقال :

– وبعدين معاك يا حسين ، البعثة الأولانية اعتذرت عنها وكان اعتذارك مفهوم ، كان فيه ظروف ، وماكانش الواحد يقدر يسيب البلد فى الظروف دى ، ودلوقت الحاله مافيش أحسن من كده ، يبقى أيه ؟

– شهر ولا شهرين بس لما الحالة تستقر ، مش يمكن يحتاجوا لنا

– هم مين ؟

– الثورة ٠

وقال محمود فى سخرية :

– ليه ؟ ٠٠ حايعينوك وزير أشغال ولا ايه ؟

وبدأ حسين يضحك ، ثم توقف قبل أن يكمل ضحكته ومال فى اتجاه محمود وقال فى صوت جاد :

– احنا ضرورى نكون صاحيين يامحمود ، الانجليز مش حايسكتوا مش ممكن حايشوفوا البلد بتفلت من ايدهم بالشكل ده ويسكتوا ٠

وقال محمود فى استرخاء وهو يحك ذقنه الطويلة بيده ٠

– على العموم ياعم احنا مسئوليتنا انتهت لغاية هنا ، الجيش النهاردة هو اللى مسئول ٠

وسكت حسين قليلا وهو ينظر الى الأفق ثم قال فى صوت خافت وكأنه يفكر :

– كلنا مسئولين ، طول الواحد ماهو عايش ، مسئوليته تجاه بلدة مابتنتهيش ٠

وقام محمود واقفا وهو يقول فى غضب :

– طيب خليك راقد بقى ، اللى زيك مايستحقش السفر ٠

واحمر وجه حسين للاهانة المفاجئة ، وأوشك أن يقول كلاما لاذعا لمحمود ، ولكنه كز على شفته ولم يتكلم ، كان يحب محمود ،وكان يدرك مدى التغير الذى طرأ عليه فى فترة الاعتقال ، لقد رسم محمود صورة وردية للحياة وحين واجهته بوجهها العارى انهار ، واجه الموت بشجاعة ولم يستطع أن يواجه الخيانة ، رأى الخيانة فى القناة وفى حريق القاهرة وفى حركة الاعتقالات ، وانكمش ، أخافته الدنيا ٠

واستدار محمود وقال :

– أنا آسف ياحسين ٠

وتطلع حسين فى وجه محمود الذى شابه النحول وفى عينيه اللتين احتلتهما نظرة حيرى ، نظرة طفل خدع خديعة كبيرة ، وابتسم ونهض واقفا وأحاطه بذراعه وهما يسيران فى اتجاه البهو الداخلى ٠

وأراد حسين أن يقول شيئا يسرى به عن محمود ، لقد أدرك أنه قد طعنه فى الموضع الحساس فى وقت غير مناسب ، لقد ذكره بالمسئولية فى وقت ظن فيه أنه تخلص نهائيا من المسئولية ٠

فقد جاءت الثورة كنجدة من السماء لمحمود، نجدة رفعت عن كاهله مسئولية مواجهة الحياة بقسوتها وواقعيتها ، نجدة جعلته يؤمن أنه يستطيع أخيرا أن يقف على الشاطىء يتفرج ، بلا أدنى شعور بالتقصير ٠

وقال حسين وهو يميل على محمود ويبتسم :

– أنا وش نكد ، مش كده ؟

وخلص محمود نفسه من ذراع حسين وانفجر ضاحكا وقبل أن يكمل ضحكته أمسك حسين بذراعه وقال :

– محمود ، فيه حاجة عايز أكلمك فيها ، حاجة خاصه بى ٠

وتوقف محمود عن الضحك ورفع عينيه الى حسين وقد لمع فيهما الاهتمام :

– فيه ايه ياحسين ؟ ٠٠

وتردد حسين لحظة ، ثم اختفت الابتسامة من وجهه وسقطت يده عن ذراع محمود وتقدم الى الأمام

وقال محمود

ـ فيه ايه ياحسين ؟ ماتتكلم ياأخى ٠

وقال حسين دون أن ينظر اليه :

ـ بعدين يا محمود ٠٠ بعدين ٠٠

وانخفض صوته وهو يقول :

ـ دى مشكلتى أنا ، وأنا اللى ضرورى أحلها ٠

* * * *

تقلب حسين على الحشية المصنوعة من القش ثم استلقى على ظهره وهو يفكر ، لماذا استعمل كلمة «مشكلة» ؟ لماذا لم يستعمل مثلا كلمة «موضوع» ، أو «مسألة» بدلا من «مشكلة» ؟ ولكن أليس الحب من طرف واحد مشكلة ؟ وأنت لاتعرف حتى اذا كانت البنت التى تحبها مرتبطة بشخص آخر أو غير مرتبطة ؟ لا ، ليست مرتبطة ، كانت مرتبطة فعلا ، ولكن انتهى كل شيء ٠ كان هذا واضحا جدا من الطريقة التى أبعدت بها يدى عصام عن جسدها وكأنهما يحتويان على قدر من القذارة لاتحتمله بحال من الاحوال ، لا ٠٠ لايمكن أن يكون هذا خصاما عاديا ٠٠ انها نهاية علاقتهما ، النهاية التى يستحقها ذلك الوغد ٠٠

وابتسم حسين ابتسامة خفيفة فى الظلام ٠٠ بأى حق يشتم انسانا لايعرف الا شكله ، ولا يعرف عنه الا القليل ؟ أليس هذا جنونا ؟ ولكن أليس الموضوع كله جنونا فى جنون ؟ ماذا يعرف عن البنت التى ملأت كل دقيقة من حياته فى هذا السجن ؟ البنت التى نام على صورتها وأصبح على صورتها ، والتى ملأت قلبه بالإشراق وبحب الحياة ؟ لا شيء ٠٠ لا شيء على الاطلاق ، ومع ذلك يخيل اليه دائما أنه عرفها طوال حياته وأنه لن يعرفها أبدا أكثر مما يعرفها اليوم ، وأنه يستطيع أن يتمم الجملة التى تبدؤها وأن يسبقها فى الاتجاه الذى ترغب فى الالتفات اليه ، وهو لم يرها أكثر من نصف ساعة ! ! أهو السجن ، أهى الوحدة التى خلقت من هذه المقابلة العابرة أسطورة استوعبت كل كيانه ، أسطورة تتلاشى عندما يقع عليها ضوء النهار ، عندما يخرج من السجن ٠٠ ؟ لا أبدا لن يحدث هذا ، لقد أدرك مدى ارتباطه بها حتى قبل أن يدخل السجن ، فى نفس اللحظة التى رآها فيها ٠ آن ماحدث لايمكن أن يصدقه أحد ، لايمكن أن يخضع لمنطق ولا تفسير علمى ٠ ولكنه حدث ، وحدث له هو الذى

لايقتنع الا بكل ماهو علمي وكل ماهو منطقي .. عندما اندفعت تجاهه في المصعد كاد يصرخ ، ووقفت تعتذر وفي عقله تكونت جملة .. جملة واحدة : «انت كنت فين من زمان ؟ أنا طول عمرى بااستناك» ولسانه يقول كلاما فارغا لا صلة له بما كان يعتمل فى نفسه فى تلك اللحظة .. وتركها وخرج ، وعندما أقفلت الباب الحديدى بينها وبينه أدرك انه لايستطيع أن يتركها تذهب ، انها نصيبه وهو لايستطيع أن يتخلى عن نصيبه ، وعندما إكتشف أنها أخت محمود عرف أنه سيراها كثيرا ومع ذلك عندما ارتفع المصعد شعر أن جزءا منه يرتفع معها ، وعندما التقت عيناه بعينيها وضحكا سويا خيل اليـــــه أنها الأخرى قد أدركت أنه نصيبها ولكنه كان مخطئا ، كانت هى فى واد ، وهو فى واد آخر ..

ومد حسين ظهر يده يمسح حبات من العرق تجمعت على جبينه.. ماذا حدث لها فى هذه المدة القصيرة ؟ ماالذى جعلها تكره الحياة وتهم بالانتحار ثم تستسلم وتستدير لتواجه الناس بجسم جامد وبوجه جامد نضبت منه الحياة ؟! وحتى فى هذه المدة القصيرة لم يكن عصام معها ، لم يكد يجلس هو مع محمود حتى ظهر عصام ، بعد عشر دقائق ، بعد ربع ساعة على أكثر تقدير وجلس هادئا مطمئنا .. لا .. لا يمكن أن يكون قد حدث بينهما شيء. حقا ان عصام من النوع المتحجر من الناس، النوع الذى يتكلم بحساب ويحس بحساب وينفعل بحساب ويتألم بحساب ، نسخة مكررة من آلاف النسخ التى يراها الانسان ، لقد أدرك هو ذلك بمجرد أن رآه ، ومع ذلك فهو انسان ، ولا يمكن أن يكون قـد حدث بينه وبين ليلى شيء حطمها هذا التحطيم ، وتركه هو هادئا هـــذا الهدوء ، لا ، لابد أن الأمر كما تصوره ، لابد أن ليلى سمعت شيئـــا عن عصام ، ربما من جميله ، شيئا جعل الدنيا تنهار أمام عينيها .

وتقلب حسين فى سريره ،ثم ثنى الوسادة حتى غطت وجهه، كيف عرف ؟ كيف استطاع أن يحدد الموقف بهذه الدقة وبهذه السرعة ؟ .. لقد فهم بمجرد أن رأى وجهها المذهول حين دخلت الحجرة ، فهم حتى قبل أن يراها على السطح تبعد يدى عصام عن جسمها فى تقزز ، فهــم الموقف تماما وكأنها أسرت اليه بالتفاصيل وكأنها أخبرته بأنها كانت تحب عصام ، وان عصام فعل شيئا مريعا أسقطه من حبها ومن احترامها فهم كل ذلك بسرعة وبدقة ، وهى لم تنظر اليه ، بل لم تشــعر حتى بوجوده ، وتركت يده الممتدة اليها معلقة فى الهواء .

يارب كيف استطاع أن يفهم الموقف وهم فى الحجرة وليلى لم تلتفت حتى لعصام ؟! استنتج ! لو كانت هناك مقدمات لكان من المعقـــول أن يستنتج ولكن لم تكن هناك مقدمات ، ومع ذلك فهم وكأن الحجاب قد زال بينه وبين هذه الفتاة وكأنه استطاع أن يقرأ أفكارها ، وهى حتى لم تلتفت اليه ، لم تشعر بوجوده ! لا ٠٠ لا يمكن ٠٠ لابد أنها قد شعرت به ٠٠ لايمكن أن يشعر هو بها هذا الشعور الذى يحطم كل منطق ويتغلغل من الجسد الى الروح دون أن تبادله ولو جزء منه ، ولو واحد على ألف ٠

وسوى حسين الوســـــادة وتوسد كفيه ٠٠ عندما لوحت له من المصعد وابتسمت ، خيل اليه أن التيار قد سرى منه اليها ، وعندما همس فى أذنها فى السطح : « صدقينى » وادارت اليه وجهها والتقت عيناها بعينيه ٠٠ قال لها كل ما أراد أن يقول فى نظرة واحدة ، وفهمت هى كل ما قال ، ثم انقطع التيار ، سمعت ليلى صوت عصام وهو يناديها وعاد وجهها جامدا متحجرا وكأن الحياة قد نضبت منه ٠

وأغمض حسين عينيه وهو يحاول استبعاد صورة ليلى وهى تقف على السطح ، انه لايريد أن يتذكرها كما كانت اذ ذاك ، انه يريد أن يراها كما رآها لاول مرة ، وهما يقفان على عتبة السلم ، وفرحة الحياة تتراقص فى عينيها وفى وجهها ، لقد مضى على الحادث ستة شهور ، ولابد وانها تغلبت على الصدمة ، وعندما يراها ٠٠

وقفز حسين جالسا فى سريره ٠٠ نعم سيراها بعد أيام على الأكثر وستدخل عليه الحجرة والفرحة تتراقص فى عينيها وفى وجههـا وفى جسدها ، وستلفه هذه الاشراقة العجيبة التى كادت تجعله يصرخ فى المصعد ٠

- ١١ -

جلس حسين فى حجرة الصالون فى بيت محمد افندى ســليمان ينصت الى أم محمود ، وشعور من المرارة يتجمع فى صدره ٠ كانت هذه هى المرة الأولى التى يزور فيها بيت محمود بعد الافراج عنهما وقد مضى عليه فى البيت حوالى الســـاعة ولم تظهر ليــــلى ، ومحمود يرتدى

ملابسه استعدادا لخروجهما معا ولم يعد هناك أمل فى أن يراها اليوم بل ربما لن يراها أبدا ٠

وتخايلت على فم أم محمود ابتسامة خجول أشرق لها وجهها الطيب والتفت حسين فجأة الى باب الغرفة كأنه ينتظر شيئا ثم أشاح بوجهه بعيدا وغامت عيناه ٠

ورأى صورة امرأة سمحة بيضاء ممتلئة تخبز أمام فرن ٠ ووجها يتألق فى ضوء اللهب وطفلة صغيرة سمراء تتعلق بذيلها ٠٠ أمه فى البيت ٠٠ فى السنبلاوين ، وأخته سميحة فى ذيلها ٠٠ ولأول مرة منذ سنين طويلة يرى حسين فى وضوح صورة أمه التى فقدها وهو فى التاسعة من عمره ، كانت الصورة تبدو دائما مهزوزة ولكنه يراها الآن فى وضوح ، والبيت الصغير والباب ذوالمزلاج الخشبى الكبير وشجرة النخيل الوحيدة التى تهتز فى مهب الريح والمشلتت الساخن بلهبه من الفرن والقشدة والعسل الاسود ، وابتسامة خجول على وجه أمه ٠ ويد طرية تمسح على جبهته ، وتسوى شعره ، وقبلات خفيفة فى عينية ٠٠ قبلات سريعة خجول ٠٠

وقالت أم محمود والابتسامة الخجول تتخايل على وجهها :

ـ وانت عايش لوحدك كده يا بنى ؟

وتمتم حسين بشىء غير مسموع ٠٠ ونساء يلبسن السواد يزحمن البيت وعينا أخته الطفلة واسعتان حائرتان تنتقلان من وجه الى وجه تبحثان بلا جدوى عن وجه أمها ، وهو وقد دفن نفسه فى تل من الدريس على مبعدة من البيت ٠ وصراخ النساء يصل اليه كنباح كلاب القرية فى ليلة عاصفة ، وأبوه بعد انصراف النساء يسحبه فى قسوة غير عادية ثم ينهار باكيا عندما يصلان الى عتبة البيت الخاوى ٠٠ وامرأة غريبة أمام الفرن تقدم له المشلتت والقشدة والعسل ، وأخوة جدد غرباء ، وأب غريب ، ورحلة طويلة بين غرباء ، غرباء فى المنصورة فى الدراسة الثانوية ، وغرباء فى القاهرة فى كلية الهندسة ٠ حتى أخته سميحة أصبحت هى الأخرى غريبة ، وحياتهما معا فى القاهرة بعد موت أبيهما وكفاحهما معا لكي يكمل دراسته ، ولكى يوفر لها مصاريف الجهاز بعد أن تخرج ، أصبح مجرد ذكرى ٠ والكلمات أصبحت تتوقف على لسانيهما ٠هما يبحثان عن موضوع يطرقانه ، موضوع يهمهما سويا ٠

كل انفصل وسار فى طريق ، وأصبح غريبا عن الآخر ، ولمعة الحب فى عينيهـــا التى كانت من نصيبه أصبحت من نصيب رجل آخر .. رجل غريب ..

وهز حسين رأسه وهو ينتزع نفسه من أفكاره ، ضايقه هذا الاتجاه فى تفكيره ، واعتقد أنه اشفاق رخيص على نفسه . لقد حرم حقا حب الأم ولكنه وجد الحب فى كل مكان ذهب اليه ، وجده فى صداقات عميقة أغنت حياته وفى لفتـــات عابرة بينه وبين غرباء أصبحوا أثرها غير غرباء .. ربته خجلة لصبى أجعد الشعر فى مدرسة المنصورة ، وجملة على لسانه لم يســتطع أن يكملها ، ونظرة بينه وبين رجل عجوز أبيض الشعر فى ترام ١٢ ، وبسمة فى منطقة القناة بينه وبين عامل صـــارم الوجه وهو يمده بالطلقات بعد أن فرغ مدفعه الرشاش من طلقاته .. وبسمة خجلة على وجه هذه السيدة التى جلست أمامه ، بسمة أصبحت بعدها غير غريبة عليه .. ان الغرباء لم يكونوا قط غرباء عليه ، لقد عاش الى سن الرابعة والعشرين دون أن يشعر بهذا الاشفاق الرخيص على نفسه ، وهو يعرف تماما لماذا شابت تفكيره هذه المرارة .. أمس أمضى طول الليل يحلم باللحظة التى ستدخل فيها ليلى عليه وترفع اليه وجهها المشرق وتمد يدها وعينـــاها تضحكان وتقول بصوتهـــا القوى العميق الذى يشبه صوت الناى : أهلا وسهلا ..

- يللا بينا ..

قال محمود وهو يقف على باب الغرفة فى بذلة كحلية أنيقة .

وحاول حسين أن يخفى ضيقه بابتسامة وقال وهو يقف :

- دهده ، دا انت رسمى أوى ، ولا عريس فى الزفه .

وتطلع محمود اليه بعينين قلقتين وهو يبعد ياقة القميص الأبيض عن رقبته :

- ما كانش حقى ألبسها فى الحر ده ، مش كده ؟

كانت البذلة جديدة ، فصلها محمود قبل بدء المعركة ولم يلبسها . وسافر الى القناة وبعد القناة ، المعتقل ، وفى المعتقل كان يتصور نفسه وهو يرتديها ، حتى أصبحت مرتبطة فى ذهنه بالحـــرية ، وبحركة لا ارادية لبسها اليوم دون أن يفكر فى أنها لا تناسب جو أغسطس الحار

وربت حسين على كتفه وقال :

ـ ولا يهمك ، على العموم الدنيا بتبرد بالليل ..

ووقفت أم محمود تودع حسين ، وابتسم حسين فى وجهها ابتسامته الواسعة المكتملة ومدت الأم يدا مرتبكة ، وربتت على كتفه ربتة خفيفة وقالت :

ـ مع السلامة يا بنى

وعبر حسين الصالة وخلفه محمود ، وارتفع صوت ينادى محمود من خلف باب حجرة جانبية ثم انفتح الباب وظهرت ليلى

* * * *

واستدار حسين بسرعة ليواجه ليلى واحمر وجهها لحظة ، ثم تمالكت نفسها ، وأحنت رأسها فى اتجاهه انحناءة قصيرة وقالت

ـ محمود ، فيه واحد اسمه حمدى سأل عليك الضهر وأنت نايم وبيقول حايستناك فى قهوة ركس الساعة تمانيه .

ونظر محمود الى حسين وهو يهز رأسه فى تعجب :

ـ شايف يا سيدى س حمدى ومواعيده اللى من طرف واحد دى ؟!

ولم يجب حسين ، كان ينظر الى ليلى بوجه مذهول وكأنه لا يعرفها وقال محمود :

ـ انت طبعا تعرف ليلى أختى يا حسين ؟

ولم يجب حسين ، تقدم فى اتجاه ليلى بخطوات مترددة ومد يده اليها وعيناه تنظران الى عينيها وكأنه يبحث عن شىء . وقال وكأنه يسأل ، وكأنه غير متأكد من الاجابة :

ـ احنا اتقابلنا قبل كده ؟

واهتزت حدقتا ليلى لحظة واحـــدة ، ثم مدت الى حسين يدها ورفعت اليه وجهها باردا جامدا خاليا من التعبير وعلى فمهـا ابتسامة متحفظـة مصنوعة :

ـ أيوه اتقابلنا ..

ولاحظ حسين أن نبرة الصوت قد تغيرت بدورها ، لم يعـد صوتها

يصدر من الاعماق عميقا منطلقا كصوت الناى بل أصبح يصدر من طرف اللسان مكتوما محبوسا

واحتفظ حسين بيدها في يده وهو لا يزال ينظر اليها ، يبحث فى رجاء يائس عن ذلك الشيء الذى ضاع منها ، الذى مات فيها • ذلك الشيء الجميل الذى كان يشع من كل جزء من وجهها وجسمها ••

وأسقط يدها فى غضب وكأنهـــا سلبته شيئا يملكه •• وغامت عيناه ••

ورأى أخته سميحة وهى طفلة فى الخامسة تبكى وتقول :

ـ خليها تطير يا حسين ، خليها تطير

وهو فى جلبابه الابيض ينقل بصره فى حيرة بين أختـــه وبين الفراشة الجميلة المحنطة فى الكراسة ، وسميحة تبكى فى حرقة :

ـ خليها تطير يا حسين ، بتبقى حلوة لما تطير ••

وهو يضم سميحة الى صدره ويقبلها فى شعرها ويقول :

ـ ما تقدرش يا سميحه ، ما تقدرش تطير ••

ونظر حسين الى ليلى نظرة أخيرة • ودون أن يلفظ بكلمة استدار نحو الباب الخارجى وهو يكاد يهرول •

★ ★ ★ ★

ولكنه عاد من جديد ، وافتقد من جديد فى ليلى الشيء الذى جذبه اليها بادىء الأمر ، وخرج وحلقه يغص بالمرارة ليعود ، ولم يكن يدرى لم يعود ، ربما لأنه كان يذكرها دائما وهو بعيد عنها كما رآها أول مرة • وربما لأنه كان يؤمن أنه يستطيع بقوة حبه لها أن يعيدها كما كانت • أو لعله كان مدفوعا اليها بذلك الشعور العجيب الذى لا يسنده منطق ولا قبس من دليل ، الشعور بأنها له وأنه لها وان طال الانتظار

وكان عليه أن يكون حريصا وأن يغير أسلوبه الذى تعود عليه كان دائما يعرف ما يريد ويصل اليه بأقصر الطرق المباشرة • كان يكره التسلل ويحب الاقتحام • ولو كان الموقف طبيعيا لأعلن لها حبه فى أول فرصة ولطلب اليها أن تتزوجه • ثم انتظر بعد ذلك أن تبادله حبا بحب • لو كان الموقف طبيعيا لما اهتم كثيرا لحقيقة أنه عاطل وأنه مفلس

ولما انتظر منها اذا أحبته أن تهتم بهذه الاعتبارات. فهو مهندس وسيجد قطعا عملا وسيبدأ معها جنبا الى جنب من أول السلم .

ولكن الموقف لم يكن طبيعيا ، وعليه أن يخطو بمنتهى الاحتراس ، أن يتسلل من خلال ذلك السياج الذى فرضته على نفسها ، أن يصل الى أعماقها .

وحاول حسين جاهدا أن يجرها الى الحديث ، أن ينتزع ضحكاتها ويثير تحمسها وغضبها . وكانت تتكلم فى تحفظ وتضحك فى تحفظ ولا تغضب ولا تتحمس وكأنها فقدت القدرة على الغضب والتحمس وعندما تقابل نظرتها نظرته الفاحصة اليائسة تبتسم فى اعتذار ، وكأنها تعتذر عن وجودها . واذ ذاك يتسرب الشك الى حسين ، ويتساءل : هل وراء السياج أعماق ؟ أم أن عصام قد نزل بليلى الى الأرض وربطها بها؟ وجعلها مثله ، نسخة من آلاف الناس الذين يتكلمون بحساب . ويشعرون بحساب وينفعلون بحساب ؟ .. هل هذا السياج قناع تخفى خلفه قدرتها على الحب والانطلاق والانفعال خوفا من أن تجرح مرة أخرى ؟ أم أنه المظهر الطبيعى لانسانية متحجرة .. ؟

وهل هذه الكراهية لنفسها التى تتبدى فى تصرفاتها وأقوالها كراهية طارئة عابرة ؟ أم كراهية وطيدة ليفت قلبها وقتلت فيه كل منابع الحب لنفسها وبالتالى للآخرين ؟ وهل تمسكها بالأصول والتقاليد البالية العتيقة، ايمانا منها بهذه الأصول أو التقاليد ؟ أم أنها تحتمى بها وتستند اليها بعد الهزة العنيفة التى مرت بها ؟ وهل هى تؤمن بالآراء التى ترددها ؟ هل هى تؤمن حقا أن الحب كلام فارغ، وأن كل الرجال سواء ، وأن المهم أن يتمتع الانسان بمركز اجتماعى محترم ؟ وهل هى تعجب بجميلة وبزيجتها وتعتبرها مثلا أعلى للزيجات؟

أخوها يقول أنها تغيرت وكذلك سناء ، عندما رأت نظرته الفاحصة اليائسة مركزة فى وجه ليلى فهمت ..

* * * *

لمست سناء ذراع حسين حين انفردت به فى الحجرة وقالت :

ـ ليلى ما كانتش كده ، ليلى اتغيرت .

ورفع حسين اليها عينيه وقال فى تساؤل :

- عصام .. ؟

واحمر وجه سناء كما لو كان الموضوع يمسها هى شخصيا وقالت

- انت عارف .. ؟!

وهز حسين رأسه ثم قال :

- بس مش عايز ليلى تعرف انى عارف .

وقالت سناء :

- انت بتحبها .. ؟

وأطرق حسين ، وابتسم ابتسامة واهنة وفهمت سناء .

ثم رفع حسين رأسه وقال فجأة :

- ايه اللى حصل .. ؟

وحسب أن سناء ستتردد ، ولكنها لم تتردد ، أخبرته فى اختصار وفى كلمات كالسوط وكأنها لا تجلد بها عصام وحده بل كل الرجال . وعادت الى مقعدها واعتدلت فى جلستها وقالت فى غضب :

- انت الوحيد اللى تقدر تساعدها .

- اشمعنى .. ؟

وقالت سناء فى اختصار :

- ليلى مبسوطه منك .

وأشرق وجه حسين بابتسامته الواسعة

- مش باين .. !

وأطرق برهة ثم رفع رأسه وقال :

- هى قالت لك .. ؟

وهزت سناء كتفها وضحكت فى سخرية :

- طبعا لأ ..

ورفع حسين اليها عينين متسائلتين دون أن يتكلم وقالت :

- ليلى مش ممكن تعترف ، حتى بينها وبين نفسها ، انها بتميل لأى انسان ..

وقامت سناء واقفة وهى تكمل كلامها :

- ليلى اتعذبت كفايه ، ومش عايزه تتعذب تانى . مش عايزه تحب

وقال حسين وصوته يختنق بعاطفته :

- ولكن الوضع مختلف ، أنا باحبها .

وقالت سناء فى سخرية وهى تقف تجاهه :

- وعصام كان بيحبها . ولسه لغاية دلوقت بيقول انه بيحبها .

وسارت فى اتجاه باب الغرفة ووقف حسين وهو يقول :

- أرجوك ، الموضوع مختلف ، عصام ..

- عارف ؟ ساعات بيتهيألى انكم ما بتقدروش تحبوا ، ان القدره على الحب والتضحيه مش موجوده عند الرجاله .

- بلاش التعميم ده وحيـــاة أبوك . انت أولا ، بتثقى فى أنا ؟ ولا لأ ؟ !

ونظرت سناء الى ذلك الرجل الطويل العريض الذى يقف أمامها وقد توقف اصبعه على صدره وهو ينتظر اجابتها ، وكأنه طفل ينتظر من أمه أن تؤكد له أنه ولد طيب ...

وانفرج وجهها فى ابتسامة واسعة :

- المهم ان ليلى هى اللى تثق فيك ، مش أنا .

- ازاى ؟.. ازاى أخلى ليلى تثق فى ..؟

- لو كنت بتحبها كفايه ، كنت عرفت ازاى .

وتجهم وجه حسين وأراد أن يقول لسناء أنها غبية وأنها لو عاشت مئة سنة لن تحب انسانا بمقدار ما يحب هو ليلى ، ولكن سناء ابتسمت فى وجهه ابتسامة رقيقة وقالت فى حنان :

- ما تزهقش .. وما تيأسش .. اصبر .

وعمل حسين بنصيحة سناء وانتظر في صبر وخيل اليه أن محاولاته كادت أن تنجح وأنه كاد أن يصل ، كانت ليلى تضحك من نكتة قالها والتقت عيناه بعينيها وفجأة توهج اللمعان القديم فى عينيها لحظة واحدة ثم أشاحت بوجهها عنه وانطفأ .

ولكنه أدرك اذ ذاك أنه سينتظر - العمر كله لو تطلب الأمر - ليرى ذلك اللمعان يتوهج فى عينيها من جديد .

* * * *

ولكن الأمور خرجت من يد حسين فجأة وبسرعة مذهلة .

كان يمر على ادارة البعثات ليسأل عما حدث بشأن البعثة التى تقدم اليها . وطالعه الموظف المختص من خلف أكوام من الأوراق ومنظاره يتدلى على أنفه وسأله عما يريد بصوت هامس . واستغرق الرجل العجوز مدة طويلة وهو يبحث في بطء عن دوسيه البعثة . ووجد الدوسيه وفتحه بنفس البطء . وبدأ يقلب صفحاته صفحة وراء صفحة حتى وصل الى قرار لجنة البعثات العليا وتطلع الى حسين صامتا لحظة وهو يفحصه بامعان . وتأكد لحسين أن الحظ قد خانه هذهالمرة وأنه لم ينل البعثة . ودهش عندما وجد نفسه يتنهد فى ارتياح وكأنه قد فر من مأزق كان يواجهه . ولكن الموظف المختص سوى منظاره على عينيه بعد فترة صمت وأخبر حسين أنه قد اختير كعضو أصلى للبعثة التى تقدم اليها ، ونبه عليه بأهمية السرعة فى استكمال أوراقه لكى يلحق بالفصل الدراسى الأول . وسكت الموظف وكأن الكلام قد أرهقه ، وعاد يصوب نظرته الى حسين من خلف منظاره المتدلى على أنفه ، وحاول حسين جاهدا أن يتحاشى تلك النظرة ، غزاه شعور عجيب بأن ذلك الرجل العجوز الذى يجلس منكمشا كالقط ، يطوقه ، ويحكم المصيدة عليه .

وعندما وصل حسين الى الشارع تذكر ليلى فجأة وشعر بقلبه يهبط من صدره فى عنف ويترك خلفه خواء ، واندفع فى اتجاه بيتها ..

يجب أن يراها ، يجب أن يثبت لنفسه أنها ليست سرابا فى حياته بل حقيقة ملموسة ، حقيقة قائمة يستطيع أن يمد يده اليها وأن يحتويها ولا يفلتها أبدا .

وبعد ذلك فقط يستطيع أن ينظم ذلك البحر من الأفكار التى تتوالى على رأسه ويستطيع أن يقرر الخطوات العملية التي سيتخذها لمواجهة هذا الموقف الجديد ..

* * * *

أسرع حسين الخطى وهو يكاد يجرى ، وعندما وصل الى باب العمارة الخارجى اندفع باب المصعد ووجد ليلى تقف تجاهه فى ملابس الخروج . ووقفت هى أمام المصعد لا تتحرك . وتقدم حسين اليها ومد يده وأخذ يدها واحتفظ بها دون أن يتكلم ، واحمر وجه ليلى ورفعت عينيها اليه لحظة وتشبثت نظرته بها فى يأس . وأسدلت هى جفنيها على عينيها وأدركت أن شيئا ما قد حدث ، شيئا خطيرا . كان حسين يبدو أمامها لأول مرة مجهدا متعبا منهارا ..

وقال حسين فى جمل لا تكتمل :

ـ جات لى بعثة ـ تلات سنين ـ ألمانيا

ورفعت ليلى وجهها اليه ، ورأى حسين فى عينيها حزنا عميقا ، كما لو كانت قد ادركت اذ ذاك فقط مدى تعاستها ووحدتها وشعورها بالوحشة والانعزال .

وأدرك أنها فى حاجة اليه ، ربما بقدر ما هو فى حاجة اليها ، رغم كل الحواجز العالية التى ترفعها فى وجهه . وضغط فى حنان على يدها التى ما زال يحتفظ بها فى يده .

وأدركت ليلى أنها كشفت عن نفسها وسحبت يدها فى عنف وقالت

ـ محمود فوق ..

وتقدمت فى اتجاه الباب الخارجى للمبنى .

وقال حسين :

ـ رايحه فين ؟ .. استنى هنا

ودهشت ليلى من التغير المفاجىء فى صوته ، كانت نبرة اليأس قد زايلته وحلت محلها ـ لا نبرته العادية ـ بل نبرة آمرة ، كأنه يأمرها أن تنتظر . وحين استدارت وواجهته كانت ملامحه قد لانت فى ابتسامة

آسرة ، ابتسامة لا تقاوم ، ومع ذلك لم تبتسم فى وجهه ، نبع فى قلبها خوف من تلك الثقة ، من تلك الابتسامة التى تملأ وجهه .

- تعالى هنا ، أنا عايز أكلمك فى موضوع .

وتحدد الخوف الغامض الذى ملأ قلب ليلى ، خشيت أن يقول حسين شيئا يقلب نظام حياتها ، شيئا يسلبها الراحة التى وصلت بعد مجهود اليها ، الراحة التى تنبع من ادراكها أنها مكتفية بذاتها ، وأن انسانا ما ، لا يستطيع أن يؤذيها أو يؤلمها .

وكان عقل ليلى يعمل فى بطء وصعوبة .. يجب أن تهرب . فى الشارع ؟ سيتبعها حسين . فى حجرتها ؟ ستوصد الباب وتحكم اغلاقه واذ ذاك لن يستطيع أحد أن يصل اليها . لن يستطيع أحد أن يؤذيها ولكى تكسب الوقت ، لكى تحول بين حسين وبين أن يتكلم قالت وعيناها مصوبتان على السلم .

- فين .. ؟

وقال حسين فى بساطة ووجهه ما زال يبتسم :

- فوق ، أو نخرج فى أى حته .

وقالت ليلى فى اضطراب :

- مش ممكن ، مش ممكن يا حسين

وجرت تقفز درجات السلم . وتبعها حسين وأوقفها فى مواجهته وقد أحاط كتفيها بيديه .

- كلمتين بس يا ليلى . كلمتين بس .

ورأى اذ ذاك وجهها وقد ارتسم عليه الخوف . وحز خوفها فى قلبه وقال :

- ما تخافيش يا ليلى ، أنا عايزك تثقى فى ، أرجوك .

وقالت ليلى فى صوت رفيع يكاد يصل الى مرتبة البكاء :

- سيبنى يا حسين أرجوك ، سيبنى ، سيبنى فى حالى .

وقال حسين بصوت هادىء وبلا انفعال :

ـ وان ما كنتش أقدر أسيبك ؟ اذا كنت با احبك ٠

وأفلتت ليلى ، وفى قفزات وصلت الى باب شقتها ٠ ومدت يدها الى الجرس ولكن يد حسين أمسكت بيدها قبل أن تصل الى الجرس ٠

وقال فى صوت عميق هامس وهو يضغط على يدها :

ـ أنا با احبك يا ليلى ٠٠

وأطرقت ليلى برأسها وكأنها تلقت الصفعة التى كانت تخشاها ٠ ثم تمالكت نفسها ، أدركت أن حسين قد وضعها أمام الأمر الواقع ، وأن عليها أن تستجمع قواها لتواجه الموقف ٠ ورفعت اليه وجها باردا متحجرا خاليا من التعبير

وأسقط حسين يدها من يده وقال فى مرارة :

ـ لسه مرتبطه بعصام ٠٠ ؟

والتقت عيناه بعينيها ثم أشاح بوجهه بعيدا ٠ وشعر كأن طعنة سكين قد اخترقت قلبه ، رآها تقف أمامه عارية كحيوان جريح ينزف وعلى عينيها تتابعت الدهشة فالخوف فالشعور بالضعة والضياع ٠

وود حسين لو استطاع أن يسترجع السؤال الذى سأله ٠

واستندت ليلى على مقبض الباب كأنها تخشى السقوط ، واقترب منها حسين ووضع يده على كتفها وكيانه يختلج برغبة جامحة فى أن يحتويها بين ذراعيه ، وأن يقبل عينيها ٠ وشعرت ليلى بلمسته ٠ واستقامت فى الحال وقد تصلب جسمها ، ومدت يدها فى عنف وأزاحت يده عن كتفها ، واستدارت تواجهه وفى عينيها نظرة كراهية عميقة جعلته يتراجع الى الخلف حتى التصق بالحائط ٠

وقالت ليلى فى هدوء :

ـ أنا مش مرتبطه بحد ، ومش حا ارتبط بحد ٠

وقال حسين فى قسوة :

ـ عارفه أنت محتاجه لأيه ؟ محتاجه لحد يقعد يهزك لغاية ما تفوقى

لغاية ما تدركي ان الدنيا ما انتهتش · وان اللي حصل ده كان ضروري يحصل لأنك أنت اللي أسأت الاختيار ·

وانهالت ليلى على الباب تدقه بقبضتها وتطلع حسين اليها قليلا ثم هز كتفه ومد يده يدق الجرس ويقول :

- لكن للأسف ما عنديش وقت عشان أفوقك ، لأني مسافر ·

واستدار وتركها خلفه وأدرك وهو ينزل السلم أنه قد اتخذ قرارا نهائيا في موضوع البعثة ·

* * * *

ولم يكن حسين مرتاحا في أعماقه لهذا القرار لأنه يتضمن اسقاط ليلى من حسابه · ولكن الاحداث تحالفت على اقناعه بصحة قراره · تحاشت ليلى مقابلته خلال تردده على البيت ، وفكر في الاستعانة بسناء وسأل محمود عنها فأخبره أنها سافرت مع عائلتها الى رأس البر لقضاء جانب من الصيف ، وأنه هو وأفراد عائلته سينتقلون بدورهم الى رأس البر بعد أيام ·

واندفع حسين يستكمل أوراقه ويختار الكتب التي سيأخذها معه ويدرس برامج الدراسة في الجامعة التي سيلتحق بها · وتوطدت صلته بأخته سميحة في هذه الأيام كما لم تتوطد منذ زواجها · كان يسهر معها في بيتها الى ساعة متأخرة من الليل يتحدثان · كان قد أخبرها بموضوع ليلى وكانت تدرك انه يتألم وان كان يرفض أن يعترف حتى بينه وبين نفسه أنه يتألم · وقالت له مرة وهي تعدل من وضع غطاء المائدة لتخفي ارتباكها :

- تحب أروح أشوف ليلى يا حسين ·· ؟

وهز حسين رأسه بالنفي دون أن يتكلم وتطلعت اليه سميحة متسائلة فقال :

- ليلى عايزه كده يا سميحه · ما فيش داعي اننا نحاول نضطرها لحاجه هي مش عايزاها ·

وقالت سميحة :

- عارف يا حسين ؟ أنا قلبي حاسس ان لك نصيب فيهـــا . ومسيرها لك برضه بعد ما ترجع من ألمانيا .

وضحك حسين ساخرا :

- حضرتك بتفتحي البخت ولا أيه ..؟

ولكن كلام أخته الذى بدا ساذجا غـــير منطقى أدخل السكينة الى نفسه وتجاوب مع شعور في أعماقه لم يتأت له من قبل أن يتبلور . شعور بأن شيئا ما يربطه بليلى ، شيئا أقوى منه وأقوى منها ، شيئا سيجمعهما معا فى يوم من الايام . وأعانه هـذا الشعور على التسليم بالأمر الواقع .

ولكنه عاد الى بيته مثقلا بشعور من الجرم ، بعد أن ودع ليلى ليلة سفرها الى رأس البر .

تحاشته تلك الليلة كعادتها منذ أن فاتحها بحبه . وجلس طول الوقت مع محمود فى حجرته . ولكن عندما خرج الى الصالة كانت تقف هنـــاك وسط كومة من الحقائب بعضها مفتـــوح وبعضها مغلق وهى تتحدث الى أمها

وصافح حسين الأم مودعا ثم استدار الى ليلى وتشبثت نظرته بوجهها وهو يحتضن يدها بين يديه ، واهتزت حدقتاها ثم سحبت يدها من يده وابتسمت إبتسامتها المعتذرة وقالت :

- مع السلامه ..

واستدارت تخاطب أمها :

- ماما .. على فكره ، الجاكتات الصوف ، نسينا الجاكتات الصوف

ووقف حسين فى مكانه لا يتحرك ونظرته مركزة على ظهر ليلى . وشعرت ليلى بنظرته تحرق ظهرها ، واستدارت فى بطء ، وواجهته ، وقالت بصوت هامس مضطرب وكأنها تفضى اليه بسر :

- أصل الدنيا بتبقى برد هناك ، برد وضلمة بالليل .

وارتجفت شفتها السفلى وكست عينيها طبقة من دموع جمدت على حدقتيها ..

* * * *

١٢

ولمدة خمسة عشر يوما طاردت حسين عينـــا ليلى ، وقد تحجرت فيهما الدموع . وكل يوم يمضى يقربه من موعد سفره الى ألمانيا الذى تحدد موعده ، ويزيده شعورا بأنه تخلى عن ليلى فى وقت هى أحوج ماتكون فيه الى المساعدة .

وظلت عينا ليلى تدعوانه وتتشبثان به حتى وجد نفسه يجلس فى القطار الذاهب الى رأس البر .

وأسند حسين رأسه الى ظهر المقعد . وشعر براحة نفسية عميقة ، وكأنه فرغ لتوه من صراع طويل .. لقد عرض عليها حبـــه ، وحين رفضته انصرف غاضبا كطفل كبير ، رغم أنها فى حالة لا تسمح لها أن تحبه هو ، أو أن تحب أى انسان . ربما لو كانت فى حالة طبيعية لأحبته ربما تحبه بعد مدة حين تستطيع أن تقف على قدميها وتستعيد ثقتها فى نفسها وفى الحياة . ربما لن تحبه أبدا ، ربما ستحب انسانا آخر . ولكن كل هذا لا ينفى أنه يحبها ، ولا يعفيه من واجبه تجاهها . يجب أن يستنفذ كل الوسائل الممكنة لمساعدتها .

لقد توهم أنه لا يستطيع أن يساعدها الا كزوج أو كحبيب ، ولكن ربما يستطيع أيضا أن يساعدها كصديق . كمجرد صديق . يجب أن يستنفذ كل الوســائل الممكنة والا .. ستظل عينـاها معــه تدعوانه وتتشبثان به فى يأس ، وتوقظانه من نومه . ولن يهرب منهمـا أبدا ولو قطع آلاف الأميال .. آلاف الأميال . آلاف . آلاف ..

وأخذ القطار يطن فى أذنه بكلمة آلاف وقام حســـين الى النافذة وفتحها . وأخذ يستوعب الحقول الممتدة أمام مرأى بصره ، وكأنه يريد أن يحفرها بكل تفاصيلها فى ذاكرته . لقد نشأ هنا كطفل وكصبى فى قرية مثل هذه القرية ، فيها حقول مثل هذه الحقول ، وساقية وترعــة وناس مثل هؤلاء الناس ، ناس يكدحون ويعرقون ، ويخفى مظهــرهم الخشن الصلب قدرة جبارة على الحب وعلى العطاء وعلى التضحية .

وشعر حسين بحنين جارف وود لو استطاع أن يتوقف ، أن يمشى والنسيم يلفح وجهه بين الحقول الخضر ، أن يشم عبــــير الأرض ، أن يصافح الأكف الخشنة الصلبة .

ولكن القطار مضى ينهب الأرض ، وهو يطن وطنينه يردد فى أذنه كلمة آلاف ٠٠ آلاف ٠ نعم ، سيذهب آلاف الأميال بعيدا عن هذه الحقول ، بعيدا عن الوطن ، وفى الغربة سيعيش وحيدا ، ويعمل وحيدا يأكل وحيدا ، وينام وحيدا ، وفى نهاره وحشة . وفى ليله وحشة للوطن ٠ لو كانت معه ٠٠ لو كانت معه ٠٠٠

واضطرم صدر حسين بموجة غضب ٠ لماذا لا تستطيع أن تقف على قدميها مثل بقية الناس ؟ لماذا لا تلطم من يلطمها ، وتستأنف المسير ؟ ولماذا يسهل تحطيمها وكأنها مصنوعة من ٠٠ من ٠٠٠

وجلس حسين على المقعد وهو يحاول أن يجد شيئا يشبه به ليلى ٠٠ من الزجاج ، من الكريستال ، نعم من الكريستال ، جميل ومن السهل تحطيمه ، والكريستال سلبى أيضا مثلها ، يعكس الضوء ولا يشعه ٠ تضعه فى النور فيتألق ، وتضعه فى الظلام فلا يشع نورا ٠ نعم النور ليس فى قلبها ولكنه فى الخارج ٠ الثقة فى النفس لا تنبعث من داخلها بل لقد استمدتها دائما من الآخرين ٠ ولذلك استطاع عصام أن يسحقها ، أن يجعلها تكره نفسها وتكره بالتالى الآخرين

وهى جميلة ، وهى ذكية ، وهى ممتازة من كل الوجوه ، ومع ذلك لم تستطع أبدا أن تقف على قدميها ٠ كان لا بد لها دائما أن تستند الى شخص أو الى شىء ٠ استندت أولا الى أخيها ، الى بطل طفولتها ، ورأت الدنيا من خلال عينيه واسعة جميلة طليقة مليئة بالحب ، بالتضحية ، بالاخلاص ، بالحق ، بالصدق ، بالجمال ٠

وأراها عصام جانبا آخر من الحياة لا تعرفه ، جانبا عاريا قبيحا ، وخارت الأرض تحت قدميها ، استحالت الى رمال طرية ٠

وتطلعت الى أخيها فى يأس تحاول أن ترى فى عينيه الحياة التى رسمها لها ، ولكنه أغمض عينيه خشية أن ترى فيهما ما رآه ٠٠ وكأن محمود لم ير سوى الخيانة وكأنه لم ير ٠٠٠

ورأى حسين أشجار النخيل تنبىء باقتراب القطار من محطة دمياط ، وبدت له متراصة متكاتفة ، صفوفا وراء صفوف ، شامخة مزهوة منتصرة مثقلة بثمارها ، بعراجين من البلح الأحمر الذى يلتمع فى أشعة الشمس ٠

... لم ير الجمال . وكأن محمود لم ير الجمال . لم ير لأبطال الذين وقفوا للأعداء شامخين منتصرين ، وماتوا شامخين منتصرين .. لم ير الفرحة الغامرة التى تألقت فى عينى ذلك الصبى حين رفع رأسه لآخر مرة ليشاعد النار وهى تتأجج فى معسكر من معسكرات الانجليز .. لم ير الأسطى مدبولى يزحف وهو جريح الى داخل معسكر بريطانى ويحرق مخزن البترول بقنبله يدوية ويحترق معه ، ولم يسمع هتافه بسقوط الاستعمار يدوى فى سكون الليل . يهز الاعماق ، ويهز الأرض ، ويفجر فيها منابع الثورة ..

واهتز القطار وهو يتوقف فى محطة دمياط . وسحق حسين عقب السيجارة بحذائه ، وحمل حقيبته ونزل ..

وتركت السيارة الطريق الزراعى ، وتوغلت فى طريق رأس البر ، وبدأ الهواء المشبع ببخار الماء يلفح وجه حسين ويسكن من توتره .. وشعر بحنين جارف الى ليلى ..

من هو حتى يلوم الآخرين على ضعفهم ؟ من هو حتى يصدر الاحكام على تصرفاتهم وأفعالهم ؟ لقد كاد يبكى كالطفل وهو يرى القاهرة تحترق ، وكاد يبكى وهو يرى نهاية معركة القناة ، ولم ينقذه الا الايمان ، الايمان بالشعب . لقد أحس بالشعب دائما ولم ينعزل أبدا ، وبالتالى لم يضعف .

ومحمود انعزل ، وليلى انعزلت ، انعزلت حبيسة وراء (الأنا) تنكأ جراحها . وكأن الدنيا كلها قد تركزت فى هذه (الأنا) . ولم يعد لليلى هم الا أن تحميها من عدوان العالم الخارجى . لقد استندت الى أمها ، الى أصولها ، الى تقاليد الناس من حولها ، ورأت الحياة من خلال عينى أمها ضيقة لا تتجاوز الجدران الأربعة التى تعيش بينها ، مخيفة يتحصن ضدها الانسان ، وينصرف جهده ليتحاشاها لا ليحياها . وبتسلح فى ذلك بالأصول ، يتكلم بحساب ، ويتصرف بحساب ، وينفعل بحساب لكى لا يتعب ولكى لا يتألم .

وقد لا يعرف سعادة كبيرة ولكنه أيضا لن يعرف ألما كبيرا فالجدران هناك تحيطه وتحميه ضد الوحش الذى يتربص به فى الخارج .. ضد الحياة ..!

وامتدت الكثبان الرملية تحت بصر حسين ، أرض خراب قاحلة

جافة بلا ماء ولا شجر ، ومن خلف الكثبان طالعته عينا ليلى وقد تحجرت فيهما الدموع ..

* * * *

كانت ليلى مستلقية على مقعد طويل تحت الشمسية تقرأ كتابا حين شعرت بيد تلمس كتفها .

- ليلى - حسين جه ..

قال محمود

ولان وجه ليلى فى إبتسامة لم تكتمل ، أدركت أن جسمها ممدد تحت نظر حسين وقامت تحييه فى ارتباك :

- أهلا وسهلا ..

وقال محمود وهو يزيح المنشفة من على كتفه ، ويضعها على ظهر مقعد خال :

- حسين مسافر ألمانيا بعد أسبوعين .

واهتزت حدقتا ليلى ولم تقل شيئا : مدت يدها وأخذت المنشفة من يد حسين ووضعتها على ظهر المقعد وأخذت تسويها بيديها ، وقال محمود :

- مش تهنى ليلى يا حسين

وانقبض وجه حسين وأكمل محمود كلامه :

- أخذت التوجيهيه وحاتدخل الجامعه .

وتهلل وجه حسين وهو يحتضن ليلى بنظراته وقال :

- مبروك

وسار محمود الى البحر وخلفه حسين ، بعد أن ألقى نظرة تساؤل الى ليلى ..

وجلست هى من جديد ، ولكنها لم تجلس على المقعد الطويل . جلست متصلبة على مقعـــد من الخيزران ، وحاولت أن تستغرق فى

القراءة من جديد . ولكنها لم تستطع . بدأت أصوات الباعة تحول بينها وبين التركيز ، وأمواج البحر تتدافع وتمتد حتى تصل الى قدميها

وقال محمود لحسين وهما يديران ظهريهما لموجة عالية :

ـ البحر مش حاجه النهارده

ـ مش حاجه بس .. دا فظيع يا أخ .

وقال محمود :

ـ لقدام يبقى كويس

ـ قدام ؟! قدام مين يا عم . دا أنا ما اعرفش أعوم .

وانفجر محمود ضاحكا ، وقد سره أن يكتشف في نفســـه نقطة تفوق على حسين .

ـ طويل وعريض كده ولا تعرفش تعوم ؟

وكادت موجة عالية أن تقلب حسين ، وتماسك وهو يضحك

ـ كفاية كده ، يللا بينا نخرج .

واندفع محمود الى الداخل يشق الأمواج ، وهو يشير لحسين أن يتبعه . وهز حسين رأسه واستدار في اتجاه الشاطىء .

* * * *

واقترب حسين من ليلى وقطرات الماء تتساقط من شعره ووجهه وأعطته ليلى المنشفة دون أن تتكلم . وجلس على الرمل الى جانبها ، وقال وهو يجفف شعره ويبتسم في وجهها :

ـ لسه مخاصماني ؟

وأقفلت ليلى عينيها وهي تبتسم ..

وقال حسين مداعبا :

ـ ما هو حاجة من اتنين ، اما مخصماني أو خايفة مني

ـ وحا أخاف منك ليه .. ؟

وقال حسين في خفة :

- دا سؤال وجيه ، الواحد بيخاف من شخص تانى ليه ؟ اما ان الشخص التانى دا مؤذى أو ...

وتطلعت اليه ليلى فى توجس ، وركز حسين عينيه فى عينيها وقال بصوت عميق :

- أو خايف يحبه ..

وأشاحت ليلى بوجهها بعيدا عنه وتطلعت ساهمة الى البحر ، والموج يعلو شامخا متوجا بالبياض ، ثم يتلاطم ويستكين ليرتد من الشاطىء ذليلا الى البحر ، وقالت فى صوت هامس :

- أنا عمرى ما حا أحب حد

وطرح حسين رأسه على مقعد خال ومد قدميه وارتخى فى جلسته وقال وفى صوته رنة عدم التصديق :

- متأكده ؟!

- طبعا متأكده

- أنا شخصيا مش متأكد ..

وقالت ليلى فى عنف :

- قصدك ايه ؟

واعتدل حسين فى جلسته وهو يبتسم ويشير بأصبعه فى توكيد الى صدره :

- قصدى أنك حاتحبينى ، حاتحبينى أنا ، حاتصبحى فى يوم الصبح وتكتشفى أنك بتحبينى ..

ونظرت اليه ليلى فى دهشة لحظة ، ثم انفجرت ضاحكة

- بتضحكى على ايه ؟

وهزت ليلى رأسها فى تعجب وهى مستغرقة فى الضحك وقالت:

- يا ريت يكون عندى ثقة فى نفسى زيك كده يا حسين

وقال حسين ووجهه كوجه طفل غاضب :

- مش فاهم حاجه ..

وابتسمت ليلى وقالت :

ـ ايه اللى بيخليك متأكد بالشكل ده ، زى ما أكون أنا شخصيا قلت لك .. انى باحبك ..

وارتجف صوت ليلى وهى تنطق بالكلمتين الأخيرتين

وقال حسين ، وكأنه يقرر حقيقة واقعة :

ـ انت فعلا قلتيلى

وفتحت ليلى فمها فى بلاهة ، وابتسم حسين :

ـ أنت فعلا قلتيلى ، قلتيلى أكتر من مره

وأشارت بيدها فى يأس وهى تبتسم

ـ لا .. دا انت مجنون خالص

وزحف حسين فى اتجاهها

ـ تفتكرى الحاجات دى الواحد بيقولها بلسانه بس ، بالعكس دا بيقولها أكتر بعنيه

وقالت ليلى فى سخرية :

ـ وعنيه قالت ايه بقى يا سيدى ؟!

ـ عنيك اللى فقدت لمعانها بتلمع لى أنا بس ، ووشك اللى راح منه الاشراق بيشرق لى أنا بس .

ـ أنت بتتخيل حاجات وهميه ، حاجات ما حصلتش خالص ..

واقترب حسين منها حتى كاد رأسه يلمس فخذها ، وقال فى صوت تناهى فى رقته :

ـ خدينى على قد عقلى يا ليلى .

ولمعت الدموع فى عينيها وقالت :

ـ أنا آسفة يا حسين

ـ لأ .. أرجوك ، أنا عايز أشوفك النهارده مشرقه تمام زى ما شفتك أول مرة

ورفع اليها وجهه وقد ذاب فى ابتسامته الآسرة وقال

ـ عايزة تبسطينى قبل ما اسافر

وهزت ليلى رأسها بالموافقة

ـ طيب ، خلينا نتخيل ، نتخيل مع بعض

ومسحت ليلى عينيها وابتسمت ، وقال حسين :

ـ نفرض انك صحيتى الصبح واكتشفت انك بتحبينى

وقالت ليلى وكأنها تلعب لعبة مسلية :

ـ وبعدين ؟

ـ وبعدين حاتروحى مكتب التلغـــراف ، وتكتبى تلغراف على عنوانى فى ألمانيا

ـ أقول فيه ايه ؟

وأمسك حسين بحصاة ، وأخذ يكتب بها على الرمال ، وهو ينطق ببطء وكأنه يملى ، وتاهت عيناه ، وغار صوته ، وكأنه يحلم ...

« قم بالترتيبات اللازمة لعقد زواجنا ، سأخبرك فى البرقية التالية بموعد وصولى ، التفصيلات بالبريد ..

ورفع حسين رأسه الى ليلى ويده ما زالت ممسكة بالحصاة ونظر اليها نظرة فاحصة ، وكأنه يختبر مدى قوتها ، مدى قدرتها على القيام بهذا الدور الذى يريد لها أن تقوم به .

وتململت ليلى تحت نظرته الفاحصة ، وأدركت أن المحـــادثة ستخرج من النطاق الخفيف الذى كانت تدور فيه الى نطاق جاد خطير. وتشبثت باللعبة المسلية ، وقالت فى صوت تسرب اليه بعض الخوف

ـ وبعدين ؟

ـ تركبى الباخرة وتيجى ...

وبدا من صوت حسين أنه لم يعد مهتما بالمحادثة ، كان اهتمامه منصبا على محاولة الوصول الى أعماق هذه الفتاة ، الى معرفة الى أى

مدى يستطيع الاعتماد عليها ، ومصيره هكذا معلق بمصيرها ·

وقالت ليلى بصوت ضعيف وهى تشير بذراعها الى مسافة وهمية

- كل السكة دى لوحدى ؟

واعتدل حسين فى جلسته وقال فى بطء ، وبطريقة يحمل بها كلماته أكثر من معنى :

- دى السكه اللى ضرورى تمشيها لوحدك يا ليلى ·

وشعرت ليلى بنظرته الفاحصة تضيق عليها الخناق ، وكأنها تكشف عن مدى ضعفها ووهنها · وأشاحت بوجهها بعيدا وهى تتطلع الى البحر ، ثم ارتجفت شفتاها وهى تقول :

- طيب افرض ان البحر هايج والموج عالى ·

وقال حسين ، وهو يحمل كلماته من جديد أكثر من معنى :

- عشان توصل للبر ، ضرورى تواجه الموج والبحر ·

ونظرت اليه ليلى طويلا ، وقد ضاقت عيناها ، ثم ضحكت ضحكة أشبه بالعويل وقالت :

- وعلى البر ألاقى أيه ؟ ألاقى أيه يا حسين ؟ ·· قهوة مدلوقه ؟

ونظر اليها حسين فى دهشة لحظة ، ثم أدرك أنها تشير الى تفصيل من تفصيلات علاقتها بعصام ، وانقبض وجهه ولم يقل شيئا ·

وغطت ليلى وجهها بكفيها ، وقالت وهى تهز رأسها فى يأس :

- ما أقدرش ، ما أقدرش يا حسين ·

وكشفت عن وجهها ، وقامت واقفة ، وقام بدوره واقفا يواجهها ·

وقالت ليلى بصوت هادىء :

- ما تضيعش وقتك يا حسين ، ما فيش فايده منى ·

* * *

ومضت ليلى فى خطى متباطئة الى العشة ، ولحق بها حسين ، وسمعته خلفها يناديها :

- ليـــلى

ولم يكن فى صـــوته غضب ولا يأس ولا رجاء ، كان الصـــوت يستوقفها ، يأمرها فى رجولة وحنان أن تقف ، ووقفت .

وقال حسين :

- عارفه يا ليلى حاتلاقى على البر ايه ؟

ونظرت اليه ليلى ولم تتكلم ...

- حاتلاقى حاجة أهم منى ، وأهم من أى انسان تانى . عارفه أيه هى يا ليلى ؟

ورفعت اليه ليلى عينين متسائلتين .

وقال حسين فى بطء :

- حاتلاقى الحاجه اللى ضاعت منك ، حاتلاقى نفســك ، حاتلاقى ليلى الحقيقيه ..

ولم تفهم ليلى مقصده فى بادىء الأمر ، ثم احمر وجههـا وأدركت لأول مرة انها تغيرت ، وأنها أصبحت أشبه بالجثة الهامدة ، وأن حسين أدرك هذه الحقيقة . وفرت الى العشة فى خطى مذعورة .

* * *

وعلى مائدة الغـــذاء جلست ليلى فى مواجهة حســين والى يمينها أمها والى يسارها محمود ، وكان أبوها غائبا فى القاهرة .

وأحنت ليلى رأسها على الطبق لتتحاشى نظرات حسين ، كانت تخاف نظـــرته الفاحصة ، التى تنفذ الى أعماقها وتكشف عما فى هذه الأعماق . وتخاف أن ترى اليأس فى عينيه ، اليأس منها .

ولكن حين التقت عيناها بعينيه مصادفة تبدد خوفها ، لم تجد فى نظرة حسين يأسا ولا خوفا ، ولا كانت تفحصـــها ولا تمتحنها ، كانت تربت عليها فى حنان ، وتضمها فى شوق واعتزاز ، وتتـــألق فرحا ...

كان حسين يستوعب كل تفصيل من ملامح ليلى وكأنه يريد أن

يحفره في ذاكرته ، ويدخره في قلبه ، وكان هذا الاستيعاب يملؤه بالنشوة . انه يحب هذا الجانب من وجه ليلى الذى ينحدر فى نعومة من الأذن الدقيقة الى الخد.ويحب الشفة العليا التى ينفرج احمرارها من الوسط عن مثلث صغير يعلو عن الشفة السفلى ، وكأنها تبتسم وهى لا تبتسم . ويحب العينين العسليتين الذكيتين الحساستين المعبرتين وكأنهما شاشة عدسة رقيقة الحساسية ، والجبين العريض الممتد فى استواء وكبرياء ، والشعر القصير الناعم الفاحم السواد ، والبشرة العاجية المشربة باحمرار خفيف فى الخدين ، البشرة الناعمة نعومة بشرة الطفل ، و ...

انه يحب كل ملامحها ، كل على حده ، ولكنه يحب الوجه فى مجموعه أكثر ، فى الوجه فى مجموعه جمال خارق ، جمال لا ينبع من جمال الملامح وحدها ، ولا من انسجامها كل من الآخر ، انه ينبع من ... من أين ؟ من التناقض بين البراءة الناعمة التى تشبه براءة الاطفال ، وبين الجبين العريض ، والعينين اللتين تتأججان ذكاء ، ذكاء امرأة واعية حساسة ناضجة ؟ أم من التناقض بين الوجه الطفل والجسم الممتلىء الناضج ؟ أم من شعوره هو تجاهها ، من حبه لها ؟

ما من مرة رأى وجهها الا وأشرقت فى كيانه سكينة حلوة تهدهده ، وتسلمه الى اطمئنان حلو ، وتدفعه فى حنو الى الامام . وكأنه فهم فجأة كل الاسرار التى استعصى عليه من قبل فهمها ، وكأنه وجد فجأة الحل لكل مشاكله ، وكأن أحلامه قد تجسمت فجاة فأصبحت حقائق ، وما عليه الا أن يمد يده ويمسك بها . فأى شىء يستحيل عليه لو أصبح كل يوم على وجهها ؟

ولكنه لن يصبح كل يوم على وجهها ، فى الغد يرحل ، وهو لا يملك من الامر شيئا ولا يستطيع له تغييرا ، لا يملك سوى أن ينظر اليها ويدخر صورتها فى عقله وكيانه ، ويعيش على الذكرى سنوات فى الغربة . يجب أن يكون وجهها آخر ما يراه حين تباعد الباخرة بينه وبين أرض الوطن ، آخر ما يراه فى أرض الوطن .. رمزا لكل ما يحبه فى الوطن .

ولمعت فكرة فى عقل حسين ، فى الغد حين يرحل ، يجب أن تودعه ليلى ، يعبر النيل فى طريقه الى دمياط ويقف فى المركب ،

وتقف هى أمامه على الشاطىء يملأ كيانه من وجههـــا ويتخيل ... يتخيل أنه راحل عن الوطن ليعود اليها ، للوطن .

ولكن كيف يقنعها بتوديعه ؟ ومتى ؟ وهل تستطيع أن تخـرج بمفردها لتوديعه ؟ هل تستطيع أن تتغلب على خوفها من نفســها ومنه ومن الناس ؟

وسيطرت الفكرة على حسين ، وتضخمت أهميتها فى نظـــره لحظة بعد لحظة .

لو خرجت لتوديعه لكان معنى ذلك أنهـــا خطت الخطوة الاولى تجاهه . ولن يتركها قبل أن تخطو الخطوة الاولى .

وتركز كيان حسين فى محاولة الانفراد بليلى ، ولم تســنح له الفرصة الا عند غروب الشمس .

* * *

كان يتمشى مع محمود على شاطىء البحر حين لمحا ليلى وســـناء تقفان أمام الشاطىء ترقبان الغـروب ، ليلى بوجه حـــزين ، وكأن الشمس لن تشرق فى الغد ، وسناء بوجه يتوهج ، وكأنها خزنت فى كيانها ما تبقى من أشعة الشمس الآفلة للغروب .

وانضم محمود وحسين الى ليلى وسناء ومضـــوا يمشـــون فى خطوات بطيئة على الشاطىء ، وجو أرجوانى يلفهم ونسيم رطب يبعث بالخدر الى أجسامهم .

وكانت ليلى تمشى بحذاء الشاطىء والى يسارها ســناء فمحمود فحسين . وانهمك محمود فى حديث جانبى مع سناء ، وليلى وحســين صامتان ، ليلى تصوب نظرها الى الامام وحسين يتململ فى مشــيته ثم استدار حسين وغير مكانه بحيث أصبح يمشى بمحاذاة البحـــر الى يمين ليلى .

واحمر وجه ليلى وسارت الى جانب حسين وذراعه تلمس كتفها عفوا بين الحين والحين ، فترسل فى كيانها رجفـــة كرجفة الكهرباء ، رجفة ما تكاد تفيق منها حتى تنتظر بحلق جاف وقلب واجف أن تتجدد من جديد . وبطرف عينها رأت وجه حسين مشدودا . وكأن شـــيئا ما يثقل عليه .

ولمحها حسين تنظر اليه بطرف عينها واحتك ذراعه بكتفها - عن قصد - هذه المرة ، وعيناه تذوبان فى نظرة حنان ، وشفته السفلى تبرز بروزا خفيفا وكأنه يقبلها . واحمرت أذنا ليلى ، وتطلعت الى الامام . وابتسم حسين لنفسه ولانت ملامحه المشدودة .

وانخفضت نغمة الحديث الدائر بين محمود وسناء حتى أصبح حديثا هامسا ، واتسعت خطواتهما وكأنهما يسعيان بلا وعى الى الانفراد . ولاحظ حسين هذا التطور وبطؤت خطواته ، ان الفرصة تواتيه ولن يدعها تفلت منه . وليلى تأبى الا أن توسع خطواتها لتلحق بسناء ومحمود .

ومد حسين ذراعه وجذب ليلى الى الخلف فى اتجاهه ، ووجهه يضحك وهو يقول هامسا :

- تعالى هنا ، انت رايحه فين ؟

ووقفت ليلى تجاهه مسمرة ، فى دهشة من جرأته المتناهية ، ثم سعت الى تخليص يدها من قبضته . وشلها الخوف حين وجدت حسين يرفع يدها الى فمه ، ويقبل باطنها ، ومحمود وسناء على مبعدة خطوات منهما .

وأطلق حسين يد ليلى حين اطمأن الى ابتعاد سناء ومحمود .

وقالت ليلى وشفتاها ترتجفان :

- انت مجنون . افرض محمود ...

ولم تستطع أن تكمل .

وقال حسين وهو يضحك :

- افرضى ، أنا با أحبك ، وفخور انى با أحبك ، ونفس محمود يعرف ، والدنيا كلها تعرف انى با أحبك .

ثم غام وجهه ، وكاد يلتصق بها ، وهو يقول بصوت عميق هامس مرتجف :

- بس مستنيك ، مستنيك أنت يا حبيبتى .

وأجرى حسين أصبعه على ذراع ليلى فى لمسة خفيفة ، ورق صوته حتى أصبح كصوت الأطفال :

ــ وعارف أنك حاتحبينى ، ومسيرك لى زى ما أنا لك .

وغص حلق ليلى ، وغامت عيناها تحت سحابة من الدموع .

وأخبرها حسين باقتراحه . وحاول أن يزيل مخاوفهـا ، فهمـا يستطيعان أن يتقابلا بعيدا ، عند المحافظة ، أمام النيل . وهى تستطيع أن تسبقه ، ويواتيها هو هناك بعد أن يتخلص من محمـود . ولكنها كانت ما تزال تنظر اليه بعينين واسعتين خائفتين ، وكأنه يطلب اليها أن تقتل انسانا .

وقال حسين وقد تسرب اليأس الى صوته :

ــ مش حاتيجى ؟

ولم ترد ليلى .

واندفع حسين فى مشيته وهو ينظر الى الأمام .

واتسعت خطـوات ليلى لتلحق به . ومدت يدا متخبطة كالعمياء ومست بأصبعها يد حسين ، وقالت بصوت مرتجف :

ــ الساعة كام ..؟

وأمسك حسين بيدها فى يده ، ووجهه يتوهج ، واحتضنتها نظرته فى اعزاز .

وسحبت ليلى يدها من يده . لمحت سناء ومحمود من بعيد وهمـا يستديران فى طريقهما الى حيث تقف هى وحسين .

* * *

تمددت ليلى فى السرير وهى تفكر .. شاب مثله ممتـاز من كل الوجوه يريد أن يتزوجها هى ، وهو يعلم بكل تفصيل من تفصيلات علاقتها بعصام ..

وشعرت بموجة من الارتيـاح تسرى الى جسمها كالارتياح الذى تشعر به عندما ينتهى الطبيب من خلع ضرس مصاب ، أو عندما تغطى

جرحا ملتهبا في جسمها بطبقة من المرهم المرطب • شعرت وكأن حسين قد رد اليها اعتبارها حين طلب اليها أن تتزوجه •

وتقلبت ليلى فىفراشها •• لا •• انه لا يريد أن يتزوجها ، انه يريد حبها أولا كشرط أساسى للزواج ، ويعلق الزواج على هذا الحب • كان يستطيع أن يعرض عليها الزواج الآن فى الحال ، ولكنه لم يفعل ، انه لا يريد جثة هامدة ، وهى جثة هامدة •

هو يريد حبها وهى لا تستطيع أن تحب ، تخاف من الحب ، وليس فى قلبها الا الكراهية ، الكراهية للدنيا ولعصام •• عصام الذى خدعها عصام الذى حطمها •• عصام الذى ••

وحاولت ليلى أن تنساق كعادتها فى التفكير الذى يتتالى عليها عادة طيعا ، متسلسلا ، صورة بعد صورة ، يحمل الى عينيها الدموع والى قلبها موجة من الرثاء لحالها ، والاشفاق على نفسها ، ولكنها لم تستطع أن تستطرد فى هذا الاتجاه • كان مجرد تذكر اسم عصام يجعلها تغلى وتغص بالكراهية وتود لو استطاعت أن تحطم شيئا ، أما الآن فهو بعيد ، بعيد وكأنه لم يكن ، كأنها لم تعرفه كما عرفته ، كأن لم يكن بينهما علاقة •

واكتشفت ليلى فجأة أن غضبها قد انفثأ ، وأنها لم تعد تكره عصام ولاحظت أن جسمها لا يؤلمها على غير العادة ، وأن عضلاتها مرتخية غير مشدودة • وكأنما خرجت لتوها من حمام بخار امتص السموم التى كانت تسرى فى جسمها •

واستغرقت فى نوم هادىء متصل لا تقطعه الأفكار السود ، ولا الاحلام ، ولكنها حرصت على أن تستيقظ مبكرة لتودع حسين •

* * *

وعندما خرجت من دورة المياه لم يكن أحد قد استيقظ فى العشة بعد ، وحتى لو استيقظ أحد ، لم يكن فيمـا تفعله شىء غريب ، فهى تستيقظ عادة كل يوم قبل أن يستيقظ أحد وتخرج مبكرة لتتمشى •

وخلعت ليلى قميص نومها ، ووقفت بملابسها الداخلية أمام المرآة تمشط شعرها القصير • ولحظت أن بشرتها قد جفت من تأثير الشمس

وفتحت علبة الكريم التى لم تمس من قبل ، ومالت فى اتجاه المرآة ويدها تدلك وجهها ..

وتوقفت يدها بغتة على خدها ، وازدادت اقترابا من المرآة . وتأملت الوجه الذى يطالعها ، الى العينين اللتين تلمعان كعينى قطة متوحشة فى الليـــل ، والى الشفتين اللتين تبرزان فى اســتدارة ، وقد دب اليهما الاحمرار ، والى الوجه الذى يتوهج بالدم ، والى الصدر الذى يرتفع وينخفض فى سرعة وفى عنف ، وكان نبضها قد ارتفع فجأة .

وتراجعت ليلى عن المرآة .. الى أين تذهب ؟ الى أى مصير تندفع بهاتين العينين المتوحشتين ، وهذا الصدر المتهدج ؟ الى الخراب .. قال أبوها .. الى الخراب ..

ومدت ليلى يدها تمسح حبات من العرق تجمعت عـــلى جبينها . وسارت بخطوات متلصصة الى السرير وكأنها تخشى أن يهاجمها أحد ، وعلى طرف السرير انهارت ..

وكأنها لم تجرب ، وكأنها لم تتعلم ، وكأنها لم تقاس من الاندفاع ، من خلف ظهر أبيها تخرج ، ومن خلف ظهر محمود وأمها . تخرج على الأصول لتقابل حسين . تخرج بقدميها وبمحض ارادتها لتسعى الى الألم والى الشعور بالضياع وبالهوان .

تمشى اليوم مع حسين ، ومن قبل حسين عصام ، وفى الغد مع أى رجل ، أى رجل يهمس فى أذنيها بكلمات معسولة . وكأنها كلبة تتبع كل من يشير اليها .

ولكن حسين ؟! حسين مختلف ، حسين يحبها .. وعصام ألم يكن يحبها أيضا .. ؟!

الحب ! .. ألم تعان من هذه الخرافة ما فيـــه الكفاية ؟ ألم تكن سعيدة وهى مكتفية بذاتها ، لا يستطيع احد ان يؤلمها أو يؤذيها ومع ذلك فهى تسعى اليوم الى النار بقدميها وكأنها لم تجرب ، وكأنها لم تتعلم وكأنها لم تقاس ..

ومالت ليلى برأسها الى جانب تتسمع خطوات تدب فى العشة .. لقد استيقظ محمود ، وحسين يستعد للخروج ..

واحنت ليلى رأسها على رقبتها ، وكزت على شفتها .. فليذهب من حيث جاء ، ويتركها فى حالها . لن تفنى نفسها فى أحد ، لن تذل نفسها لأحد ، لن تضع رقبتها بين يدى أحد . ستظل كما هى سيدة نفسها ، مكتفية بذاتها ، لا يستطيع أحد أن يؤلمها أو يعذبها .

* * * *

ووصلت أصوات الى ليلى ، وبدأت تتسمع من جديد .

كان محمود يصمم على اصطحاب حسين ، وحسين يحاول أن يتخلص

ودوى صوت حسين منتصرا مزغردا وهو يفصل فى المناقشة التى دارت بينهما :

— أنا عايز كده يا محمود ، عايز أطلع فى الصبحيه الجميله دى لوحدى ..

وضاقت عينا ليلى ، انه منتصر ، متأكد أنها هناك تنتظره . لقد أشار اليها وهو متأكد أنها ستتبعه .. ولكنها لن تكون هناك ، لن تتبعه ، لن ...

وسرت رجفة فى جسد ليلى ، جاءها صوت حسين عميقا خفيضا .. دافئا .. وهو يقول :

— حا توحشنى يا محمود ..

وقال محمود :

— انت طبعا حا تكتب لى بانتظام ..

— طبعا ..

ودارت ملعقة محمود فى قدح الشاى ، والصمت يسود الصديقين ، وقال محمود بصوت مرتجف :

— انت بالنسبة لى يا حسين أكثر من صديق ، انت اللى خلتنى أطمئن ، وأفهم أن الدنيا بخير .

وصعد الدم الى رأس ليلى . وقفزت من مكانها واقفة .. يجب ، يجب أن تشكر حسين ، يجب أن تقول له : مع السلامه .

وقال حسين وهو يقف :

ــ أشوف وشك بخير يا محمود ·

وجرت ليلى الى باب حجرتها ، ومدت يدها الى مقبض الباب المغلق تفتحه ··

واكتشفت أنها لا تستطيع أن تخرج لحسين ، لا تستطيع أن تمد يدها اليه وتصافحه ، لأنهـا غير مستعدة ، لأنها عارية بمـلابسها الداخلية ·

وسمعت ليلى محمود يصيح فى الفراندة ، وكأنه يضع كل كيانه فى كلماته :

ــ مع السلامة ، مع السلامة يا حسين ·

وانقبضت يد ليلى على مقبض الباب المغلق ·

١٣

وفى الأيام التى تلت سـفر حسين لم تشعر ليلى بشىء ، وكان حواسها قد تخدرت · وكأنها فقدت القدرة على الحس · وكلما ذكرته هزت كتفها بلا مبالاة ، وانصرفت الى شأن من شئون البيت ، أو الى كتاب تطالعه · واستمرت عـلى هـذه الحال أسـبوعين ، الى أن جاء يوم كانت فيه متمددة على مقعد طويل فى الفـراندة ، تطالع الجريدة الصباحية · وكان أخوها يقف الى جانب السور يتطلع الى البحر الممتد تحت مرمى البصر ·

وتمطى محمود واستدار يواجهها وهو يقول :

ــ يا بخت حسين ، زمانه دلوقت فى البحر ·

ولم تقل ليلى شيئا ، استقامت فى جلستها ، وأسقطت الجريدة من يدها ، وقامت واقفة · وفقدت القدرة على الاستقرار فى مكان واحد أو على شىء واحد ··

وصرخت فيها أمها :

- جرى لك ايه ٠٠؟

كانت تتحرك على المقعد كما لو كانت محمومة ، تعتدل فى جلستها بمعدل مرتين فى الدقيقة ، وتقوم لتجلس لتقوم من جديد ٠ وتفتح الكتاب لتطويه فى ملل بعد دقائق ، وتأكل فى غير مواعيد الأكل ، وتشرب دون ظمأ ، لتجد شيئا تفعله ٠ وتخرج لتتمشى ، وما تكاد تخرج حتى تعود من جديد ، وتنزل الى البحر لتخرج منه بعد دقائق ٠

ووجدت دائما سببا تبرر به مسلكها ، هذا المقعد غير مريح وهذا الكتاب سخيف ، والشمس حارة ، والبحر قذر ٠

وقالت سناء :

- اذا كان البحر مش عاجبك نروح بكره الصبح الجربى ٠

وحبذ محمود الفكرة ، ووافقت ليلى ٠

* * *

وشق الشراع الهواء ، واندفعت المركب الى الأمام فى اتجاه الجربى

وبدأ محمود يتكلم ، وسناء تنصت اليه باهتمام ، وقد أسندت رأسها الى يدها ، ورفعت اليه عينيها ٠

ولم تحاول ليلى أن تنصت الى كلامهما ، كانت تتطلع الى ذلك الجانب من شارع النيل الذى تمر به المركب ٠٠ السينما وعلى واجهتها لوحة كبيرة فيها امرأة عارية الصدر تبتسم فى بلاهة ، وصالات لفنادق متشابهة متكررة لا يجلس حول موائدها أحد ، وأحذية وصنادل وشباشب متراكمة ، وفترينات تلمع فى أشعة الشمس وهى تزخر بالحلويات الدمياطية ٠٠ الهريسة ، والبسبوسة ، والمشبك ٠ وأكشاك لبائعى الكوكاكولا والفول والطعمية واعلان يقول : قف ٠ هنا سندوتش بطارخ ٠

كل شىء معد بعناية وكل شىء ينتظر ، ولا أحد يقف ، ولا أحد يشترى ، والمرأة فى اللوحة تبتسم فى بلاهة والسوق فى هذه الساعة من الصباح قد خلت من الناس ، بل حتى من الباعة ، وبدت خاوية كمدينة مهجورة ٠

وقامت سناء الى مقدمة المركب ، وخلعت البرنس وتمددت على ظهرها وقد كشفت عن جسمها ، وغطت وجهها .

وتطلعت اليها ليلى .. لقد تمددت بنفس العناية المدروسة التى تتصف بها كل حركاتها ، وكأنها قد درست الزوايا التى تبرز جمال جسمها الصغير الأبيض المتناسق الملفوف . انها تدرك أن جسمها جميل وتحبه وتعتنى به وتدهنه بالزيت قبل أن تتعرض للشمس وبالكريم بعد أن تستحم . وتقيس وسطها كل يوم وتنزعج اذا زاد عن معدله . وتنصرف الى الألعاب الرياضية ، وتحرم نفسها من الطعام حتى يعود كما كان . وهى لا تخفى حقيقة اهتمامها بجسمها وعندما تسخر منها عديلة تبتسم فى اطمئنان وتقول :

- أنت ليه عايزانى انكسف من جسمى يا عديله ..؟

كما لو كان من الطبيعى ألا يخجل الانسان من جسمه ..؟!

وتمطت سناء وقالت دون أن تكشف عن وجهها :

- الجو جميل بشكل النهارده ..

وتطلعت ليلى الى محمود ، وهى تتوقع أن ترى عينيه مركزتين على جسم سناء ، ولكنه كان يلعب بيديه فى الماء وينظر وفى عينيه نظرة حالمة الى مجموعة من سفن الصيد المتراصة فوق الرمال .

واستدارت ليلى بدورها تتطلع الى السفن .. حطام سفن لا تستطيع أن تنزل الى الماء ، وفى الصحراء تقف وحيدة عاطلة مشلولة معزولة عن الماء ..

وتنهد محمود فى ارتياح وهو يستوعب منظر السفن فى ذاكرته ، وبدت له وطلاؤها الأبيض يلتمع فى أشعة الشمس كطيور بيضاء ضخمة جميلة ، استرخت على الشاطىء تستريح ، لتعاود طيرانها من جديد ..

وقال محمود لسناء :

- شفت المراكب دى .. ؟

وكشفت سناء وجهها ، وجلست ترقب المراكب فى حنان وكأنها تربت عليها بنظرتها .

وامتد شط الجربى تحت أنظارهم ، وقد ازدحم بالناس ، يسبح بعضهم فى النيل ويجلس البعض الآخر حـــول الموائد المتفرقة تحت مظلات واسعة ..

وقالت سناء والفرحة تتراقص فى عينيها :

ــ وصلنا ..

* * * *

واختار « الريس » بقعة هادئة نسبيا . وشد المـــركب الى وتد وأرسى السقالة . ولكن ســناء قامت واقفة وقفزت من المركب الى الماء مباشرة ..

وقال محمود لليلى :

ــ ياللا بينا ..

ودون أن ينتظر جوابها قفز الى الماء .

وتحاشت ليلى رشاش الماء بيدها ، وبرزت سناء من الماء ، واستندت على طرف المركب بيديها .

ــ ياللا يا ليلى . دى الميه جميله جدا .

ــ مش دلوقت . بردانه . بعدين ..

وانضم محمود الى سناء يتشبث بالمركب بدوره ، ومالت المركب فى اتجاههما ، وصرخت ليلى فى غيظ :

ــ حاسب يا محمود .. جرى ايه ..

وهز محمود كتفه واستدار وبدأ يعوم ، ولحقت به سناء .

كانا يعومان فى رفة متناهية ، وكأنما يخشيان أن يلطما الماء الذى يلفهما سويا فى راحة لذيذة ، أشبه بالاسترخاء .

وقال محمود :

ــ أنا أقدر أعوم كده لبكره

وضحكت سناء ..

ـ عرفت ازاى ؟ ·· أنا كنت با أفكر نفس الفكرة ··

كان شيئا ماقد بدأ يسرى بينهما ، حين أتيحت لهما الفرصة ليتعرفا على بعضهما معرفة وطيدة فى رأس البر · شىء هادىء لذيذ ، يتسلل ببطء شديد ، وينمو مع الأيام · شعور بالارتياح وبالانتماء وبالحاجة المتبادلة · شىء أشبه بالظل لفهما سويا ، ليس فيه حرقة ولا لوعة ولا أرق ولا حنين جارف مضن ··

كان محمود ينظر الى وجه سناء الصغير ، الى شفتيها الرقيقتين اللتين تطبقهما فى اصرار ، والى أنفها الصغير الذى يرتفع طرفه الى أعلى فى كبرياء ، والى عينيها الصغيرتين المستقرتين فى اطمئنان ، والى شعرها العسلى الناعم المنسدل فى خطوط مستقيمة ، ويشعر كما لو كان قد وصل بعد كفاح الى بر الأمان ·

وكانت سناء ترى اللمعة فى عينيه الخضراوين الحائرتين ، والبسمه المرتبكة على شفتيه الرقيقتين ، والكبرياء فى لفة وجهه الخمرى الوسيم وتود لو استطاعت أن تأخذه بين ذراعيها ، وتربت على شعره وتهننه وتدلله حتى تطمئن العينان الحائرتان ، وحتى تتسع البسمة المرتبكة فتصبح ضحكة كبيرة منطلقة ·

* * * *

وراقبتهما ليلى وهما يبتعدان ، وشعرت أن شيئا ما يلفهما معا وينأى بها عنهما ، ويعزلها وحيدة ضائعة تائهة · وحاولت أن تناديهما وجمد النداء على فمها · وأطبقت جفنيها على عينيها ، وجلست منكمشة كما لو كانت تنتظر شيئا تخشاه ·· وطفا على السطح الشعور بالوحدة الذى كبتته طيلة الأسابيع الماضية ، جبارا عاتيا ·

وأبقت ليلى عينيها مطبقتين كما لو كانت تخشى أن تفتحهما على صحراء جافة شاسعة ، وأصاب وجهها رشاش ماء ، وفتحت عينيها على وجه يرقص بفرحة الحياة ، وجه طفل يداعبها ·

وأمسكت ليلى فى غضب بالمجداف وانهالت به على الطفل ، ولكن الطفل غاص تحت الماء وأفلت منها ، وهو يلوح لها بيده ، ويضحك ضحكة طليقة مجلجلة ، عمقت من شعورها بالوحدة والعزلة ·

وكذلك الناس الذين يعج بهم الشاطىء ، كانوا بدورهم يعمقون من

شعورها بالوحدة ، هؤلاء الاطفال الذين يتسابقون فى السباحة ، وفى أعينهم نظرة خطيرة ظامئة وكأن مصيرهم معلق على هذا السباق • وهذه المرأة التى لا تستحى ، والتى أسندت رأسها الى حجر رجلها ، واسترخت فى نومتها ، فى اطمئنان وكأنها تنام فى مخدعها ، وكأن عيون المارة لا تأكلها • وهذه الفتاة التى تضحك ضحكات قصيرة بلهاء بلا توقف ، وكأنها فقدت السيطرة على نفسها ، أو كأن رفاقها الشبان يدغدغونها ••

وأفاقت ليلى على جسم مرن يرتطم برأسها ، ورأت كرة من المطاط تتطاير مرتدة الى الماء ، والصبى الشقى الذى عاكسها يستعيدها وحوله زفة من الاطفال يهمسون ويضحكون عليها ، وكأنهم أدركوا بحاستهم أن شيئا ما يفصلها عن بقية الآدميين الذين يعج بهم الشاطىء

وغلى دم ليلى بالغضب وقالت :

- يا ريس ••

ولم يلتفت اليها المراكبى ، كان يجلس منصرفا عنها وفى عينيه فرحة ساذجة وكأنه يشارك المصيفين لهوهم •

وعادت ليلى تقول فى لهجة أشد عنفا :

- أنت ••

والتفت اليها الريس مندهشا

وقالت :

- حط السقاله وانزل ••

- والمركب •• ؟

- حا اطلع بيها ••

- لوحدك •• ؟

وقالت ليلى فى حدة :

- أيوه لوحدى ••

* * * *

وجلست ليلى فى وسط المركب وقد تصلب جسدها وشدت

قبضتيها على المجدافين ، وبدأت تلطم الماء ، لطمة بعد لطمة فى سرعة وفى قوة ، بكل قوتها ، وبكل كيانها وكأنها فى سباق .. وكأنها تهرب من خطر يلاحقها ..

وتعمقت ليلى فى النيل بعيدا عن الناس .

وتوقفت تستجمع أنفاسها ، وحبات العرق تلتمع على وجهها وتلفتت حولها ... ماء ولا شىء سوى الماء ، ماء من كل جانب يحيطها ويحاصرها يخنقها وكأنها استوعبته فى كيانها وتسرب من فمها الى رئتيها .

وارتخت قبضتاها على المجدافين .. الى أين تذهب ؟ الى أين تهرب ؟ .. وممن ؟ .. من الناس ! الوحدة معها وهى وحيدة ، والوحدة معها وهى مع الناس . الوحدة فيها هى ، فى نفسها ، فى أعماقها ، فى دمها كالسرطان تنمو وتتضخم .

وانكفأت ليلى على وجهها وهى تحتضن المجدافين ..

حسين هو السبب .. نعم حسين هو المسئول ، قبل أن تعرفه كانت مكتفية بنفسها ومطمئنة ومرتاحة الى هذا الوضع . ورجته أن يتركها فى حالها ، أن يبتعد عن طريقها ولكنه لم يبتعد .. وذهب وخلف لها وحدة تنهش في جسمها وشعورا بأن شيئا عزيزا ضاع منها شيئا لا تستطيع أن تعوضه .

قال حسين انها فقدت اللمعان فى عينيها والاشراق فى وجهها ولكنها فى الحقيقة فقدت أكثر من هذا ، أكثر من هذا بكثير ، فقدت المحبة ، محبة الناس والاطمئنان والاستقرار . ولم يتبق لها شىء سوى الوحدة والشعور بفداحة الخسارة .

لو لم يذهب ، لو بقى الى جانبها .. وهزت ليلى رأسها فى يأس وما الفائدة ؟ كانت وحيدة وهو معها ، وهو يحدثها عن حبه ، مرة واحدة فقط اتصلت به ، اندمجت معه ، حين مر بيده على ذراعها وقال « أنا مستنيك يا حبيبتى ، طول عمرى مستنيك » .

وحتى هذا الاندماج لم يدم ، وكأنه كان حلما . تغلب عليها الخوف . خافت من محمود ومن حسين ومن الدنيا كلها وأفاقت ..

وأفاقت ليلى على المجداف يفلت من يدها اليمنى ، وينزلق على

جـدار المركب .. وانبعثت فيها كالمارد قوة جبارة ، قوة لا عهـد لها بها ، قوة لم تكن تحلم بأن كيانها يحتويها ، قوة جعلتها تتحدى النيل وكأنه ند لها ، وكأنهما قوتان متساويتان يتصارعان . في لحظة واحدة كانت قد شـدت بقبضتها اليسرى على المجداف ، ومالت بكل جسـمها الى جانبها الايمن لتنتشل الآخر . وانحرف المركب أثر ميلها المفاجيء وارتفع الماء تدريجيا يقارب حافته ، وهي تحاول انتشـال المجداف وتساوى سطح الماء مع جدار المركب .. واعتدلت ليلى والمجـداف في يدها . وتنهدت في ارتياح وارتخت في جلستها . وأحست اذ ذاك فقط برعدة الخوف ترتجف في جسمها .

واستدارت بالمـركب عائدة ، وهي تجـدف في بطء واتزان ، والتيار يدفعها الى الامام . وسرح نظرها في الأفق البعيد وهي تفكر في التجربة الأخيرة التي مرت بها .. من أين جاءتها هذه القدرة على التصرف ؟ على العمل في حزم وفي قوة وفي سرعة وبلا تردد ؟ من أين؟

وهزت ليلى رأسـها في تعجب وهي لا تكاد تصدق أنهـا واجهت الموقف بهذه الشجاعة . انها ترتبك عادة أمام أتفه الأمور وتفقد القدرة على التفكير وعلى العمل وتغطي وجهها بيدها وتستسلم لمصيرها ، فكيف تصرفت والأزمة تواجهها كما يجب أن تتصرف تماما ؟ بكل سرعة وبكل دقة وبكل قوة ؟ .. وكأن التي تصرفت ليست هي وكأنها انسـانة أخرى ؟.. انسانة أخرى ؟! انسانة أقوى ترقد في أعماقها !

وقال محمود :

ـ جرى ايه يا ليلى ؟ احنا قلقنا عليك خالص ..

كان قد سبح هو وسناء في اتجاهها حين لمحاها تتجه بالمركب الى الشاطيء . وهزت ليلى رأسها وكأنها تصحو من حلم حين رأت نظـرة اللوم تعقب نظرة القلق في عيني محمود .

وقال محمود وقد جمد وجهه والمركب تعود بهم الى رأس البر :

ـ انت مش حاتبطلي التصرفات الغلط دي ؟! كان ممكن تغـرقي وانت لوحدك كده ..

وسرت رجفة الى جسم ليلى ، وأشاحت بوجهها بعيدا ، وقالت وهي تهمس وكأنها تخاطب نفسها :

ـ كنت فعلا حا أغرق ..

١٤

التحقت ليلى وسناء وعديلة بقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة ..

ومنذ اليوم الأول لافتتاح الدراسة تكتلن وظهرن كشلة متميزة لا تكاد تفترق فى الكلية . تختلط مع الطلبة والطالبات فى حدود مرسومة ، لتبقى دائما شلة محدودة المعالم .

واذا أراد طالب أن يتقرب من واحدة من الشلة ، فعليه أن يتقرب الى الشلة مجتمعة ، واذا استثقلت دمه واحدة منهن فعليه أن ينسحب. واذا رغب أن يتحدث الى واحدة منهن ، فعليه أن يقول ما يريد أن يقول أمام الشلة مجتمعة والا فلا . اذ لا أسرار هناك بين أفراد الشلة . واذا دعيت واحدة الى حفل أو نشاط اجتماعي دون الأخريات فلا تذهب لأن الشلة شلة ..

وعامل الطلبة والطالبات الشلة كشلة . الشلة تحب هذا وتكره ذلك ، الشلة تفعل هذا ، ولا تفعل ذلك ، وكأنهن انسان واحد لا ثلاث بنات كبار ، لكل منهن شخصيتها المنفردة المتميزة ، ولكل منهن عالم تكشف منه ما ترتئى ، وتحجب منه ما ترتئى ..

* * * *

وكانت عديلة أطولهن . عريضة البنيان بلا امتلاء ، بيضاء ذات عينين سوداوين كبيرتين ، تغطيهما أهداب سوداء سخية . قوية الشخصية ، بحيث يدرك من يراها قوة شخصيتها للوهلة الأولى متكلمة قوية الحجة ، لا تترك انسانا دون أن تقلده تقليدا يثير الضحك من الأعماق . ولا يفوتها ظل من ظلال الفكاهة فى أى سلوك انسانى أو أى وضع اجتماعى ، دون أن تلتقطه وتبلوره وتجعله مصدرا من مصادر الضحك بين الشلة لمدة سنين .

وكانت واقعية أيضا وعملية بشكل جعل سناء تقول انه يكفى أن تلمس عديلة أروع قصيدة شعر لتستحيل القصيدة الى مسألة حساب . ولم تكن ترغب فى الالتحاق بقسم فلسفة ، كانت تريد أن تلتحق

بقسم (يأكل عيش) كما تقول ولكن المجموع لم يترك لهـا فرصـة الاختيار .

وكانت هى التى تشرح ما يستحب وما لا يستحب للشلة ، وما يصح وما لا يصح . وهى التى تختار وتستبعد المعارف ، وتحافظ على سمعة الشلة ، وتجعل من حياتهـا فى الكلية وخارج الكلية ضـحكة متصلة .. !

ولكن ضحكة عديلة لم تكن تخلو من مرارة ، واتجاهها العملى لم يكن سوى ضرورة أوجبتها عليها الظروف ، وتحت هذا المظهر الصلب الصلد ، العدوانى أحيانا ، كان يخفق قلب يحن الى الحب كقلب كل فتاة ، ولكنها كانت تخفى هذه الحقيقة فى عناد .

كانت تقول ان الحب وسيلة المترفين لتضييع الوقت ، وان ليس لديها وقت تضيعه . كان عليها أن تساعد أمها فى شئون البيت وأن تعمل لتتخرج سريعا ، ولتشتغل ولتكسب مالا تسد به ديون أمهـا الأرمل ، وتساعد به أخوتها الذين يصغرونها سنا .

والحياة ليست حلما ورديا ولا قصة غرامية ، الحياة حقيقة عارية أفواه مفتوحة تطلب الغذاء والكساء والتعليم ، ومعاش ضئيل لا يزيد على سبعة جنيهات ، وأب مات فجأة بعد أن فقد وأفقد الأم كل ما كانا يملكان من مال ، ومستوى اجتماعى يجب الاحتفاظ به حتى لا يشمت الأقرباء والأعداء ..

* * * *

وكانت سناء مختلفة عن عديلة ، وكأنهما تقفان على طرفى نقيض !

كانت تحب الشعر والموسيقى والأدب والتحف الفنية الجميلة ، وكل ما هو جميـل .. وكانت تهتم بمقاييس جسمها ، وبتجميله وبالطريقة التى تلبس بها ، وتقضى وقتا طويلا فى اختيار كل ثوب من أثوابها ، وتضفى عليه طابعا منفردا يميزه ، بالطريقة التى تربط بهـا الحزام ، أو بالوردة التى تحليه ، أو (بالايشارب) الرقيق الذى تربطه حول رقبتها ، وتترك طرفيه القصيرين يتطايران على كتفيها فى الهواء .. ولم تكن تبخل على نفسـها بشيء ، كانت تحب الاشـياء الصـغيرة

الجميلة ، كيس النقود الذهبى الصغير كشبكة الصياد ، وساعة على شكل أيقونة تتدلى من عنقها ، وعطر جميل تنبعث رائحته من منديلها .

وكانت متيسرة بالنسبة لعديلة وليلى ، وساعدها ذلك على احاطة نفسها باطار من الجمال الذى تحبه ، والذى أفلحت فى الاحتفاظ به حتى بعد أن تغيرت حالتها المالية .

وكانت تحب الخيال أيضا ، وتستعين به اذا لم يسعفها الواقع وتعيش فيه ساعات طويلة ، وتحب الحب ..

وقبل أن تحب محمود ، أحبت روبرت تايلور وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، وحفرت الحرف الأول من اسمه على ظهر يدها بالموسى وتركت الدم ينبع دون أن تقربه ، حتى يستقيم حرف الراء حين يجف الجرح . وكلما زال أثر الجرح ، جرحت نفسها من جديد .

وكانت قليلة الكلام ، تنصت أكثر مما تتكلم ، ويبدو وجهها الأبيض الصغير هادئا ، ونادرا ما يعكس الانفعالات العنيفة التى يضطرم بها جسمها الصغير الممتلىء .

وكان الناس يحسبونها خجولا ، ولكنها كانت فى الحقيقة معتزة بنفسها . ولم يكن ذلك الاعتزاز كبرياء ولا تعاليا ، وانما كان شعورا هادئا مطمئنا ، ينبعث من ايمان مطلق بصحة تصرفاتها . وكانت تنساق لعديلة ولليلى فى الامور الصغيرة بلا مناقشة ، مما جعلهما يعتقدان أنها سهلة القياد . ولكن هذا الانسياق لم يكن فى الحقيقة ضعفا ، كان كرما ينبعث من رغبة أكيدة فى ارضاء من تحب .

ولم تكن عديلة تظن ولا ليلى أن هذه الفتاة الصغيرة الرقيقة الشفتين السهلة القياد ، التى تعيش فى الخيال ، تطوى ضلوعها على عزيمة جبارة وعلى قدرة عملية ، لا تقل عن قدرة عديلة .

كانت تعرف ماذا تريد وكيف تصل الى ما تريد وكيف تحتفظ به

* * * *

وعندما توطدت علاقة سناء بمحمود فى رأس البر ، اكتشفت أنها لا تستطيع أن تعيش من غيره ، قبل أن يكتشف محمود هذه الحقيقة بشهور ..

وكانت العلاقة التى قامت بينهما مختلفة عن الحب الذى تصورته دائما ، الحب المصحوب بالحرقة واللوعة والغيرة والشك والأرق ، الحب الذى عرفته عن طريق روايات السينما وروايات الغرام • كانت شيئا هادئا حلوا نمى نموا مطردا وفصلها عن الخيـــال ، وربطها بالأرض ، وجعلها تشعر لأول مرة فى حياتها ، أنها تسير على أرض صلبة وجميلة فى ذات الوقت ••

وعلى هذه الأرض انتوت أن تعيش طوال حياتها •

وعندما عادا الى القـــاهرة كانت تراه فى البيت حين تزور ليلى وتنفرد به أحيانا حين تتعمد ليلى تركهما معا • ولم تقتنع ســناء بهذه المقابلات العابرة ، واقترحت أن يتقابلا فى الخارج • وبدت الدهشة على وجه محمود لحظة ، وقال شيئا عن سمعتها ، وضرورة صيانتها •

وركزت هى عينيها الصغيرتين فى عينيه وقالت :

ـ أنت عايز تقابلنى ولا لأ •• ؟

ـ طبعا عايز ••

ـ خلاص ••

وكانت تعنى ما تقول ، فمنذ أن بدأت تحب محمود لم يعد هناك شىء له قيمة سوى محمود • وكأنها لم تعد ترى الا من زاوية واحدة الزاوية التى تصلها بمحمود • وأصبحت أفكار محمود أفكارها وانفعالات محمود انفعالاتها ومشاريع محمود مشاريعها •

وبدءا يتقابلان بانتظام فى صالة فندق المتروبوليتان • ويجلسان فى ركنهما المختار فى الضوء الخافت • ويتكلم هو أغلب الوقت ، وتنصت هى أغلب الوقت ، وهى تحتضن بعينيها الهادئتين كلامه •

ونمت يوما بعد يوم فى كيانه حتى أدرك يوما أن لا غنى له عنها • وكانت تعرف طوال الوقت أن ذلك اليوم آت ، ولكن حين أتى ، ارتجف فى أعماقها حب جديد ، فوق الحب القديم ، حب أشبه بذلك الذى يعمر قلب الشهيد • وقالت لمحمود :

ـ عارف يا محمود ؟ أنا نفسى أعمل حاجة تثبت لك قـــد أيه أنا با أحبك • نفسى أموت نفسى عشانك ••

وأمسك محمود بيدها في حنان وقال :

– أنا عايزك تعيشي عشاني يا سناء ، أنا من غيرك ما أساويش حاجة ..

وكان هو يعني ما يقول . كان يشعر وهي معـــه أنه قوى ، وأنه قدير وممتاز ووسيم ، وأن الدنيا من حوله مليئة بالحب ، وبالاخلاص والتضحية والجمال.وأن القيود التى كانت تربطه بالأرض وبالخوف وبالشك وبالحيرة وبالقلق ، قد انحلت فجأة ، وأنه يستطيع أخيرا أن ينطلق ، وأن يطير لو اقتضى الا مر .

وتتطلع اليه سناء وترى العينين الحائرتين وقد استقرتا ، والتمعتا بالثقة الباسمة . وتحتضن بعينيها عينيه ، وأحلامه والفرحـــة التى تضطرم في قلبه . وتطوى عليها جوانحها وتعيش بها ولها وفيها ، فى عالم أخفته عن عديلة ولا تعرف عنه ليلى الا القليل .

فليلى لا تعرف أنهما يتقابلان فى الخارج ولا تعرف أنهما يحلمان بمستقبل يجمعهما . ولا تعرف أنهما يناقشان فعلا التفصيلات العمليه

وكان من المفروض أن تخبر سناء ليلى بكل هذه التفصيلات ، ولكنها لم تخبرها ، توقف الكلام على شفتيها في كل مرة همت فيهـــا بفتح الموضوع لليلى ، كانت تشعر شعورا غامضا أن ليلى لن تفرح لفرحتها ، ولن تنفعل لانفعالتها ، ولن تحلم معها كشأنهما دائما . كانت تدرك أن شيئا ما قد فصل ليلى عنها ، وجعلها أقرب الى عديلة منها اليها ، على عكس ما كان عليه الحال دائما ..

* * * *

كانت ليلى دائما أقرب الى سناء منها الى عديلة ، وفى داخل نطاق الشلة كانتا تكونان وحدة حقيقية ، وحدة يغذيها تقارب فى المزاج وفى المشاعر وفى الذوق ، وفى مفهومات الحياة . ثم حدث تطور بعد تجربة ليلى مع عصام . نأت ليلى عن سناء ، وانجذبت بكليتها الى عـــديلة . وقالت :

– عارفه يا سناء ، عديله أعقل واحدة فى الشلة بتاعتنا ، لو كنت سمعت كلامها ، ما كانش حصل اللى حصل ، كانت دايما تقـــولى ما تندلقيش . واندلقت زى الرطل ..

وفى واقعية عديلة الباردة وجدت ليلى العزاء ، ومع عديلة بدت لها الحياة سهلة بلا تعقيد ، ولا أوهام ولا آلام ، وكأنها مسألة حساب يتبع الانسان قواعدها ، فيصل الى الحل الذى لا يختلف عليه اثنان . والمهم أن يتبع الانسان هذه القواعد خطوة فخطوة ، فى دقة وفى تعقل وفى حرص ، وبعد تفكير ، ودون اندفاع ، والا غشت بصيرته واختلطت عليه الأرقام ، وتشابكت وتعقدت ، وأصابت الانسان حيرة لا مخرج له منها ..

والقواعد مرسومة معروفة تعرفها عديلة ، ويعرفها كل الناس . ومن يعرفها يعرف الفرق بين الخطأ والصواب ، ومن يتبعها يسير فى طريق الصواب ، حيث الاستقرار والاطمئنان ، وراحة البال ، والاحترام والثقة بأن الانسان على صواب ، لا صوابه هو فحسب ، بل صواب الآخرين ، كل الآخرين .

واذ ذاك لن يكون الانسان وحيدا ضعيفا . لن يواجه الحياة وحيدا ضعيفا ، بل مع الآخرين ، يسندونه فى كل خطوة يخطوها ويؤيدونه ويحمونه ، ما دام يتبع القواعد ، قواعدهم .

وعلى هذه الأرض الصلبة الى جانب عديلة وقفت ليلى بعد تجربتها مع عصام ، وفى نطاق القواعد المرسومة ، عاشت تتحصن ضد الحياة التى تخشاها ، وتكبت منابع الاندفاع والانطلاق فى طبيعتها ، وتواجه الحياة بوجه بارد وقلب بارد ، واحساس بارد ، وتصرفات محسوبة معدودة ، وبراحة نفسية مبنية على شعورها بانها على صواب ، وبأنها مكتفية بذاتها ، وان انسانا ما لا يستطيع أن يؤذيها ، أو يؤلمها .

ثم مر حسين بحياتها . ومسها تيار الحياة دافقا دافئا فوارا مثيرا مليئا بانفعالات حية ، لا يكاد يحلم بها من يتمسكون بالقواعد ويجيدون الحساب .

ووقفت ليلى على الشاطىء ترقب تيار الحياة وهو يتدفق . وشىء فى قلبها يثور ويتمرد ، يريد أن يصل ما بينها وبين تيار الحياة . وشىء فى عقلها يشدها الى الوراء ، ويطوقها ، ويحبسها على الشاطىء .

بقيت على الشاطىء ، ولكن تيار الحياة عمق من شعورها بالوحدة والعزلة ..

واشتد ارتباط ليلى بعديلة وكأنها تستمد من هذا الارتباط ، القدرة على الوقوف على قدميها . وازداد تباعدها عن سناء .

كانت عديلة تقف على أرض تستطيع ليلى أن تلمسها ، وأن تطمئن اليها ، وكانت سناء تحلق فى أجواء ، تخشى ليلى من مجرد التطلع اليها.

وفى عقل ليلى ارتبط حسين بهذه الأجواء ، فهو يقف هناك عاليا ينتظر ، ينتظرها هى ، وهى لا تستطيع ، ولا ترغب فى أن ترتفع اليه حيث ينتظر . حيث يعيش الانسان فى حمى مستمرة ، حيث لا يعرف أين يقف ، حيث يرى الاشياء على غير حقيقتها ، ويشعر بقوة ليست له وبجمال ليس فيه ، وبسعادة أكبر مما يتحملها كيانه . وحيث يرتبط بالسماء بخيط رفيع ، ينقطع فجأة ، ويسقط الانسان على الأرض .. حطام انسان ..

واستطاعت ليلى أن تخفى حقيقة حبها لحسين حتى عن نفسها ، وأن تكبت حنينها له ، أولا بأول .

وترسب الحنين طبقات فوق طبقات ، وكمن فى الأعماق مع رغبتها الدافقة فى الحياة ، وفى الانطلاق .

وعلى السطح طفت الخديعة التى عاشتها ليلى فى هذه المرحلة .

* * * *

نظرت ليلى الى ساعة الجامعة ، وهى تدخل من الباب الخارجى . ودقت الساعة معلنة العاشرة الا الربع . واتجهت ليلى الى المبنى الرئيسى بكلية الآداب ، وترددت قليلا وهى تصعد فى السلم الى الدور الثانى .. ليس من اللياقة أن يراها المحاضر ، وأن يدرك أنها كانت فى الكلية ولم تحضر محاضرته . ولكن كيف يدرك غيابها وفى المحاضرة عدد ضخم من الطلبة والطالبات ..؟

وزيادة فى الاحتراس توقفت ليلى على مبعدة من احدى الحجرات ووقفت تنتظر خروج سناء وعديلة .

وانفتح باب الحجرة ، وتزاحم الطلبة والطالبات فى الخروج ،

وضحكت فتاة صغيرة سمراء واسعة العينين ، كالقطة ، وقالت لزميلتها

ـ شفتي سوزى ، كانت عامله في نفسها ايه ..؟

ـ ما خدتش بالى ..

ـ كاشفه نصف صدرها ، ومغرقه نفسها بدرفان ، ومسبله عينيها للأستاذ طول المحاضره .

وقالت صديقتها ، وهى مغرقة فى الضحك :

ـ وأظن صاحبنا ولا هو هنا ، ان الجبل اتحرك ، يبقى يتحرك هو

ولكزتها الفتاة الصغيرة فى ذراعها منبهة ..

وانشق موج الطلبة المتدافع ، وظهر الدكتور فؤاد رمزى خارجا وهو يمشى فى خطوات بطيئة متزنة ، تتبعه سوزى برائحتها العبقة وفريق من الطلبة والطالبات .

ومشى الدكتور رمزى وقامته الطويلة منتصبة ، ووجهه الأبيض الشاحب البياض الوسيم ، خال من التعبير ، وعيناه الباردتان مصوبتان الى الامام ، وكأن هؤلاء الطلبة والطالبات لا يتبعونه ، وكأنهم لا يحادثونه ، وكأنه لا يسمع ما يقولون .

وبدا لليلى كما لو كان يمشى فى طريق خال ليس فيه غيره ، كما لو كان قد اختفى خلف صندوق زجاجى ، يعزله عن الآخرين .

واقترب الدكتور رمزى الى حيث تقف ليلى . ولم تدر كيف رآها وعيناه مصوبتان هكذا الى الأمام ، ولكنه رآها . وطافت عيناه حولها ثم استقرت عليها ، وكأنها تعاينها ، وكأنها تزنها ، بلا رغبة وبلا فضول ، وببطء وبعناية ، كما يعاين الانسان قطعة نقود فى يده ليتأكد أنها ليست مزيفة . وانزاحت العينان ، وتنفست ليلى فى ارتياح

ولكن الدكتور رمزى توقف أمامها وقال وهو يصوب نظره الى الأمام وكأنه لا يراها :

ـ كنت فين يا آنسه ..؟

واحمر وجه ليلى والدكتور رمزى يواجهها ، والطلبة من خلفه

يتطلعون اليها فى سرور وفى فضـــول ، وكأنها فأر وقع فى المصيدة وتمالكت نفسها ، وقالت فى صوت ضعيف :

- جيت متأخرة ..

- وبعدين .. ؟!

وأدركت ليلى أنه يسألها هذا السؤال ليحرجها ، وليصل الى مرحلة التقريع والتأنيب ، ولم تقل شيئا .

- تانى مرة ابقى نظمى مواعيـــدك . اللى عايز يتعلم ، ضرورى ينظم مواعيده ..

قال الاستاذ هذه الكلمات دون أن ينظر اليهـا ، وبصـوت بارد وكأنه يؤكد لها وللآخرين ، أنه فى حقيقة الأمر لا يهتم بها فى كثير ولا فى قليل ، سواء نظمت مواعيدها أم لم تنظمها ، انحرقت بنار أو لم تنحرق . وأعقبت النصيحة الغالية ضـــحكة من طالب ، انصرف الأستاذ على أثرها ، وترك ليلى والعرق يبلل جبينها .

ودارت عينا ليلى تبحث بلا جدوى عن عديلة وسناء . والتقت عيناها بعينى الطالب الذى ضـــحك ، عينين وقحتين جريئتين ، يعمقـان من شعورها بالوحدة .

وتركت ليلى المكان وهى تكاد تهرول .

* * * *

وانحرفت ليلى الى حجرة الطالبات ، ودفعت الباب ، وانهارت على أقرب مقعد . وألقت حقيبتها على الأرض بجانبها واحتفظت بمذكراتها فى حجرها . وبدأت تنظر الى الموجودات بطرف عينها ، وكأنها تخشى أن ترفع رأسها .

على المائدة وسط الحجرة جلست طالبة تنقل محاضرة من مذكرات مفتوحة أمامها ، والى يمينها جلست أخرى تلمع حـذاءها بقطعـــة من الصوف ، وفى مواجهتها واحدة تشرب الشاى فى قرف شديد ، وكأنها قد وجدت فيه عقربا ، وأمام المرآة وقفت زميلتها نوال أو - النحلة - كما يسميها طلبة سنة أولى فى قسم الفلسفة ، وقفت تسوى حاجبها الرفيع بطرف المشط .

والتقت عينا ليلى بعينى نوال فى المـــرآة ، وأشاحت ليلى بوجهها بعيدا ..

كانت عديلة قد قررت أن ســـمعة نوال بطالة فى الكلية ، وأن الاختلاط بها يسىء الى سمعة الشلة ، ومن يومها تجنبتها ليلى ، الا فى حدود تبادل التحية ..

ونقلت نوال المشط الى الحاجب الآخر وهى تسويه .

ـ صباح الخير ..

ولم تستطع ليلى وهى ترد على تحية نوال ، أن تتغلب على الضيق الذى كانت تشعر به اذ ذاك .

ولحظت نوال هذا الضيق ، وحسبته موجها اليها ، ورفعت حاجبيها فى استنكار ، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة ، واستدارت لليلى :

ـ لك جواب فى اللوحة .

وقالت ليلى فى تعجب واضطراب :

ـ جواب ! .. لى أنا .. ؟

واتسعت ابتسامة نوال ، وضاقت عيناها فى نظرة خبيثة :

ـ جواب .. أهو ..

وأشارت بيدها الى لوحة الخطابات ، وعادت تواجه المرآة تسـوى الثوب على جسدها الصغير ، وتشد الحزام على خصرها الدقيق دقة غير عادية ..

ووقفت ليلى أمام اللوحة . وأدركت من الطابع الأجنبى أن الخطاب من حسين .

ومدت يدا مرتجفة وأخذته ، ودسته فى مذكراتها ، واندفعت تجاه الباب .

ونادتها نوال وهى تتثنى ، وتمط فى مخارج ألفاظها :

ـ ليـلى .

وتوقفت ليلى على عتبة الباب مسمرة ، وكأن أحـــدا ضبطها وهى تسرق شيئا . ثم استدارت ببطء ورأت كوب الشاى وقد توقف عنـد فم صاحبته ، والفتـــاة التى تلمع حذاءها ، وقد ارتخت فى جلستها ، ووضعت ساقا على ساق ، وكأنها مقبلة على مشـــاهدة موقف مسل ، ونوال وقــد وضعت يدهــا فى خصرها ، وفى عينيهــا نفس النظــرة الخبيثة .. تقول :

ـ شنطتك ، نسيتى شنطتك .

وانحنت ليلى لتتناول حقيبتها الموضوعة على الأرض . وأطالت فى انحناءتها ، وهى تحاول أن تخفى اضطرابها ، ثم استقامت ، وخرجت من الغرفة وهى تكاد تهرول .

واستوقفتها طالبة فى الممر ، وقالت لها شيئا ، لم تفهم منه الا كلمة « عـــديلة » ، وتمتمت هى بشىء ما ، لم تدرك ما هو واســتمرت فى اندفاعها .

* * * *

لمحت ليلى حجرة دراســية خاليــة ، ودخلتها واختــارت مكانا فى آخرها ، وجلست ، فتحت الخطاب بيد مرتجفة ...

عزيزتى ليلى ..

لم أكن أريد أن أستعمل كلمة « عزيزتى » بل أردت أن أستعمل كلمة أخرى ، كلمـــة أقرب الى الحقيقة والى شعورى نحوك ولكننى خفت أن أخيفك وأنا أعرف أن من الســـهل اخافتــك . من السهل بشكل مؤلم ، مؤلم لى على الأقل .

وهذا أيضا هو سـبب ترددى فى الـكتابة اليـك ولـكن حنينى الجارف الى الوطن لم يترك لى الاختيـــار فقد أصبحت أنت رمزا لكل ما أحبه فى وطنى وعندما أفكر فى مصر أفكر فيك وعندما أحن الى مصر أحن اليك وبصراحة أنا لا أنقطع عن الحنين الى مصر .

أكاد أراك تبتسمين ، فأنت لا تصدقيننى . أليس كذلك ؟.. أنت لا تثقــين بى ، أنت تقيمين بينى وبينــك الحــواجز ، أنت لا تريدين أن تنطلقى وأن تتركى نفسك على سـجيتها ، لأنك تخشين أن تتعلقى

بى ، أن تفنى كيانك فى كيانى ، أن تستمدى ثقتك فى نفسك وفى الحياة منى ، ثم تكتشفى كيانك مدلوقا ـ كالقهوة ـ فى غرفتى .

وأنا أحبك وأريد منك أن تحبينى ، ولكننى لا أريد منك أن تفنى كيانك فى كيانى ، ولا فى كيان أى انسان . ولا أريد لك أن تستمدى ثقتك فى نفسك وفى الحياة ، منى أو من أى انسان . أريد لك كيانك الخاص المستقل ، والثقة التى تنبعث من النفس لا من الآخرين .

واذ ذاك ـ عندما يتحقق لك هذا ـ لن يستطيع أحد أن يحطمك لا أنا ولا أى مخلوق . اذ ذاك فقط ، تستطيعين أن تلطمى من يلطمك وتستأنفى المسير . واذ ذاك فقط تستطيعين أن تربطى كيانك بكيان الآخرين ، فيزدهر كيانك وينمو ويتجدد ، واذ ذاك فقط تحققين السعادة فانت تعيسة يا حبيبتى ، وقد حاولت ، ولم تستطيعى ، أن تخفى عنى تعاستك ..

لقد انحبست فى الدائرة التى ينحبس فيها أغلب أفراد طبقتنا ، دائرة الأنا ، دائرة التوجس والركود ، دائرة الأصول ، نفس الأصول التى جعلت عصام يخونك ، وجعلت محمود يشعر بالعزلة فى معركة القناة . وجعلت طبقتنا ، كطبقة ، تقف طويلا موقف المتفرج من الحركة الوطنية ، نفس الأصول التى تكرهينها وأكرهها ، ويكرهها كل من يتطلع الى مستقبل أفضل لشعبنا ووطننا .

وفى دائرة الأنا ، عشت تعيسة ، لأنك فى أعماقك تؤمنين بالتحرر ، بالانطلاق ، بالفناء فى المجموع ، بالحب ، بالحياة الخصبة المتجددة .

عشت تعيسة لأن تيار الحياة فيك لم يمت بل بقى حيا يصارع من أجل الانطلاق .

فلا تنحبسى فى الدائرة الضيقة ، انها ستضيق عليك حتى تخنقك أو تحولك الى مخلوقة بليدة معدومة الحس والتفكير ..

انطلقى يا حبيبتى ، صلى كيانك بالآخرين ، بالملايين من الآخرين ، بالارض الطيبة أرضنا ، وبالشعب الطيب شعبنا .

وستجدين حبا ، أكبر منى ومنك ، حبا كبيرا ، حبا جميلا .. حبا لا يستطيع أحد أن يسلبك اياه ، حبا تجدين دائما صداه يتردد فى

الأذن ، وينعكس في القلب ، ويكبر به الانسان ويشتد : حب الوطن وحب الشعب ..

فانطلقي يا حبيبتي ، افتحي الباب عريضا على مصراعيه ، واتركيه مفتوحا ..

وفى الطريق المفتوح ستجدينني يا حبيبتي ، أنتظرك ، لأني أثق بك ، وأثق في قدرتك على الانطلاق ، ولأني لا أملك سوى الانتظار .. انتظارك ..

حسين عامر

ملحوظة : -

أردت أن أكتب خطابا خفيفا ، ولكني وجدت نفسي أتفلسف بالرغم مني ، (وهذه نقيصة أخرى من نقائصي يمكن أن تضيفيها الى القائمة)

ولكن أنت أيضا تحبين الفلسفة وتحبين .. تحبين كل الأشياء التي أحبها ..

صدقيني يا ليلى لقد خلقنا لبعضنا .

* * *

وتناوبت مشاعر من الحنان والحزن على وجه ليلى ، وهى تقرأ الخطاب .. وعندما فرغت منه ، مالت بنصفها الأعلى وقد حدت النظر الى الأمام.

وأشرق وجهها وكأنها ترى رؤيا جميلة ، رؤيا بعيدة التصديق .. رأت نفسها تمشى بخطى جبارة الى باب مغلق فتدفعه . وتقف على أقدامها على عتبة الباب تتلقى أشعة النور تغمرها وتلفها ، وتتلفت لفتة أخيرة الى الغرفة المظلمة التي انحبست فيها ، فاذا بالنور قد أضاء جوانبها وتسير الى الأمام ، لا يخيفها انسان ولا يهينها انسان ، تلطم من يلطمها وتستأنف المسير .. !

ودقت ساعة الجامعة ، وانتصبت ليلى واقفة ، وكأنها تيقظت لتوها من النوم ، وطوت الخطاب ، وخرجت من الغرفة . ونزلت من على السلم الخلفى ، بخطى متماطئة .

وفى نهاية السلم كادت تصطدم بعديلة .

* * *

١٥

راجهت عديلة ليلى بوجه جامد ، وبشفتين مطبقتين • وجرتهـا من يدها حتى انتحيتا ركنا خاليا تحت السلم ، وقالت :

ـ جواب ايه اللى جالك ؟

ونظرت اليها ليلى فى دهشة ، ولم تقل شيئا •

واستأنفت عديلة كلامها :

ـ أنا كنت حا اضرب البت أم حواجب دى • ادخل أودة البنات ، أسال عليك ، تقوللى ، قدام عشرين بنت : صاحبتك جالها جواب أزرق •• وخرجت ملبوخه ••؟!

وأشاحت ليلى بوجهها ، وتنهدت ، وكأنها قد تلقت صفعة على وجهها •• ولمحت سناء تعبر الحديقة وهى تسير فى اتجاههما ، وقالت :

ـ ما فيش داعى تهولى المسأله يا عديله •

ـ لو كنت شفت الضحك والغمز ، كنت عرفت انى ما بهولش •

وقالت سناء وقد انضمت اليهما دون أن تشعر بها عديلة :

ـ مالكم مبلمين ليه •• ؟

ولم يرد عليها أحد • وأعادت السؤال :

ـ والنبى مبلمين ليه •• ؟

وقالت ليلى فى صوت ضعيف ، وقد تهدل كتفاها :

ـ جالى جواب ••

كما لو كانت قد قالت : « جات لى مصيبة »

وانفجرت سناء ضاحكة • ورمتها عديلة بنظرة قاسية • وقالت وهى تؤكد خطورة هذا الخطاب بالذات :

ـ جواب أزرق يا ستى ••

ولمعت عينا سناء وقالت وهى تضحك :

ـ لأ يا شيخه ••؟!

ومدت يدها الى ليلى تصافحها وهى تقول :

ـ طيب ايدك على كده بأه ..

وبقيت يدها معلقة فى الهواء ، نظرت اليها عديلة شزرا ولكزتها ليلى فى جنبها محذرة ..

وقالت سناء :

ـ ايه الحكايه ؟ ما تفهمونى ، كل المحزنه دى ، على جواب أزرق ؟!

وقالت ليلى موجهة الكلام الى عديلة :

ـ على فكره ، كل الجوابات اللى بتيجى من المانيا زرقه ، مش ده بس

وتهلل وجه سناء ، وأحاطت ليلى بذراعيها ، وقالت :

ـ من حسين ؟ .. من حسين يا ليلى .. ؟

وبدت فى عينيها فرحة حقيقية ، وكأنها هى التى تلقت خطابا من حبيبها ..

ـ بيقول أيه ؟ .. بيقول أيه يا ليلى .. ؟

وتطلعت عديلة الى ليلى ، تنتظر اجابتها على سؤال سناء ، وقد أنساها الفضول مؤقتا ، الفضيحة التي تصورتها ٠

واحمر وجه ليلى .. لا ، لن تطلع عديلة على خطاب حسين ، ولا سناء ولا أى مخلوق ٠ ان ما فى الخطاب سر بينها وبين حسين ، سر لا يعرفه غيرها وغيره ، ولن يعرفه غيرهما احد ٠ لو قرأت سناء الخطاب أو عديلة لخجلت منهما ، لشعرت كما لو كانت قد وقفت أمامهما عارية ٠

واطبقت ليلى شفتيها ، وأدركت عديلة أنها لن تتكلم ، وقالت :

ـ حايقول ايه يعنى ؟ الكلام اياه المحفوظ ، با احبك وبا اموت فيك ولا ليش غيرك ٠ وتلاقيه ما بيفوتش من البنات الالمان ٠

وابيضت شفتا ليلى ٠

وقالت سناء :

ـ يا شيخه حرام عليك ، هى الدنيا يعنى خلاص ، مافيهاش اخلاص

وضحكت عديلة فى سخرية :

— فيها يا ست سناء ، فى الروايات اللى بتقريها · تقدرى تقولليلى لما سى حسين بيحب ليلى ، ما طلبهاش من أهلها ليه ·· ؟

وقالت ليلى فى صوت مكبوت :

— كفايه يا جماعه ، أنا مش عايزه السيره دى خالص ·

ولكن المعركة كانت قد تطورت بين سناء وعديلة الى حد لا يمكن السيطرة عليه ·

وقالت سناء :

— يتجوزها ازاى ؟·· هى شروه ؟! اذا كانت دى واحده كاشفه وخايفه · يقول لها : با احبك · تقول له : ما با احبكش · يعمل ايه ؟ يشتريها ؟! الراجل منتظر ··

وكادت ليلى تصرخ وهى تقول : « كفاية » · آلمها أن تناقش عديلة وسناء موضوعا خاصا بها هكذا ، وكأنها غير موجودة ، وكأنها غائبة ، وكأنها قطعة من حجر لا قيمة لها ·

ولكن عديلة لم تهتم باحتجاج ليلى وردت على سناء فى سخرية لاذعة :

— مسكين حسين ؟ صايم ، مش كده ؟ ومنتظر لما المدفع يضرب ·· على العموم الشعر الأصفر والعينين الزرق ما تفطرش ··

وقالت ليلى وشفتاها ترتجفان :

— على العموم أنا ما يهمنيش ، شعر أصفر ، زفت ، قطران موضوع حسين دا كله ما يهمنيش · ومش عايزه حد يتكلم فيه ·

ونظرت سناء الى ليلى نظرة جانبية فيها حسرة ، ثم هزت كتفها فى يأس ، واستأنفت المسير ··

أما عديلة فلم يكن من السهل تثبيط همتها ، كان عقلها يستجمع الخطوط ، ويصل الى قرارات سريعة ، بشأن الخطوات العملية التى ينبغى أن تتخذها ليلى لمواجهة الموقف ·

★ ★ ★ ★

وفى عصر ذلك اليـــوم زارت عديلة ليلى فى البيت ، وقابلتها ليلى بجفاء ملحوظ ، كانت تدرك أنها ستضيق عليها الخناق ، وتجبرها على اتخاذ خطوة عملية ، وكانت تكره فى هذه المرحلة اتخاذ أى خطوة عملية•

وركزت عديلة نظرها على ليلى ، وقالت :

ـ حا تعملى ايه •• ؟

وأشاحت ليلى بوجهها بعيدا ولم تجب

وتكلمت عديلة ، قالت أن واجبها كصديقة ، يحتم عليها أن تنبـــه ليلى الى خطورة الموقف • وأن هناك حلا واحدا لا بديل له ، وهذا الحل هو أن تكتب ليلى لحسين خطابا ، ترجوه فيه أن ينقطع عن الكتابة اليها لأن تسلمها لخطاباته يسىء الى سمعتها فى الكلية •

وقفزت ليلى واقفة كالملدوغة •

واستأنفت عديلة كلامها بنفس الهدوء •• بل ان من المستحسن أن تكتب هى (أى عديلة) الخطاب بخط يدها ، وتمضيهباسم ليلى ، حتى لا يستخدم كسلاح يهدد استقرار ليلى فى المســتقبل ، حين تخطب أو تتزوج « ويا ما بيوت خربت بالشكل ده » •

واكتسى وجه ليلى بالرعب والاستنكار ، وقالت فى صوت ضعيف

ـ مستحيل •• مستحيل يا عديله •• انت ما تعرفيش حسين •

وأشاحت عديلة بيدها ، تستبعد كلام ليلى ، وقالت ان كل الرجال سواء ، وأن حسين ليس أفضل ولا أسوأ من غيره ، وان الاحتراس لم يضر أبدا أحدا •

وانهارت ليلى على مقعدها •

واستأنفت عديلة كلامها وهى تتساءل هل هناك حل آخـر ؟ •• واستبعدت أن تكون ليلى راغبة فى ايجاد علاقة بينها وبين حسين ، وفى تبادل الخطابات معه بصـــورة منتظمة ، لأنها ليست من هذا الطـــراز الرخيص من الفتيات اللاتى يستهن بالأصول ، فلا يفزن فى النهاية الا باحتقار الرجل • فما الحل اذا ؟ ليس هناك الا الحل الذى تقدمه ، الحل الذى يحسم الموقف حسما سريعا وفعالا •• واذا لم ترد ليلى على حسين

فسيعتبر هذا تشجيعا له على الكتابة ، وسيكتب بدل المـــرة مرات وتتسع الفضيحة في الكلية ، يوما بعد يوم ، حتى تصبح ســـمعة ليلى مضغة في الافواه . فهل هي مستعدة للتضــحية بسمعتها ؟ .. بأغلى ما تملك كل فتاة .. ؟

وسكتت عديلة لحظة بعد أن انتهت من عرض الموقف ثم قالت وهي ترقب ليلى :

ـ أيه رأيك .. ؟

واستندت ليلى برأسها على مسند المقعد وأغمضت عينيها ، وقالت :

ـ ما أقدرش .. ما أقدرش يا عديله .

وقالت عديلة بقسوة :

ـ ليه ؟ .. بتحبيه .. ؟!

وهزت ليلى رأسها في يأس ، وقالت :

ـ مش كده ، مش كده ..

ـ أمال أيه .. ؟

وفتحت ليلى عينيها ، ومالت بنصفها الأعلى في اتجاه عديلة ، ثم قلبت يديها ، وكأنها عجزت عن تفسير الموقف لعديله ، وقالت بصوت يختلط بنبرة البكاء :

ـ حا أقول ايه ؟ .. مش حاتفهمي .

وقامت عديلة واقفة ، وقالت :

ـ أصــلي حمارة .. على العموم ، أنا اللي على عملته ، وانت حــره في حياتك ..

وخرجت غاضبة .

* * * *

ولمدة أسبوع ظلت الحيرة تستبد بليلى ، والدموع تسيل من عينيها ، وهي تفكر ، في الترام وفي الشارع وفي البيت وفي كل مكان تنفرد

فيه ، والتفكير يسلمها الى مزيد من التفكير ، وهى لا تستطيع أن تنزل على رأى عديلة ..

وكانت ما تزال تفكر وهى تجلس بين عديلة وسناء ، فى محاضرة الدكتور رمزى ، وصوت الأستاذ يصلها من بعيد .. حجج عـــديلة واضحة ومقنعة ، ولكنها لا تستطيع أن تقذف فى وجه حسين بحبه لها ، لا تستطيع أن تطعنه بسكين ، وقلبه وكيانه متفتح لها ، لا تستطيع أن تضرب اليد التى امتدت اليها ، لا تستطيع أن تقطع خط النور الوحيد الذى يلتمع فى حياتها .

ان هذا يعنى نهايتها ، يعنى أن تبقى دائما فى الدائرة المغلقة فى الحجرة المظلمة ..

الدائرة المغلقة ؟! الحجرة المظلمة ؟! كـــلام فارغ ، أوهام . الدائرة المغلقة هى التى حبسها فيها عصام ، وسيحبسها فيها حسين يوما ما وهى الابتسامة الساخرة التى تواجهها بهـــا نوال ، حين تصادفها فى الممر ، وهى جفاف عديلة ، والاستنكار المرتسم على وجهها . هذه هى الدائرة المغلقة التى يجب أن تخرج منها .

ولكنها لا تستطيع ، لا تستطيع أن تؤلم حسين .. ويخفق كيان ليلى بالحنان ، وهى ترى ملامح حســين القوية تلين فى ابتســامته الجميلة فيصبح وجهه كوجه طفل رضيع .. أبدا لم يعاملها انسان بالرقة التى عاملها بها حسين ، ولم يعرفها انسان على حقيقتها ، كما عرفها حسين ، وكان الحجاب قد زال بينهما ، وكأنه يستطيع أن يرى ما بداخل أعماقها .. « صدقينى يا حبيبتى لقد خلقنا لبعضنا » .. لا انها لا تستطيع أن تؤلمه وأن . . .

وافاقت ليلى على سناء تلمس ذراعها ، والدكتور رمزى يردد اسمها « الآنسة ليلى سليمان » ..

وأدركت أنه قد وجه اليها سؤالا لم تسمعه ، وقفزت واقفة وقالت فى صوت حاولت أن تكسبه هدوءا :

ـ أرجو اعادة السؤال

وأعاد الدكتور رمزى السؤال ، ووقف ينتظر وعيناه يضيقان عليها الخناق ، لتعترف . وقالت ليلى بصوت خافت :

ـ آسفه .. ما تتبعتش المحاضره .

وقال الأستاذ :

ـ طبعا .. كنت سرحانة ..

وتعالت الضحكات فى الفصل ، ووجه الأستاذ نفس السؤال لطالب فى الجانب الآخر من المدرج .

ومالت نوال على سوزى وقالت شيئا ، وضحكت سوزى ثم استدارت لتواجه ليلى التى جلست خلفها ، وقالت هامسة وهى تبتسم :

ـ اللى واخد عقلك يتهنى به ..

ولكن ابتسامة سوزى ماتت على شفتيها ، حين نظرت اليها عديلة وقالت فى صوت مكتوم :

ـ اتعدلى أحسن لك ، وبلاش الكلام الفارغ ده .

واعتدلت سوزى ..

ونظرت ليلى من طرف عينيها الى عديلة ، ولكن عديلة أشاحت بوجهها عنها فى غضب ..

وبعد أيام كانت ليلى تمر بالبهو الخارجى مع عديلة وسناء حين استوقفتهن نوال وقالت فى خبث وسخرية :

ـ ليلى .. لك جواب فى أودة البنات .

وابتسمت عديلة فى مرارة وانتصار ، وكأنها تقول لليلى : « جالك كلامى » ..!

وعندما ذهبت ليلى لتأخذ خطاب حسين ، وجدت الحجرة مليئة بالطالبات،ومشت الى اللوحة فى اضطراب ومدت الى الخطاب يدامرتجفة وخيل اليها أن كل العيون مسلطة عليها ، وشعرت بالخطاب يحرق يدها ودسته فى الحقيبة واستدارت وهى تتحاشى أن يلتقى نظرها بأحد .

وفى الطريق الى الباب اصطدمت بالمائدة وفقدت توازنها ، وخرت على الأرض راكعة ، وسمعت ضحكات عالية ، وضحكات مكتومة ، وغشى بصرها وهى تجمع ما تناثر من حقيبتها فتحسست الأرض بيديها كالعمياء

★ ★ ★ ★

وفي عصر ذلك اليوم ، زارت ليلى عديلة ، دون سابق الفـــاق وجلست في الصالون تنتظر وقد تصلب جسمها ، وجمد وجهها ..
وبعد أن صافحت عديلة دست في يدها ورقة بيضاء مطوية ..

وقالت عديلة :

ـ أيه دي .. ؟

وأجابت ليلى في اختصار :

ـ عنوان حسين ..

وفهمت عديلة أن ليلى قد قبلت الحل الذى عرضته عليها ، وأن هــذا القبول يكلفها ألما نفسيا عميقا ، وبدا الحزن في عينيها وهى تقول ، وقد تهدج صوتها :

ـ أنا با أعمل كده عشان مصلحتك يا ليلى ..

ـ أنا عارفه ..

ـ تحبى تكتبيه انت يا ليلى ؟ فى البيت لوحدك .

وهزت ليلى رأسها بالنفى . فقد حاولت أنّ تفعل ذلك ولم تستطع .

واقترحت عديلة أن تكتب هى الخطاب ، فى وقت آخـــر .. فى غيبة ليلى ..

وقالت ليلى بصوت مكتوم :

ـ دلوقت ..

ولم تفهم عديله اصرار ليلى على مواجهة هذا الموقف المؤلم الا بعد أن بدأت عمليـــة الكتابة . لم توافق ليلى على النسخة الأولى التى كتبتها عديلة ، ولا النسخة الثانية .. وقالت :

ـ حاجة أرق ، حاجة رقيقه يا عديله ..

وأرادت عديلة أن تقول لليلى فى سخرية :

ـ انت مش حا تنبسطى ، الا اذا كتبت أنا ، جواب غرامى لحسين .

ولكن الكلمات توقفت على شفتيها ، كانت ليلى مشدودة بحيث يكفى أن يشكها الانسان بطرف ابرة لتنفجر ..

وقالت عديلة :

ــ رقيقه ازاى ٠٠؟

ــ اشكريه ٠٠

ــ أنا ٠٠ ؟

ــ أنت مش بتكتبى الجواب بأسمى ، أنا اللى با اشكره ٠

ــ على أيه ٠٠ ؟

ــ على كل حاجة ، على كل شىء ٠ اكتبى كده ٠٠

وأملت ليلى عديلة الخطاب ٠ وتحجرت الدموع فى عينيها وهى تقول :

« وأنا أشكرك من كل قلبى على ما فعلته من أجلى ، على كل شىء »٠

ولم تعجب هذه الصيغة عديلة ، ولكنها خشيت أن تحتج ٠ أدركت أن أقل معارضة قد تجعل ليلى تعدل عن قرارها ، وتلغى فكرة الخطـــاب نهائيا ٠٠

وشكرت عديلة حسين ٠

وخرجت ليلى ، وعندما وصلت الى الشارع تنهدت بارتياح ، وكأنها خرجت لتوها من معركة أنهكت قواها ، وشعرت بشعور من انتظر البلاء حين يحل به البلاء ، ويدرك أن الأسوأ قد حدث ٠

١٦

تكررت مضايقات الدكتور رمزى لليلى فى الفصل وخارج الفصل الى درجة جعلتها تصيح فى يأس :

ــ الراجل ده عايز منى ايه ؟٠٠ عايز منى ايه بس ؟

وفى نهاية كل فصل دراسى ، كانت تتمنى من قلبها لو لم يحاضرها فى الفصـــل الدراسى التـــالى ، ولكن أمنيتها لم تتحقق قط ٠ حاضرها باستمرار طيلة دراستها الجامعية ، فى مادة أو أخرى ٠٠

كانت تشعر وكأنه يشرب من دمها بالتدريج قطرة فقطرة ، وينتظر الوقت الذى يجف فيه دمها ، كل دمها ٠

بدأ بتركيز اهتمامه عليها فى الفصل واختصها بالاسئلة الصعبة وكأن ليس فى الفصل غيرها ٠

يسأل السؤال ويقف ينتظر ليسفه اجاباتها ، ينتظر ووجهه الشاحب الوسيم خال من التعبير ، يكلمها وكأنه لا يكلمها ، ويستمع اليها ، وكأنه لا يستمع اليها ، موجود فى الفصل يربض بوجوده على أنفاسها ، وكأنه غير موجود ، وكأنه يقف وحده فى صندوق زجاجى ، يميزه ويفصله ويعزله عن بقية الموجودين ٠

وتجيب هى ويسفه هو اجابتها ، ولم تكن تغضب لأنه يسفه اجاباتها ٠٠ فغالبا ما يسفه اجابات بقية الطلبة والطالبات ٠ كانت تغضب لأنه يجد لذة خاصة فى تسفيه اجاباتها هى دون اجابات الآخرين ٠

فعندما يبدأ فى تسفيه اجاباتها تلتمع بسمة ساخرة على الشفتين الرقيقتين الشاحبتين وتومض العينان الباردتان بالانتصار ، وكأنه وجه لعدوه ضربة قاضية ٠ وينزاح الصندوق الزجاجى ، ويشعر الطلبة ان الحيـاة قد دبت فى الاستاذ ، ويسرى التيار بينه وبينهم ، وترتفع الضحكات وتعلو التعليقات ، ويتحول الاله الى انسـان ينكت ، على حسابها طبعا ، ويقول « لا ٠٠ لسـه بدرى عليـك !٠٠ حضرتك بتتفلسفى ، الفلسفة مش حلة ملوخيه يا آنسه » ٠٠ « انت عارفه انت محتاجه لأيه ؟٠٠ محتاجه لفرامل ، فرامل لخيـالك ، الفلسفه مش خيال ٠٠ الفلسفه قواعد صارمه ، وقوانين صارمه » ٠٠ « قسم الفلسفة مش مكانك ، كان حقك تروحى قسم من اقسام الآداب ، يمكن خيالك كان ينفعك هناك ٠٠ »

وبدأ صراع صامت ، أملى على ليلى املاء ، صراع شعرت أنه يهد كيانها ، ويمتص الدم من عروقها ٠٠

وفى بادىء الأمر لم تفهم ما الذى يريده الدكتور رمزى منها ٠ وبعد فترة فهمت ٠ فهمت أن مفهومه للحياة يختلف عن مفهومها لها اختلافا بينا ، لسبب بسيط ، وهو أن طبيعته تختلف عن طبيعتها اختـلافا بينا ٠ وأدركت أنه يريد أن يذلها هى بالذات ، وأن يخضعـها وأن يسمعها تردد آراءه ٠

ولم يكن يعتقد فى رأى غير رأيه ٠ ولم يكن يعجب باجابة ، أو بالأحرى يقر اجابة « فالاعجاب وقفـا له احساس سـوقى لا يليق.

بالشخص المثقف الذى ينبغى أن يفرض على مشـــاعره نظاما حديديا) لم يكن يقر اجابة الا اذا كانت الاجابة تتمشى مع رأيه الخاص ، الا اذا ردت اليه بضاعته ٠٠!

ولم تكن ليلى عنيدة فى هذه المرحلة من مراحل حياتها ، كانت تسلم بالكثير وتستسلم دون مناقشة ، ولكن شيئا ما جعلها تتحمل التسفيه ، والتعليقات والنكات ، ولا تستسلم هذه المرة ٠ وكأن خطرا ما ينتظرها اذا ما استسلمت ٠٠

قالت عديلة :

ــ ما تقولى اللى هو عايزه وتخلصى ٠

ــ هو عايزنى أبقى زى البغبغان ٠٠ ؟!

ــ بغبغان ، بغبغان ، مش أحسن ما هو مستقصدك ٠ حايجرى ايه يعنى لما تريحيه ٠٠ ؟

ولم تجد ليلى ردا مقنعا ٠ لو قالت لعديلة ان شيئا ما فى أعماقهـا يحذرها من الاستسلام ، ويمنعها من الاستسلام ، لضحكت منها عديلة ٠ لو قالت لهـــا ان خطرا ما يهددها من ناحية الدكتور رمزى ، خطرا لا تستطيع أن تعرف كنهه ، لحسبتها عديلة مجنونة ٠

ولم تستسلم ليلى ٠ وظل الدكتور رمزى يشرب من دمها ٠ وكلماته المطرقة فى يد العامل تهدم يوما بعد يوم من مقاومتها ، ووجوده يملؤها بخوف يشل حواسها ، ويجذبها فى ذات الوقت ، فلا تستطيع أن ترخى عنه عينيها ٠٠

★ ★ ★ ★

وقفت ليلى تجيب على سؤال وجهه اليها الدكتور رمزى ٠

وضاقت عينا الدكتور رمزى وهو يخفى ابتسامته ٠ ولم يبد عـــلى وجهه شىء من التعجب ، وكأنه كان يعرف أنها ستستسلم ، وأن المسألة مسألة وقت ، وصبر ، ومثابرة لا أكثر ولا أقل ٠

ولكن ليلى بالغت فى اجابتها ، كانت ذكية ، وكانت مهتمة بكل ما يدور حولها ، واستطاعت أن تفهم ما يريد ، وأن ترد له رأيه بكلمات تكاد تكون كلماته ، وبطريقة حاولت أن تجعلها شبيهة بطريقته ٠

ولم يغب هذا التطابق على الأستاذ وقال :

ـ أنت مقتنعة بالكلام اللى بتقوليه ··؟

وأطبقت ليلى شفتيها فى غضب ولم تجب ··

وبدأت عملية أخرى أشبه بعملية النحات وهو يعمل بمعوله فى رقة أحيانا ، وفي عنف أحيانا أخرى ، وفي دراية وتصميم دائما · هنا لمسة خفيفة ، وهنا انحناءة عميقة ، وهنا جزء يجب استئصاله كلية ·· وهنا جزء يصقل ويهذب ·

والتمثال تبرز معالمه تدريجيا ، ويتشكل ضربة بعد ضربة ، وفقـــا لارادة الفنان ··

ولم تدرك ليلى شيئا من هذا ، أدركت فقط أن الدكتور رمزى قد غير أسلوب معاملته لها ، وأنه أصبح يعتبرها من مدرسته ، ومن بين أتباعه في الرأى وأنه أصبح أكثر صبرا عليها ، وتحملا لهفواتها · وان كان ما زال ينتقدها انتقادا مرا في بعض الاحيان ، فانما يفعل ذلك لكى تتعلم من أخطائها ··

وبدأت ليلى تنضم الى عديله فى الدفاع عن الدكتور رمزى ، عندما تهاجمه سناء ··

* * *

وفي السنة الثانية امتدت سطوة الدكتور رمزى الى ما اعتقدت ليلى من قبل أنه من خصائص أمورها ·

كانت تسلم اليه مرة بحثا فى حجرته ومدت يدها بالبحث ووضعته على المكتب وهمت بالخروج وقال هو :

ـ ايه ده ·· ؟

وأدركت ليلى أن نظرته مصوبة الى وجهها والى شفتيها بالذات ·

وكانت جميلة قد دعتها فى الليلة السابقة الى حفل ساهر ، وأصرت على أن تصبغ لها شفتيها ، وفى الصباح تبقى أثر الروج فأضافت اليـه لمسة خفيفة قبل أن تخرج الى الكلية ·

واحمر وجه ليلى وقالت متهربة :

ـ هو أيه ··؟

ـ اللى فى شفايفك ؟

وقالت ليلى بصوت خافت وكأنها تجلس على كرسى الاعتراف :

ـ روج ٠

وكتم هو ابتسامته وقال :

ـ أنا عارف انه روج ، ولكن حاطاه ليه ؟ انت عمرك ما حطيتى روج قبل كده ٠

وقالت ليلى مبررة فعلتها :

ـ كل البنات بيحطوا ٠

ـ دا تفكير سوقى ٠ هل معنى ان البلد اجتاحتها موجة فساد ، ان احنا كلنا نبقى فاسدين ؟ !

وأثارت الاشارة الى الفساد ليلى ، وقالت فى غضب :

ـ أنا مش فاسده ٠

وقال هو فى برود دون أن يهتز لغضبها :

ـ أنا با اقول عكس كده ، با اقول انك أحسن من البنات اللى بيعملوا كده ٠

وقالت ليلى فى عناد طفولى :

ـ أنا مش أحسن من حد ٠

ـ أنت قطعا أحسن ٠

ونظرت اليه ليلى للمرة الأولى منذ أن دخلت الغرفة ، وقالت :

ـ أحسن ليه ؟

وابتسم فى وجهها ، وفى عينيه نظرته الباردة الواثقة ، وقال ببساطة :

ـ لأنى أنا أعتقد كده ٠

* * *

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، تتبعتها عيناه فى كل مكان تذهب اليه ٠ كان يظهر فجأة وكأن الأرض انشقت عنه ، وتطوف عيناه بها ،

وتتركزان عليها ، وكانهما تعاينانها ، وكانهما تزنانها ، بلا رغبة بلا عاطفة ، ببطء وعناية ، كما يعاين الانسان قطعة من النقود في يده ليتأكد أنها ليست مزيفة .

وكانت ليلى تنتفض تحت نظرة الدكتور رمزى ، ويشل حواسها خوف غامض ، وتتنهد فى ارتياح حين تنزاح عيناه عنها .

ولكنه كان يملى وجوده عليها حتى وهو غير موجود .

فاذا وقفت تضحك هى وعديلة وسناء مع واحد من الطلبة ، شكرت الله لأن الدكتور رمزى لم يرها . واذا ألقت فى محاضرة بحثا حاز اعجاب أحد الأساتذة ، تمنت لو سمعها وهى تلقى البحث حتى يدرك تفوقها واذا ما انهمكت فى القراءة فى المكتبة لمدة ساعات تساءلت لم لا يراها وهى تخلص للعمل هكذا ؟ لم لا يراها الا وهى ضاحكة أو متلطعة تدردش فى أركان الكلية ؟ لم لا يراها الا وهى تفعل ما لا يجب أن تفعله ؟ ولكنها كانت تنسى وجوده أحيانا ، كما نسيته ذلك الصباح .

* * *

كانت ليلى تجلس فى صالة القراءة بالمكتبة ، حين اقترب منها زميل لها فى السنة الثانية ، وطلب منها اعارته المرجع الذى تقرأ فيه ، حين تفرغ من قراءته .

ورفعت ليلى رأسها الى زميلها ، وتذكرت حسين فجاة ..

ذكرها شىء فى العينين السوداوين الكبيرتين بحسين وهو يبتسم نعم ، عينا حسين تبدوان هكذا حين يبتسم ، تذوب فيهما الجرأة والقوة والصلابة ، وتصبحان ناعمتين كهاتين العينين ، حالمتين حنونتين مثلهما .

ووعدت ليلى زميلها باعارته المرجع وهى تبتسم ، وجر الزميل المقعد الذى يجاورها ، وجلس . وقال انه معجب بمناقشاتها فى الفصل ، واستطرد فذكر أنه يكتب الشعر ، ويود لو قرأت بعض قصائده . وبدأ يتكلم عن المستقبل ، عن الشعر الذى يريد أن يكتبه ، والتجديد الذى يريد أن يدخله عليه ، حتى يتجنب الانفصال القائم بين القالب الشعرى والمضمون ...

وجلست ليلى تنصت اليه وقد ارتخت فى جلستها ، وأسدلت

جفنيها على عينيها ، ومالت برأسها الى جانب ، ولمعت على فمها ابتسامة خفيفة ..

تخيلت أنها تستمع الى حسين .. فحسين حين يتكلم عن المستقبل يرن صوته هكذا ، وتتسلل اليه نبرة حالمة ، وحسين حين يتكلم ، تنبض كلماته هكذا ، وكأنها تنبض بحياة خاصة بها ، حياة تسرى الى من يستمع اليه ، وتجعله يحلق معه حيث يحلق عاليا ..

وقال صوت بارد قاس :

ـ شفتم الكتاب ده ؟ ..

واندفع كتاب على المائدة تجاههما ..

وفتحت ليلى عينيها .. ورأت الدكتور رمزى يواجهها .. ووقف زميلها ، ولم تستطع هى أن تقف ، لم تعد ترى شيئا . أصيبت بدوار أشبه بالدوار الذى يصاب به من يسقط من مكان عال .

وتصفح زميلها الكتاب واستأذن الدكتور رمزى فى استعارته . وقال الدكتور أنه وضع نسخة من الكتاب فى المكتبة ، وان لم تكن قد قيدت بعد .

واعتذر بانه لايستطيع أن يعيره هذه النسخة لأنها نسخته الخاصة ..

ـ وأنا أحب كتبى تبقى نضيفه ، ما أحبش حد يمسها ، لو حد مس الكتاب ، ما اقدرش أطالع فيه بعد كده ، ما اشعرش أنه كتابى .

وقال الدكتور رمزى هذه الكلمات وهو يركز عينيه على ليلى ليؤكد كلماته ، وكأنه يحملها أكثر من معنى .

ولكن ليلى لم تكن فى حالة تسمح لها بفهم ما يدور حولها . شل الخوف حواسها وكأنها ضبطت متلبسة بجريمة خطيرة .

وحاول الدكتور رمزى أن تتقابل عيناه مع عينى ليلى ، وقال موجها الخطاب لها :

ـ شفت الكتاب ده يا آنسة .. ؟

ولم ترفع ليلى عينيها اليه ، مدت يدين مرتجفتين الى الكتاب وسحبته فى بطء الى حيث تجلس ، وركزت عينيها على غلافه الخارجى .

وترك الدكتور رمزى الكتاب راقدا بين يديها ، واتجه الى صفوف الكتب المتراصة فى مكتبات الحائط ·

واعتذر زميلها وانصرف ·

وودت هى لو استطاعت أن تنصرف ، ولكنها لم تستطع ، كان عليها أن تنتظر حتى يسترد الدكتور رمزى كتابه ·

وأطال هو وقفته بين الكتب ، واتجه بخطواته البطيئة المتئدة الى حيث يجلس أمين المكتبة ·

وخيل لليلى أنه يسير بخطواته البطيئة الرتيبة على أعصابها ، وأنه يطيل وقفته مع الأمين ليطيل من تعذيبها ·

وحين عاد اكتشف أنها لم تمس الكتاب ، وقال :

— يعنى ما فتحتيش الكتاب · مكسوفة ولا أيه ·· ؟

وفى هذه المرة فهمت ليلى الاشارة المزدوجة ، فهمت المعنى المقصود واحمر وجهها ··

* * *

وتغير أسلوب الدكتور رمزى فى معاملة ليلى تغيرا بينا ·

كان يشيح ببطء عنها اذا ما قابلها فى الممر ، بلا معاينة · وكأنه قد اكتشف أن قطعة النقود مغشوشة ، ولا تستحق المعاينة · وفى الفصل انقلب عليها ، واشتدت قسوته بشكل واضح أثار تعليقات الطلبة والطالبات ·

وقالت سناء :

— الراجل ده حكايته ايه ؟ هو مش حايتلم بقى ؟

وقالت ليلى :

— أنا ما اقدرش أستحمل أكتر من كده ، كفاية بهدله بقى·ثم أنا نفسى أفهم ، هو عايز منى ايه ·· ؟

وتوقفت عديلة عن المشى ، وقالت وكأن فكرة عبقرية قد طرأت لها

— يكونش بيحبك يا ليلى ·· ؟!

- اتلهى .. حانخرف بقى .. ؟

وضحكت سناء .

- وحب أيه المنيل ده ؟ دا كره ، مش حب .

وسحرت الفكرة عديلة ، وقالت وهى تقلد أحد أساتذة الفلسفة

- ولم لا ؟ ألم يقل الفيلسوف المشهور « شوبنهور » أن الحب فى أعماقه كره ، والكره فى أعماقه حب .. ؟

وانفجرت ليلى وسناء ضاحكتين ..

وقالت سناء وهى تشرق بدموعها :

- على طريقة البرميل اللى الواحد يفتحه من ناحيـــه يطلع عسل ومن الناحيه التانيه يطلع زفت . مش كده ؟

وقالت ليلى :

- كفايه هـزار بقى ، وتعالوا نقعد فى حته . نشوف لنا حل فى الموضوع ده ..

واتجهت الصديقات الى ركنهن المختار على العشب خلف المكتبة

وتربعت عديلة ، وبدت الجدية على وجهها ، وقالت موجهة الخطـاب الى سناء :

- ما هو أنا كمان ما أعطيش عقلى لغيرى ، تقدرى تقوليلى ، الراجل ده ملاحقها فى كل حته ليه ؟ وغاوى بهدلتها ليه ؟

وقالت سناء :

- ليه يا ست الشيخه .. ؟

وكتمت عديلة ابتسامتها وقالت :

- والنبى بيحبها ..

والتفتت الى ليلى وعيناها تلتمعان :

- حقه يا ليلى لو اتجوزك تبقى حتة جوازه ؟!

وقالت سناء فى حركة مسرحية :

ـ يا حفيظ ٠٠

وأمالت عديلة رأسها الى جانب وقالت لسناء فى حماس ، وكان الدكتور رمزى قد عرض فعلا الزواج على ليلى :

ـ ايه ؟ ماله ؟ وحش ! أستاذ قد الدنيا وشكل وعربيه وعز واسم٠ عريس تتمناه كل بنت فى الكليه ٠

وقالت ليلى :

ـ دى مصيبة أيه دى يا اخوانا ؟! احنا فى أيه ولا فى أيه ؟ خلينا فى الموضوع ، أنا ضرورى أشوف لى حل مع الراجل ده ٠

وقالت سناء فى جدية :

ـ بسيطه ، ما فيش الا حل واحد ٠٠

ونظرت اليها ليلى متسائلة فى اهتمام ٠

وقالت سناء :

ـ اتجوزيه ٠٠

وانفجرت ليلى ضاحكة ٠ ولم يعجب الحال عديلة ٠

ـ مالك ؟ أيه اللى مسيب مفاصلك كده ؟ بقى الجوازه دى مش ٠٠

وقاطعتها ليلى وهى تشرق بالدموع من أثر ضحكها :

ـ بس يا عديله ايه اللى جاب سيرة الجواز والهباب دلوقت ، احنا فى أيه ولا أيه ٠٠ ؟

ولكن عديلة كانت فى واد آخر ٠ كانت الفكرة التى طرأت عليها قد تحولت الى عقيدة ، وأصبحت تدافع عنها كأنها حقيقة واقعة ٠

ـ طيب بشرفك يا ستى سناء ٠ مش تتمنيه ٠٠ ؟

ـ فشر ٠٠

ـ تتجوزى أحسن منه ٠٠ ؟

ـ طبعا ..

وانبعثت صورة محمود أمام ليلى ، وبدا لها بجانب الدكتور رمزى كالقزم الى جانب العملاق ، ولم ترتح فى أعماقها الى هذا التشبيه .

ومالت سناء على عديلة وقالت بصوت هادىء :

ـ عارفه يا عديله ؟ اللى تتجوز الدكتور رمزى حاتعيش ازاى ؟..

وبدا الاهتمام فى عينى ليلى وهى تصغى الى سناء وهى تستأنف كلامها ..

ـ حاتتحط فى تلاجه وينقفل عليها ، فى علبة سردين وتتختم عليها .

وسرت رجفة الى جسم ليلى ، ووضعت عديلة يدها على خدها وقالت فى استخفاف :

ـ عجايب .. ؟!

واستأنفت سناء الكلام :

ـ وأنا شخصيا مش عايزه أعيش فى تلاجه . أنا عايزه أطير ..

وقالت عديلة :

ـ تطيرى ؟ .. كده .. ؟!

ومدت ذراعيها وهزتهما كالجناحين حولها .

وقالت سناء وهى تكتم بسمتها :

ـ أيوه ..

ـ طيب يا بت ، ماهو ده يطيرك . عيبه ايه .. ؟

وقالت سناء فى استنكار :

ـ يطير .. دا يكتم على نفس الواحده لغاية ما يخنقها ..

وقالت عديلة :

ـ طيب تعرفى تتلهى ، والله دا بكره الكليه كلها حاتحسد ليلى ..

وقالت ليلى لعديلة وهى تضحك :

- تعرفى تتلهى أنت ، عشان نشوف لنا حل فى الموضوع ده ·

وقالت سناء :

- أنا عندى اقتراح · عديله تكلمه وهى داخله تاخد البحث بتاعها

وقالت ليلى :

- تقول له أيه ·· ؟

- تقول له : ليه الأسيه يا حبة عنيه ؟ اعتقها لوجـه الله ولوجه المحبه ·

وانفجرت عديلة ضاحكة ، وهى تتصور نفسها تقف أمام الدكتور رمزى بوجهه المتجهم ، وتقول هذا الكلام ·

وقالت ليلى فى غضب وهى تهم بالوقوف :

- أنا حا اروح ··

وجذبتها سناء من ذراعها ·

- خلاص ، أنا حا اتكلم جد · عديله تقول له : ليلى بتعتذر اذا كان بدر منها أى حاجة غلط ، وبترجو انك تسامحها ·

وقالت ليلى :

- معقول · بس بلاش حكاية يسامحها دى ··

وقاطعتها عديلة :

- ومين قال انى حا اكلمه فى الموضوع ده ؟

وانقبض وجه ليلى ، وقالت سناء :

- ولا تزعلى ·· أنا عندى اقتراح تانى ··

- أيه ·· ؟

- عديله تتجوزه ··

وقالت ليلى لسناء فى مرارة :

- انت فايقه النهارده قوى ·· !

وقالت عديله وهى تفكر :

- بصراحه ما ينفعش ..

وقالت ليلى :

- هو ايه اللى ما ينفعش .. ؟

- حكاية جوازى بالدكتور رمزى . لأنه اما يكسر دماغى من أول أسبوع ، أو أكسر أنا دماغه . أصلنا زى بعض ، راس وراس .

وضحكت سناء وقالت :

- قوله وانقسمت نصين ..

وقالت عديلة وهى ما تزال تفكر :

- لأ .. أنا قطعا ما انفعهوش ! هو عايز واحده زى ليلى ناعمه ، ورقيقه ، وهاديه ، ولطيفه ..

وأكملت سناء كلام عديلة :

- ومطيعه ، ومغمضه ، ومن الأيد دى للأيد دى ، زى الخاتم فى صابعه .. !

وقالت ليلى بغضب :

- هو أنا ما خدش منكم الا التريقه ؟ على العموم دى مشكلتى وأنا اللى حا احلها ..

وقالت سناء :

- حا تقوليله أيه يا ليلى .. ؟

- حا أقول اللى أقوله . المهم انى ما تبهدلش فى الفصل بالشكل ده

* * * *

وعندما اتجهت ليلى الى حجرة الدكتور رمزى بحجة استرداد بحثها كانت قد أعدت العدة لكل كلمة ستقولها .

ولكن عندما رفع اليها وجهه الشاحب وهو يجلس الى مكتبه تبخر من عقلها كل شيء أعدته . وتقدمت حتى حاذت المكتب وقالت وقد خالطت نبرتها ثورة على ضعفها :

- البحث من فضلك ..

وفتح درج من أدراج المكتب فى بطء وهو ينظر اليها ، وأخرج البحث بلا تردد ، وكأنه كان يتوقع قدومها • وقذف به على المكتب أمامها ، وهو ما يزال ينظر اليها • واحمر وجه ليلى وهى تمسك بالبحث فى يدها ، وتهم بالاستدارة خارجة •

وجاءها صوت الدكتور رمزى باردا :

ـ انتظرى ••

وتسمرت فى مكانها دون أن تنظر اليه •

وقال :

ـ افتحى البحث ، وشوفى التقدير •

وكانت الدرجة « جيد جدا » وكانت واثقة أنه يعرف أنها « جيد جدا » ومع ذلك سألها :

ـ التقدير أيه •• ؟

ـ « جيد جدا » ••

ـ كان ممكن تاخدى « ممتاز » • عارفه ما خدتيش ممتاز ليه ؟

ولم تجب ••

وتسرب الغضب الى صوته البارد وهو يقول :

ـ ما تردى ••

ولم ترد • وانفجر غضبه :

ـ عشان بتضيعى وقتك ، عشان بتستخدمى المكتبه فى أغراض ما اتعملتش المكتبه عشانها •

وانقبضت يدا ليلى على حافة المكتب • وودت لو استطاعت أن تضربه •• ولكن الخوف شلها ، وظلت مكانها لا تتحرك ، ولا تتكلم ، ولا ترفع نظرها الى أعلى • ولفتها موجة كراهية عميقة انقبض لها وجهها •

وقال الدكتور رمزى وقد استعاد صوته هدوءه :

ـ انت بتكرهينى •• مش كده •• ؟

ولم تتكلم ، رفعت اليه عينيها وركزتهما فى عينيه ·

واختلجت عينا رمزى ، وتطرق إلى قلبه خوف مبهم ، كما لو كان ، لأول مرة فى حياته ، قد نسى أن يعد العدة لشيء ·· أو أسقط من حسابه شيئا ، ما كان ينبغى له أن يسقطه ··

عكست عينا ليلى قوة جبارة ، مزيج من الثورة والعنف والاعتداد والكراهية ، قوة لم يخيل اليه قط أن من الممكن أن يحتويها كيان هذه الطفلة الرقيقة الوديعة ··

وأدرك الدكتور رمزى أن اللحظة التى يمر بها لحظة حاسمة ، وأنه يقف وهذه الفتاة التى تواجهه على مفترق الطريق · وتغلب على دهشته المفاجئة ، وعادت عيناه تتركزان عليها وهو يعكس فيهما أقوى ما يحتويه كيانه من قوة ومن سطوة وعنف · ودخلت عيناه مع عينيها فى صراع صامت طويل · وهما الآن تتصديان لها فى برود متربص ، وهما الآن يقتحمانها ويهدانها هدا ، وهما ترقان وهو يخضعها ويروضها وهما يعمقان بعمق من عمقها ، وكأنه يسلبها منابع القوة قطرة بعد قطرة ·

وشعرت ليلى أن الدم قد هرب من جسمها وأسدلت جفنيها على عينيها ··

وقال الدكتور رمزى وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

– بتزعلى منى ليه ؟ عشان عايزك تمشى صح ؟! عشان عايزك تبقى أحسن بنت فى الكليه ·· ؟

وأبقت ليلى جفنيها مسدلين على عينيها ، ولم تتكلم · وقال هو :

– أنا عايزك تجاوبى على سؤال واحد بس ، اللى عملتيه ده ·· صح ولا غلط ·· ؟

ولم تجب وأعاد سؤاله بنفس الهدوء وسكت ··

وملأ الانتظار كل لحظة ، كل ذرة من هواء الغرفة ، وكأن العالم كله قد توقف متربصا ، ينتظر منها أن تتكلم ··

وسالت الدموع بلا صوت من عينى ليلى ، وارتخت قبضتها على حافة المكتب ·

ومد هو يده على المكتب ومس بأصبعه يدها وقال بصوت رقيق :

— ما فيش داعى للعياط .

وفتحت هى عينيها فجأة . وتطلعت اليه فى دهشة وكأنها ترى أمام عينيها ظاهرة طبيعية غريبة . ووجدت يده على المكتب ، ووجهه جامدا خاليا من التعبير ، مغلقا فى وجهها وكأنه لا يراها ، وكأنه لم يمس يدها وكأنه لم يتحدث اليها فى حنان ..

واستدارت ليلى لتخرج ، ومسحت دموعها بكفها فى الطـــريق . ووضعت يدها على مقبض الباب . وتذكرت فجأة كلمات من خطاب حسين :

« انطـلقى يا حبيبتى ، افتـحى البـاب واسعـا عـلى مصراعيـه واتركيه مفتوحا » .

وقال الدكتور رمزى :

— لحظه واحده من فضلك ، فيه حاجه صغيره عايز أقول لك عليها قبل ماتخرجى .

وواجهته ليلى وهى ما تزال على مقربة من الباب . وقام من مكانه ووقف يطل عليها لحظة ثم قال :

— فيـــه ناس كتير من اللى بيسموا نفسهم مثقفين بيستهينوا بالأصول وبالتقاليد بتاعتنا . ولكن ضرورى تعرفى ان الأصول دى ، هى اللى بتربطنا بالارض ، ومن غيرها نبقى زى الشجرة اللى من غـير جذور ، شوية هوا تجرفها ، وتوقعها كمان .

ووقفت ليلى متسمرة تصغى اليه وهو يتكلم . واستمرت واقفة بعد أن فرغ من كلامه ، تنظر اليه وكأنها مشدودة اليه بخيوط غير مرئية لا تستطيع أن ترخى عينيها عنه ولا تستطيع أن تنصرف .

وهو يقف أمامها طويلا رافع الرأس ، شاحب البياض ، قريبـا ، ولكنه بعيد ، تغلف وجهه الوسيم سحابة من غموض ، ينظر اليهـــا وكأنه اله يطل عليها .. اله ؟

نعم اله من آلهة الاغريق ، لا يضعف أبدا ، يقف فى الصـــواب ، ويؤمن أنه على صواب ويريد لها هى أن تكون فى الصواب ، فى ظله ،

أنه لا يخطىء أبدا ، ولا يضعف أبدا ، ولا يلين أبدا . لو لان ؟! .. لو لان الحجر .. ؟!

وصرخ قلبها : « أرجوك ، أرجوك لا تؤذينى ، سأمشى فى ظلك ، سأتبعك ولكن لا تؤذينى »

وعكست عيناها عمق جرحها ، ويأسها ورجاءها .

ولان وجه الدكتور رمزى فى ابتسامة ، وقال فى رقة :

- خلاص يا ليلى ، تقدرى تنصرفى .

وأدركت ليلى أنه ناداها باسمها لأول مرة ، لم يقل لها « يا آنسة » كعادته ، بل ناداها باسمها الخاص ، باسمها الشخصى ..

١٧

ومنذ ذلك اليوم تدخل عامل خاص شخصى فى العلاقة التى تربط بين ليلى وبين الدكتور رمزى ، كان يبتسم لها ابتسامة خاصة كلما قابلها فى الممر ، ابتسامة خاصة بها هى ، تميزها عن الآخرين ، وتجعلها تشعر أنها أفضل منهم .

وفى نهاية العام الدراسى أعارها بعض كتبه الخاصة لتقرأها فى الاجازة الصيفية ، وفى بداية سنتها الثالثة فى الجامعة حرص على أن يطلب منها ما كتبته ، وناقشها مناقشة خاصة فى بعض الآراء التى وردت فى نقدها .

وكان حازما فى معاملته معها داخل الفصل وخارجه ، ولكن شيئا ما كان يترقرق تحت حزمه ، شيئا يميزها هى به عن الآخرين ، ويجعلها تشعر أنه طالما يميزها عن الآخرين فهى أفضل منهم .

وكانت ليلى وحيدة وممزقة ومرهقة ، ولمحت جدارا كبيرا امتد لها ظله ، وجلست فى ظل الجدار ، لا تفكر ، وارتكنت عليه وارتاحت .. وشعرت أنها بخير طالما ارتكنت على الجدار ، وطالما امتد لها ظله ، وكان الظل يمدها بضخامة من ضخامة الجدار ، وبقوه من قوته وبصلابة من صلابته ..

وتشبثت ليلى بظل الجدار يحميها ويقويها ، وحصرت تصرفاتها بل أفكارها فى النطاق الذى يرضى عنه الدكتور رمزى ، وأصبح الصواب بالنسبة اليها ما يرتئيه هو صوابا والخطأ بالنسبة اليها ما يعتبره هو خطأ . ولم يصعب عليها قط أن تتبين خطأه من صوابه ، فالخطأ واضح محدد المعالم ، والصواب واضح محدد المعالم . والأسود أسود والأبيض أبيض ، ولا ظلال ألوان بينهما . والخطأ يعرفه هو وتعرفه هى وأمهـــا وعديلة وكل الناس ..

ولكنه هو (الدكتور رمزى) أفضل من كل النـــاس . فهو حين يلتزم الصواب لا يلتزمه لأن الناس يلتزمونه ، بل لأنه يؤمن به .. وحين يتحاشى الخطأ لا يتحاشاه لأنه يخاف الناس ، بل لأنه أكبر من أن يخطىء ، وأقوى من أن يخطىء ، ولأنه انسان غير عادى ، انسان مثقف ، والمثقف حقا هو الذى يفرض على عواطفه ومشاعره ، وأفعاله وكلماته نظاما حديديا يحول بينه وبين الاندفاع ، وبالتـــالى بينـه وبين الخطأ ، وهذا النظام الحديدى هو الذى يميز الانسان المتحضر عن السوقة الذين يندفعون عادة الى الخطأ ، نتيجة للاندفاع وراء المشـــاعر الرخيصة ..

وتبنت ليلى آراء الدكتور رمزى وانحصرت فى نطاقها . ولحظ هو هذا التطور ، وحرص على ابداء تأييده له ، وقال مرة تعليقا على بحث ألقته فى المحاضرة :

ــ البحث جيد ، وقد كدت تتخلصين من شوائب الذاتية التى كانت تحول بينك وبين الموضوعيـــة ، أى بينك وبين الأسـلوب العلمى والطريق ما زال أمامك طويلا ، ولكنك تتقدمين فيه .

* * * *

وقالت عديلة وقد انفردت بسناء بعد المحاضرة :

ــ جالك كلامى ؟ عمال يسلفها كتب ، ويهيأها فى المحاضره ، والحاله معدن . مش قلت لك مبسوط منها .. ؟

وقالت سناء فى سخرية :

ــ ما ينبسطش منها ليه ؟ دا ربنا فوق ، وهو تحت بالنسبة لها

وقالت عديلة وهى تحاول استفزاز سناء :

ـ غيرانه ٠٠ ؟!

ـ يا شيخة بلا قرف ، عاجباك الكتمه السوده اللى هى فيها ؟ ٠٠ دا ما اكلموش ، ودا ما أعملوش ، والوقفة دى ما تصحش ، والفستان أبوكم طويل ، والأصول ، والشجره اللىبجدور ، والحيوان ، والسوبر مان !؟ ٠٠ بشرفك عاجباك الهفة دى !؟

ـ عايزه الحقيقه ؟ ٠٠ هى زودتها حبتين ٠٠

وقالت سناء :

ـ حبتين بس ؟ دى بقت حاجة تطفش ٠٠ !

وكانت سناء تعتقد أن ليلى تغيرت تغيرا يدعو الى الأسف ٠ وأنها أصبحت لا تطاق ولا تحتمل ، فقد ازدادت انطواء على نفسها واستشيخت ، وأصبحت جامدة متحجرة بليدة الحس ، وكأنها فقدت القدرة على الاحساس بالآخرين ، والتجاوب معهم ٠ كما أصبحت محدودة الأفق لا ترى أبعد من كفها ، وكأنها قصيرة النظر ٠ وما تراه يثير الاشمئزاز ، فهى لا ترى الا أخطاء الناس وهفواتهم ٠ ولا تتكلم الا لتصدر أحكاما قاسية تدين بها الناس ، فى ثقة وفى وقاحة ، وكأنها تمسك بيدها ميزانا لا يتسرب اليه الخلل ٠ ولو صدق الانسان كلامها لذهب وانتحر ، فالجذور قد تخلخلت ، والانحلال عم كل بيت ، والفساد اجتاح البلد ولابد للمثقفين ، أنصاف الآلهة ، من أن يقفوا فى وجه الفساد ٠٠ وطبعا ليس هناك مثقفون ، سوى الدكتور رمزى ، وسواها هى بالتبعية ٠٠ !

وكانت سناء تتساءل فى ألم : ماذا حدث ؟ ٠٠ ماذا حدث لهذه الفتاة التى كانت المحبة تترقرق فى وجهها ، وفى كيانها بأجمعه ؟ ٠٠ ولماذا أصبحت هكذا مليئة بالحقد وبالمرارة وبالجمود وبالتحجر والبرود من يصدق أنها أخت محمود ، الذى تلمع عيناه بحب الناس ويحب الحياة ٠٠ ؟

وكانت سناء تدرك أنها ستصطدم قريبا بليلى ، فمحمود قد تخرج وأوشك على أن ينتهى من سنة الامتياز وهما فى انتظار صدور قرار

تعيينه فى أحد المستشفيات ، ليعلنا لعائلتيهما قرارهما • وهى ومحمود لن يتركا أحــدا يقف فى طريق زواجها • ولم يتبق الا شهر وتصطدم بليلى ••

وكانت سناء تخشى هذا الاصطدام أكثر حتى مما تخشى الاصطدام بأبيها وبأمها ، عز عليها أن تدخل فى صدام مكشوف مع ليلى ، صــدام تفقد فيه الصداقة ، التى كانت يوما أعز شىء فى حياتها • ولكن ماذا تستطيع أن تفعل ؟ وليلى لن تفهم ، وقد أصبحت بهذا الجمود ، وهذا البرود والتحجر ••

ولكن حدث فى تلك الفترة ما قرب بين ليلى وسناء وكاد يعيــد علاقتهما الوطيدة الى ما كانت عليه •

* * * *

على السبورة فى مدخل الكلية أعلن فتح باب التطوع للطالبات فى الحرس الوطنى ، وبقى الاعلان أسبوعا ثم أزيل ليحل محله دعوة لطالبات الكلية للاجتماع بمدرج ٧١ مع قائد فرقة الحرس الوطنى •

وفى الموعد المحدد ظل باب المدرج الزجاجى يندفع ثم يرتد ليمتلىء المدرج بمئات من الطالبات ، طالبات جئن ليسجلن أسماءهن فى الحرس الوطنى . وطالبات جئن مدفوعات بحب الاســتطلاع ، وطالبات جئن ليعرضن على المجموعة مجتمعة آخر مبتكرات الازياء •

وقالت عديلة وهى تجلس بين ليلى وسناء فى انتظار حضور الضابط

ـ يعنى مش كنت زمانى روحت وغسلت شعرى و ••

ولم تكمل • دخل الضابط المدرج ووقف يواجه ثلثمائة فتاة •• وساد الصمت لحظة والعيون ترقب الضابط الشاب الذى تسربت حمرة الخجل الى وجهه حين بدأ يتكلم بصوت خافت •

وعاد الهمس من جـــديد ، واستكملت الحكايات التى انقطعت •• ووضعت فتاة ضيقة العينين شبيهة بالصينيات ساقا على ساق وقالت لمن حولها انها قبلت خطــوبة الشاب الذى خطبها لتتخلص من الحاحــه • واشتكت فتاة ممتلئة لزميلتها من أن شعرها قد جف فجأة وأصبح أشبه بخيوط المقشة ، ونصحتها زميلتها يعمل حمام من الزيت والبخار •

وامتدت يد الضابط الى ياقة قميصه فى ارتباك وصاحت شلة فى آخر المدرج فى ايقاع منتظم :

ـ مش سامعين •• مش سامعين ••

وضرب الضابط بيده على المائدة وصاح فى صرامة :

ـ سكون ••

وساد الصمت لا يقطعه الا تردد الأنفاس فى رتابة •

وأدرك الضابط أنه أمسك بزمام الموقف ، وعلا صوته وهو يتكلم واكتسب عمقا • وتقدم بين الصفوف يتكلم كلاما عاديا بلا فصاحة ولا بلاغة ، كلاما ينبعث من احساس جديد على هؤلاء الفتيات ، احساس بقيمة المرأة وبالمساواة الحقيقية التى تتاح لها لأول مرة اذ يتاح لها حق الدفاع عن الوطن ••

وتحجرت الدموع فى عيون ، وتطلعت عيون فى عجب ودهشة وكأن باب عالم غريب قد تفتح أمامها ••

وارتفعت عيون فى ملل الى ساعة الحائط ••

والسكون سائد لا يقطعه سوى تردد الأنفاس فى رتابة ••

ومرت أمام ليلى صور من حياتها ، صورتها وهى طفلة تقفز قفزات رتيبة وترفع يدها اليمنى وتخفضها ، وتقول منغمة ، كما يفعل المتظاهرون ـ السلاح ، السلاح •• نريد السلاح • وصورتها وهى شابة ترتفع على أكتاف المتظاهرات ، وتهتف بصوت غير صوتها صوت الآلاف ••

وبدت هذه الذكريات لليلى بعيدة باهتة ، وكأنها لم تحدث لها هى ، وكأنها حدثت لانسان آخر •

وأخرجت سناء من حقيبتها قلما ، وكتبت على ورقة :

ـ سأتطوع ••

واستدارت شفتا ليلى لتبتسما ابتسامة ساخرة ، ولكن الابتسامة ماتت على شفتيها ••

مالت سناء على الورقة ، وبشفتين مطبقتين وعينين يتألقان أجرت تحت الكلمة التى كتبتها خطوطا متتالية ، خطوطا عميقة تمزقت لها الورقة ••

وسرت الرعدة فى جسد ليلى وتركزت فى رأسها ٠

وكانت ليلى ما تزال مضطربة وهى تقف أمام الضابط تسجل اسمها كمتطوعة فى الحرس الوطنى ٠ وانتظر الضابط منها أن تتكلم ، ولكنها استمرت ترسم خطوطا بيدها على طرف المائدة ٠

وقالت أخيرا :

ـ ليلى سليمان ـ ثالثه فلسفه ٠٠

وجرت متوردة الخدين لتلحق بسناء ٠

* * * *

وفى البداية بدا الامر كلعبة مسلية ، الطوابير والحركات العسكرية ، والتعبيرات العسكرية ، والشاويش وأوامره ونواهيه ، وهواء الصباح المبكر يلفح الوجوه ويثير الشعور ، وروح الجماعة من جديد ٠ وكأن الفريق شلة واحدة تدبر مؤامرة ، تماما كما كان الحال فى الدراسة الثانوية ٠

وتمتعت ليلى بكل لحظة من لحظات التدريب ، وهى تستعيد الاحساس الذى فقدته فى الجامعة ، الاحساس بأنها جزء من كل ٠

ثم بدأت تشعر بالعزلة حين نبهها الشاويش الى ضرورة رفع رأسها ، وحاولت أن ترفعها ولم تستطع ، كان كتفاها يرتفعان كلما همت برفع رأسها ٠ وشعرت أنها تحتاج لمجهود لتحقق الشىء الذى يأتى للأخريات سهلا طبيعيا ، وكانهن ولدن برؤوس مرفوعة ٠٠

وفى كل مرة ينبهها الشاويش ، وفى كل مرة تحاول ، وفى كل مرة تفشل وتهم بالانسحاب ثم تعود من جديد ٠

وقالت لسناء :

ـ مش قادره ، مش قادره يا سناء ٠

ـ بس عشان اتعودت تمشى وراسك محنية ٠٠

ـ وأعمل ايه ؟

ـ ارفعى راسك وارخى جسمك ، وقولى فى سرك طول ما انت ماشيه : أنا جميلة ، أنا ذكية ٠

وضحكت ليلى •

وقالت سناء :

ـ أنا مش با أهزر ، ضرورى الواحد يشعر بالكبرياء جوه ، فى نفسه •

وابتسمت ليلى ابتسامة شاحبة •

وحاولت من جديد ونجحت • ولاحظ كل من حولها أن قامتها قد اعتدلت وأن مشيتها قد استقامت •

ولكن ليلى واجهت صعوبة جديدة ، قال الشاويش انها تمسك بالبندقية كما لو كانت تمسك بالمقشة • وأثار هذا التعليق سيلا من السخرية • ولكن ليلى أوقفت السخرية حين بدأ التصويب ، وأثارت دهشة الجميع بما فيهم الشاويش •

بعد الطلقة الاولى ارتخى جسدها الذى كان متصلبا ، وتركز كيانها فى عينيها ، وبيد ثابتة ضغطت على الزناد ، وأصابت الهدف • وانتشت وصوبت وأصابت ، مرة بعد مرة ، ويوما بعد يوم ••

وعاودها الاحساس الذى تخلى عنها ، الاحساس بأنها قادرة وأنها قوية ••

ولم تكن كلمات التشجيع والاعجاب هى التى ملأتها بهذا الاحساس وانما كان هو الادراك أنها أرادت ، ونجحت فى تحقيق ارادتها ، وأنها تستطيع دائما أن تريد وأن تنجح فى تحقيق ما تريد •

وعمق من الشعور بالنجاح انعدام الفاصل الزمنى بين الارادة والفعل •

وأوشكت ليلى أن تنتهى من تدريبها العسكرى ، والشعور الجديد يلازمها ، والانتعاش يدب فى جسمها ويتألق فى عينيها •

* * * *

رفعت ليلى الى الدكتور رمزى وجها باسما متوردا وقالت وملابس التدريب تتأرجح فى يدها :

ـ صباح الخير يا دكتور •

كانت عائدة من ساحة التدريب لتوها ، وصادفت الدكتور رمزى عند الباب الرئيسى للكلية •

ودمدمت معتذرة ، واســـتدارت ، ومضت تهرول وكأن خطرا ما يلاحقها .

* * * *

وبعد أسبوع من هذه المقابلة العابرة،أرسل الدكتور رمزي يستدعي ليلى الى غرفته .

وعندما مدت يدها تفتح باب الغرفة تخلت عنها الشجاعة والصلابة التي تواجه بها الآخرين .

كانت ما تزال تعانى كلما واجهت الدكتور رمزى ، نفس الشعور الذى عانته يوم دخلت حجرته لأول مرة ، مزيجا من الخوف والرهبـة والانجذاب .

كان يقف وقد أعطى ظهره لمكتبه يبحث عن كتاب فى مكتبته الخاصة، واستدار برأسه حين فتحت الباب ، ولمحها ، والتقط فى نفس اللحظة كتابا ، وقال دون أن ينظر اليها :

ــ اتفضلى استريحى .

وجلست هى على طرف المقعد المجاور للمكتب ، وشدت ذيل ثوبها على ساقيها . وتركها تنتظر دقائق ، وهو يتصفح الكتاب ، ثم استدار وجلس على المكتب ، وقال :

ــ أنا عايز أقابل والدك ، ممكن تحددى ميعاد وياه ؟

وارتسمت على وجه ليلى الدهشة ، وقالت :

ــ حضرتك تحب تقابله امتى ؟

وفى بطء أخرج الدكتور رمزى مذكرته من أحـــد أدراج المكتب وفتحها ، وانكب عليها يتصفحها .

وبدأ عقل ليلى يدور فى سرعة ، لمــاذا يريد مقابلة والدها ؟ انه لا يعرفه ، وليس بينهما أى صلة . هذه العبارة يقولها الرجـل للمرأة حين ....

وتطلعت ليلى الى الدكتور رمزى من طرف عينها ، وبدا لها بعيـــدا معزولا كعادته فى صندوقه الزجاجى ...

لا ، لا يمكن ، لا يمكن ، لابد أن له مصلحة فى وزارة المالية وسمع أن والدها موظف فيها .

لا ، لا يمكن ، الناس لا تتزوج هكذا ..

ورفع اليها الدكتور رمزى رأسه وقال :

ــ الاتنين كويس يا ليلى .. ؟

ــ حاضر يا دكتور .

وقامت واقفة .

وقال وهو يبتسم :

ــ حا تردى على امتى .. ؟

ــ بكره ان شاء الله .

ووقفت ليلى لحظة مترددة ، ولكنها لم تجرؤ على سؤاله عن سبب رغبته فى مقابلة والدها .

وعلى غير العادة وقف الدكتور رمزى ، وصافحها قبل أن تنصرف

* * * *

قالت أم ليلى وهى جالسة على مائدة الغداء :

ــ والنبى ، أنا قلبى حاسس ، انه عايز يتجوزك يا ليلى .

وصرخت فيها ليلى فى حدة :

ــ هو انت ما فيش فى عقلك الا الجواز يا ماما ، هى الناس بتتجوز من الباب للطاق كده .

وركز أبوها عينيه فيها ، وقال فى برود :

ــ يعنى ايه من الباب للطاق ؟

وارتج على ليلى .

والتفت أبوها الى أمها وقال :

ــ على العموم ، مافيش داعى ، تطلعى فى عقل البنت كلام فارغ زى ده ، دا راجل له اسمه ومركزه ، ولما حا يتجوز حا يبص لفوق ..

وقالت الأم محتجة :

- يوه ، هي ليلى وحشه ، دا سي محمود الاتربي بيقول ...

واسنطردت تقص حكاية رددتها مائة مرة ، مؤداها أن لو كان في كلية الآداب ، ثلاثة مثل ليلى . لانصلح أمر الكلية ..

وبعد أن قام الأب عن المائدة ، مالت ليلى على أمها ، وقالت في صوت مكتوم .

- مافيش داعى تعدى وتحسبي ، لو كان موضوع جواز ، كان على الأقل لمح لى بكده ، الموضوع مش موضوع جواز ، وأنا با أقول لك أهو

وقامت من على المائدة غاضبة .

* * * *

وكان الموضوع موضوع زواج ، وبعد أن خرج الدكتور رمزى من البيت ، أحاط أبوها كتفيها بذراعيه وقال وهو يكاد يطير بها من الفرح:

- مبروك يا ليلى ، قرينا الفتحة على بركة الله .

وكان أول خاطر خطر لليلى ، أن أحدا لم يستشرها ، لا أبوها ولا الدكتور رمزى ، وكأن أحدا غيرها هو الذى سيتزوج . ولكنها نسيت هذا الخاطر في غمرة اعتدادها .

وازداد هذا الاعتداد ، حين عرف الخبر في الكلية،وتمتعت بنظرات الحسد والفضول ، وهى تشعر طوال الوقت أن الأيدى تشير اليها،وان من لم يعرفها عرفها ، لانها أصبحت خطيبة الدكتور رمزى .

واحتضنتها عديلة حين رأتها ، وقالت :

- يا بنت الايه ! أما حتة جوازه ؟ دا أنت هزيت الكليه .
وقبلتها سناء وقالت :

- مبروك .

وقالت عديله لسناء ، بعد أن انصرفت ليلى :

- جالك كلامي ، أنا أفهمها وهى طايره .

وقالت سناء فى حزن وهى ساهمة :

ـ مين كان يصدق ؟

وقالت عديلة دون أن تفهم مقصد سناء :

ـ فعلا ، مين كان يصدق ان ليلى تجيب الراحل الجهم ده ، على ملا وشه ؟! لكن صدق اللى قال « تحت السواهى دواهى »

وقالت سناء فى قرف :

ـ بلا خيبه ، والله هو اللى جابها على ملا وشها ، مش هى .

١٨

بدأ الاصطدام بين الدكتور رمزى وبين أم ليلى مبكرا ، وان لم يكن اصطداما بالمعنى المفهوم . فلم تكن أم ليلى تجرؤ حتى على الحديث أمام خطيب ابنتها ..

وعندما نوقش موضوع الخطوبة قال الدكتور رمزى رأيه ببساطة واختصار ، فهو يرى أن تكون الخطوبة « على الضيق » وأن يقسام الاحتفال (بكتب الكتاب) والزواج ، فى يوم واحد فى الأجازة الصيفية التى تعقب تخرج ليلى .

ووافق أبو ليلى ، وفتحت أمهـا فمها لتقول شيئا ثم أطبقته ولم تتكلم ، ولكنها تكلمت بعد أن خرج رمزى ، وانصب لومها كالعادة على ليلى .

ـ قاعده ساكته كده ليه ولا كأن حد داس لك على طرف ؟ هو أنت عازبه ، ولا ايه ؟ على الضيق ! الكلام ده كان يبقى معقول ، لو كان الجواز قريب ، لكن دا لسه سنة ونص ، ويا هنا من يعيش .

ـ بس ، أنت عايزه أيه يا ماما ؟

ـ يوه ! عايزه أفرح ، هو أنا ماليش نصيب فى الفرح ؟

كانت فرحه ، وجدت أخيرا عريسا لابنتها ، عريسا تستطيع أن

تتفاخر به أمام أختها ، فكيف تترك مثل هـــذه المناسبة تفوت هكذا « فطيس » ؟

ان حظ أختها كان دائما أحسن من حظها ، تزوجت أختها قاضيا وتزوجت هي موظفا بسيطا في وزارة المالية · وتزوجت جميلة قبـل ليلى بسنوات ، وأى زواج ؟! زواج ولا كل زواج ، زواج معتبر ، جعلها تلبس أحسن لبس ، وتختلط بأحسن الناس · فأولاد ســاميه هانم ودولت هانم معها باستمرار ، تدخل معهم وتخرج معهم · وصدقى ابن سامية هانم ، وأخته شوشيت ، عندها باستمرار · وعصام معهم طبعا ، وأى نصفة أصابت عصام ؟!

تخرج قبل محمود بسنة ، لأنه عاقل وناصح ولم يضيع ســـنة بحالها في الحرب ، والكلام الفارغ · وهو الآن نائب فى القصر العينى ومحمود عاطل بعـــد أن انتهى من سنة الامتياز ينتظر التعيين ، وقد يعين أو لا يعين ، وحتى لو عين ســـيعين حكيم صحة لا نائبا كعصام ، ولن يعين في القاهرة بل فى الاقاليم · وسيعيش بعيدا عنها فى الغربة بينما يعيش عصام فى حضن أمه ·

وعصام يختلط بأحسن الناس · وقلبها يحدثها أن وراء اختلاط جميلة بأولاد سامية هانم حكاية · ولابد أن أختها عينها من شوشيت لعصام ، وأختها حين تضرب ، تضرب لفوق ، وهى تعرفها جيدا ·

وقد طلبت هى من محمود أن يلاطف شوشيت فلم يهتم ، وقال : انها كالذكر ، لأنه عبيط ولا يفهم ما فيـــه مصلحته ، ومسيره يقع فى زواج متعوس ، بينما عصـــام واع وناصح ، ولا بد أنه الآن يلف على البنت ، والا فما معنى اختلاطهم الزائد ؟ ولماذا يتردد صدقي وشوشيت على بيت جميله باستمرار ؟ لا بد أن وراء ذلك سرا ، واذا تم زواج عصام بشوشيت يكون حظ أختها من السماء ··

وهى ؟ هى لا يريدون لها أن تفــرح ببنتها ، وكأن الفرح ليس من نصيبهـــا !!

واستمر النكد فى البيت أياما حول هذا الموضوع ، وأشتكت أم ليلى لأختها ولبنت أختها ولعصام ولمحمود ولزوجها ، ورددت الشكوى حتى ثار والد ليلى غاضبا فى وجهها ··

ـ خلاص ، قلنا كده يعنى كده .

وسالت دموع الأم دون أن تتكلم .

واستجمعت ليلى شجاعتها ، وبدأت تفتح الموضوع في حــذر للدكتور رمزى ، ولكنه قطع عليها الطريق .

ـ خلاص يا ليلى ، هو احنا اللى حانتجوز ولا هى ، احنا مابنحبش الدوشه والناس الكتير .

واقترحت جميله اقتراحا ارتضته أم ليلى ، وهو أن تقام الخطوبة على الضيق فى البيت ، ارضاء للدكتور رمزى ، على أن تحتفل هى بالمناسبة في حفل تقيمه فى بيتها ، وتدعو له الأقارب والأصدقاء .

وكان على ليلى أن تقنع الدكتور رمزى بهذا الحل .

ولفت ليلى حول الموضوع ، ودارت ، ثم رجت الدكتور رمزى أن يقبل هذا الاقتراح ، ونظر اليها مليا وقال :

ـ المهم عندى رأيك أنت ، أنت مقتنعه برأيى ، ولا ، لأ ؟

ـ طبعا مقتنعه ، بس عشان خاطر ماما .

وعكست عيناها رجاء ملحا ، كالرجاء الذى يلمع فى عينى طفلة ، وهى تنتظر أن يجيب لها أبوها طلبا .

وقال وهو يبتسم

ـ طيب يا ليلى .

وأضاف ، وكأنه لام نفسه على التنازل ، فى وقت ينبغى فيه أن يرسى قواعد العلاقة بينه وبينها .

ـ بس ضرورى تفهمى ياليلى ، أنى تنازلت ، عشان خاطر والدتك وانى ما أنتظرش أبدا أنى أضطر للتنازل مره تانيه . وفى المستقبل ضرورى يكون رأيى ورأيك حاجه واحده .

وقالت انها تفهم موقفه تماما وتقدره ، وتنفست فى ارتياح .

كانت تريد أن تخلص من هذه الشكليات من الخطوبة ، ومن حفلة

جميله ، ومن كل شيء ، وتفرغ اليه ، تنفرد به ، تفتح له قلبها ، ويفتح لها قلبه ، وتشعر به ، ويشعر بها ، ويزول الحاجز الذى يفصل بينهما ·

لم تعد العلاقة التى كانت تجمعه بها كأستاذ بطالبته ترضيها ، كانت تريد أن تشعر أنها خطيبته وحبيبته ·

نعم حبيبته · والا فلماذا خطبها ؟ فهى ليست جميلة ولا غنية ، ولا من أسرة ذات مركز اجتماعى خطير ولا شيء ، لا شيء على الاطلاق

فما الذى يجعل رجلا مثله ، يتزوج فتاة مثلها سوى الحب ؟

كانت قد عاشت حتى الآن فى ظل قوته ، وكانت تريد الآن أن تعيش فى ظل دفئه ، كانت تحلم باليوم الذى ينزاح فيه القناع الذى يغلف به عاطفته تجاهها ، وتتفجر فيه هذه العاطفة دافقة رقراقة تلفها واياه ، وتمسح على رهبتها منه ، وعلى شعورها بالخوف فى حضرته ·

كانت تريد أن تشعر أنها ليست مقبولة كانسانة فحسب ، بل محبوبة أيضا كامرأة ، ومرغوبة ·

وكانت هذه الرغبة تؤرقها ، غير أنها انشغلت عنها فى الأيام السابقة لاعلان الخطوبة ·

★ ★ ★ ★

كان البيت يشغى بالناس وكانت ليلى تتلفت حولها فتجد وجوها حبيبة الى قلبها ، أمها وخالتها وجميله ومحمود أحيانا ·

كانت مدة اقامته فى المستشفى كطالب امتياز قد انتهت ، وأصبح يقيم فى البيت فى انتظار قرار تعيينه · ولكنه كان يقضى معظم وقته فى الخارج · وحين يأتى من الخارج تدب الحياة فى البيت بأجمعه وكأنه قد أتى معه بنسمة منعشة ، وكأنه كان يفيض بسعادته على الآخرين ·

كان سعيدا للغاية ، لا يكاد يستقر على الأرض من فرط سعادته ·

وفى فورة كفورة الفقاقيع على سطح الميــــاه الغازية يقبل ليلى ، ويحتضن أمه ويربت على كتف خالته ، ويطرى ذوق جميله فى اختيار ثوبها·وتزول الفورة وتعمق العينان وترق الشفتان حين ينظر الى سناء نظرة طويلة عميقة تثقلها عاطفته الجياشه · ثم يتخفف من حمله وتعود الفورة من جديد · وتسدل سيناء جفنيها على عينيها وكأنها مخدرة ·

وكانت ليلى تتساءل : ألا تخشى سناء أن يلحظها الناس ؟ ثم كيف

تعرف المواعيد التي يبقى فيها محمود في البيت ؟ لا بد أن محمود يتصل بها في التليفون ، ولا بد أنهما يتقابلان في الخارج . ولكن كيف ؟ أن الرقابة على سناء صارمة . فكيف تفلت من هذه الرقابة ؟ ان سناء تلعب بالنار ، والنار ستحرقها وتحرق محمودا .

ولكن من الواضح أنهما يستعذبان هذه النار ، محمود سعيد وكأنه قد ولد من جديد ، قوى وأرجل وأوسم ، وأكثر ثقة في نفسه ، وفي المستقبل وسناء لا تعيش على الأرض ، انهـا تطير . وهما قد ازدادا جرأة واعتدادا هذه الأيام وكأنهما متفقان على خطوة ما ، خطوة تتطلب كل جرأتهما . وهذه حقيقة ثابتة لم تغب عن عيني جميلة الفاحصتين . ولم يكن من الممكن أن تفوتهما الآن .

* * * *

كان التغير الذى طرأ على جميله في مدة السنوات الثلاث الأخيرة تغيرا غريبا يصعب تصديقه ، تحولت الفتاة الغّريرة الطفلة الى امرأة ناضجة ماهرة عملية محنكة .

امتلأ جسدها ، واســتدار ، واستقامت مشيتها ، واستقر الوجه الجميل فوق العنق الطويل الشاهق البياض ، بعد أن كان يدور في فورة ، أشبه بفورة محمود . وكللت الجدائل السوداء الحالكة ، الجبين الابيض المنبسط في كبرياء ، شعرة فوق شعرة وكأنها مرسومة بريشة فنان . واحتلت العينين العسليتين اللتين كانتا تترقرقان . كالنبـــع الصافي ، نظرة جريئة قاسية باردة . وأصبحت البسمة الخجول بسمه مرسومة مدروسة .

وبدت جميلة أشبه بتمثال مرمرى رائع الجمال وتحت السطح الخامد نار ، والنار المستترة تلهب رغبة الرجال ، والسطح الخامد يستفز رجولتهم ، ويدعوهم الى النضال ، الى امتحان قوتهم ازاء هـــذه المرأة الجميلة المعتدة بجمالها .

وكانت جميلة تمضي مرتفعة الرأس منتصرة ، تشعر أنها تستطيع أن تجتذب أى رجل ترغب قل رغبة في اجتذابه ، وكانت تتمتع بكل دقيقة تقضيها في كل حفلة من الحفلات .

ولكن عندما تعود الى البيت من سهرتها ، تلفها الكآبة ، وهى تمر بحجرة زوجها المغلقة ، وغطيطه يصل الى مسامعها .

وتتمدد فى سريرها وتحلم أنها عادت الى سن السابعة عشرة ، وأنها صغيرة ولم تتزوج وأنها تحب . تحب من ؟ انسانا آخر غير كل هؤلاء الذين تقابلهم فى الحفلات . فهؤلاء يمضون وقتا لطيفا ، كما تمضى هى هذا الوقت ، لا أكثر ولا أقل . وهى ترغب لا فى الغزل ولكن فى حب عميق ، حب صامت أصيل ، يلفها لا فى معركة حامية ، ولكن فى استرخاءة حنان

* * * *

وعندما عرفت جميلة أن ليلى على وشك أن تخطب ، احتل القلق عينيها ، وعندما انفردت بها فى الغرفة قالت :

ــ انت بتحبى رمزى يا ليلى ، مش كده ؟

وهزت ليلى رأسها بالايجاب

وانزاح القلق عن وجه جميلة . وارتخت فى جلستها ، وضحكت ضحكة عصبية قصيرة ، وقالت :

ــ أنا عارفة كده برضه ــ انت طول عمرك أعقل منى ، انتظرت لغاية ما جالك اللى يحبك وتحبيه .

ومالت ليلى على جميلة وأمسكت بيدها .

ــ وانت كمان مبسوطة فى جوازتك . مش كده يا جميله ؟

وبدت فى عينى جميله نظرة حزينة مالبثت أن اختفت وقامت واقفة وعندما وصلت الى النافذة استدارت بجانب من وجهها وقالت وفى عينيها نظرتها الباردة القاسية :

ــ اسألى ماما تقول لك . تقولك على السعاده اللى أنا فيها !

ثم استدارت تواجه ليلى وتقول :

ــ على العموم احنا فيك دلوقت ، ضرورى نفكر ، حانعمل ايه فى الحفله

كانت مهتمة بموضوع خطوبة ليلى ، وبالحفلة وبكل التفصيلات ٠

وكانت تتردد على ليلى فى هذه الفترة كل يوم تقريبا ، تدخل البيت برائحتها العبقة وبثيابها الرائعة فى بساطة وبذخ وانسجام ، ويتنهد الجميع فى ارتياح ٠ وكأنهم يلقون بكل المسئوليات عليها ٠ فهى التى تعرف كل شىء ، وهى التى تقترح ، وهى التى تدبر الامور فى بساطة وفى دراية ، وكأنها ظلت طول حياتها تدبر أمور الخطوبة والزواج ٠

وفى أول الأمر كانت تأتى مع زوجها ثم أسقطته وأصبحت تأتى وحيدة ٠

وقالت أمها :

ـ أمال فين على بك ؟

وهزت جميلة كتفيها وقالت :

ـ حا أجيبه يعمل أيه ؟ ينام زى ما عمل امبارح ؟!

وكتمت ليلى ضحكتها ٠ تصورت على بك وقد افترش الأريكة فكاد يملؤها ، ومال برأسه على كتفه ، وانفتح فمه وعلا تنفسه ، وهو يغط فى نومه ، وسلسلة الساعة الذهبية تتدلى عى كرشه ، ضخمة كبيرة ، وكأنها السلسلة التى يوثق بها المساجين ٠

وقالت أم جميلة :

ـ لا ، مالكيش حق يا جميله ٠ مش قرايبه ؟!

وهزت جميلة كتفها فى استخفاف ، وقالت لليلى :

ـ على فكرة عصام بيعتذر لك ٠ وجاى بكره يهنيك ٠

وكانت ليلى قلقة لأن عصام لم يهنئها ٠ كانت تريد أن تراه وأن تشعر أنه لا يحمل لها أى مرارة وأن تشعره أنها لا تحمل له أى مرارة٠

وكأنما أرادت أن تصفى كل شىء قبل أن تخطب ٠

* * * *

وجاء عصام مع صدقى ، وكانا قد أصبحا صديقين متلازمين٠وحين رأتهما ليلى معا ، ابتسمت ٠

تذكرت ليلة خطوبة جميلة ، حين أراد عصام أن يخنقها ، لمجرد أن صدقى حادثها ٠

ولمح عصام ابتسامتها وفهـم سرها . وحين خلا مكان ، جلس الى جانبها ، وقال وهو يبتسم :

- كنت بتضحكى على ايه ؟

- يعنى بقيتوا أصحاب انت وصدقى !

وضحك عصام وقال :

- فاكره ؟

وقالت ليلى :

- كان لعب عيال . مش كده ؟

ولم يجب عصام .

ولمحت ليلى صدقي يهمس فى أذن جميلة بكلمة ، وجميـلة تنفث دخان سيجارتها فى وجهه ، وتضحك ضحكات قصيرة متقطعة .

ورفع عصام وجهه الى ليلى وقال ، وهو يبتسم ابتسامة الخجول :

- عارفه يا ليلى أنا ناوى أعمل ايه لما اتجوز ؟

ونظرت اليه ليلى متسائلة ، وقال :

- أول بنت لى ، حا أسميها ليلى ، على اسمك .

وشعرت ليلى بخجل ، شعرت أنها تافهة وحقيرة ، وأن عصام الذى احتقرته يوما ، أفضل وأشجع منها .

عصام لا يريد أن يتنكر لعاطفة أصيلة ، ملأت قلبه يوما . لقـد انقضت هذه العاطفة بالنسبة اليه ، ومع ذلك ما زال يدخرها فى قلبه كشىء جميل يعتز به . وهى تتنكر لهذه العاطفة التى ملأتها بالسعادة يوما ، وتسميها فى قسوة وجفاف « لعب عيال » .

تتنكر لنفسها لترضى من ؟ نفسها ؟ رمزى ؟!

ولم تنسق ليلى فى تفكيرها ، قطعت عليها جميله هذا التفكير حين صفقت بيديها وقالت :

- ياللا ، الرجاله يتفضلوا ، احنا يا ستات عندنا شغل .

ووقف عصام ، وجلس صدقي مكانه لا يتحرك وسيما جذابا أنيقا جريئا يقتحم بنظرته جميلة ، وهي تجلس الى جانبه ٠

وتدلل صدقي قبل أن ينصرف ، وقال انه يموت في شغل الستات، ولكن عصام سحبه من يده وهو يضحك ٠

* * * *

وبدأت جميلة تناقش تفاصيل الحفلة التي ستقيمها وانحصرالنقاش في اختيار الثوب الذى ستحضر به ليلى حفـــلة الخطوبة ٠ وبدأت ليلى تناقش نوعالقماش ، واعترضت جميلة ٠ قالت ان « الموديل » هو الذى يحدد نوع القماش ٠ وأعلنت أمام الجميع أن الثوب سيكون هديتها الى ليلى بمناسبة خطوبتها ٠

وفى اليوم التالى أخذت جميله ليلى الى حائكتها وقالت للحائكه :

ـ أنا عايزه أحسن حاجة عندك يا مدام ٠

ـ حاجة سبيسال يا مدام ٠

قالت الحائكة وهى تشير الى غلاء الموديل الذى ستعرضه عليهما ٠ وقالت جميلة فى عناد :

ـ قلت لك أحسن حاجه ٠

وأرتها « موديل من الشـــاش » وقالت انه من تصميم كريستيان ديور ٠ ووقفت ليلى وجميـــلة مبهوتتين أمام الموديل ، وقالت الحائكة بالفرنسية :

ـ دا موش موديل ، دا حلم ٠

ولم تخالف الحقيقة فيما قالت ٠ لم تر ليلى فى حياتها شيئا أجمل من ذلك ولا حتى فى السينما ، وكادت ترى نفسها وهى ترتدى هـــذا الثوب فى شيفون أبيض ، لا بد أنه سيجعلها أجمل مما هى عليهعشرات المرات ، ولا بد أن رمزى سيراها جميله اذ ذاك ٠٠

وانقبض وجه ليلى وقالت :

ـ فيه حاجه تانيه من فضلك يا مدام ؟

وقالت جميلة في استغراب :

ـ انت مجنونة يا ليلى ؟! هو فيه أحلى من كده ؟

وقالت ليلى :

ـ أنا عايزه حاجه مقفوله ٠

وهزت الحائكة كتفها وقالت فى استخفاف :

ـ كوكتيل مقفول ؟ !

وصمتت ليلى ٠ ورجت جميله الحائكة ، ورفضت الحائكة فى عناد وقالت بالفرنسية فى احتقار ٠

ـ أنا فنانة مش خياطه ٠ وما أفصلش فستان كوكتيل مقفول ٠

وجلست جميلة فى سيارتها ، وقد تصلب جسمها ، ولمعت الدموع فى عينيها من الغيظ ، ولمست ليلى فخذها برقة وقالت :

ـ أنا آسفه يا جميله ٠

ولم ترد جميلة ٠

ومالت ليلى وقبلتها فى خدها ، والتفتت اليهـا جميله وقالت فى احتداد :

ـ أنا عايزه أفهم بس ، انت ليه عايزه تكتمى نفسك الكتمه السوده دى ؟ طول عمرك بتلبسى المفتوح ٠٠٠

وقالت ليلى :

ـ أصل ٠٠ أصل رمزى ما يحبش الحاجات المفتوحه ٠

ـ ما يتفلق يا ستى ٠ هو الرجاله حاتتدخـــل فى هدوم الستات كمان ؟ !

ـ ما أقدرش يا جميلة ٠

ومالت جميلة على ليلى وقالت فى بطء :

ـ هاودينى يا ليلى ، أنا جربت الدنيـــا أكتر منك ، الست لما تنخ للراجل من أول يوم ، يركبها ويدلدل رجليه ٠٠٠

وشعرت ليلى بوخزة فى قلبها ، وأدركت فجأة أن ذلك الشىء الذى تحذرها منه جميلة قد حدث بالفعل . حدث أو لم يحدث ، لا بد أن يكون الثوب مقفولا . ولن يرضى عنه رمزى الا اذا كان مقفولا .

وخاطت لها خالتها ثوب الخطوبة مقفولا .

* * * *

وعندما وقفت ليلى أمام المرآة . قالت خالتها بعد أن أجرت اللمسات الاخيرة فى الثوب :

ـ جنان يا حبوبه ، جنان .

وتراجعت الى الوراء ، وضاقت عيناها وهى تفحص الثوب من بعيد ثم ضحكت فجأة وقالت :

ـ عارفه يا ليلى ؟ فستانك طلع زى ايه ؟

وأدارت ليلى رأسها .

ـ زى ايه يا خالتى ؟

ـ زى فستان جواز جميله ، بس ده مقفول والتانى مكشوف . تمام تمام ، نفس الكسم والرسم والقماش .

وغامت عينا ليلى ... رأت جميلة تقف فى السطح يوم حريق القاهرة مولية ظهرها الى السماء ، مسمرة كالتمثال فى ثوبها الابيض ، وكتل الدخان الكثيفة الكريهة تحيط بها كالاطار .

وتردد فى أذن ليلى صوت حسين وهو يقول :

ـ دى مش النهايه يا ليلى ، صدقينى ، دى مش النهايه ..

والتفتت ليلى الى خالتها وقالت بصوت ضعيف :

ـ خلاص يا خالتى ؟!

١٩

جلست ليلى في السيارة بين أبيها وخطيبها فى الطـريق الى بيت جميله . كان أبوها يجلس الى جانبها جامدا متصلبا ، ورمزى قد انكمش فى جلسته وكأنه يخشى أن يمس جسده جسدها .

وشعرت ليلى برجفة باردة تمسها رغم أن الأمسية كانت من أمسيات شهر يوليو . وحاولت أن تتكلم لتزيل الحرج الذى يسود ثلاثتهم وأدارت رأسها الى رمزى وقالت :

ــ الفستان كويس ؟

ونظر اليها أبوها في استنكار .

وقال رمزى وهو يكتم ابتسامته ، وكأنه يأخذ طفلة صغيرة على قدر عقلها :

ــ عال .

ولم ترض الابتسامة ولا التعليق ليلى . ولكنها عزت تحفظ رمزى الى وجود أبيها معهم . وربض الصمت على ثلاثتهم من جديد . وبدأت ليلى تعبث بخاتم الخطوبه وهى تطيل النظر اليه ..

كان رمزى قد جاء بأمه الى بيت ليلى فى اليوم السـابق ، وألبسها الخاتم مع دبلة ذهبية .

وأحبت ليلى أمه للوهلة الأولى . شعرت كأن شيئا ما يقربها من هذه المرأة ، ويجذبها اليها ، كما لو كان بينهما شىء مشترك . وظلت تتطلع الى وجهها . كان في وجهها حلاوة لم تمحها السنون ورقة ووداعة وانكسار ، وفي عينيها حزن دفين ، يغيب فجأة ، حين تتطلع فى اعتداد الى ابنها ...

ولاحظ رمزى أن ليلى تعبث بالخاتم وقطع الصمت الذى سـاد ثلاثتهم وقال :

ــ والخاتم عجبك ؟

ورفعت اليه ليلى وجهها مبتسمة .

ـ فى منتهى الجمال •

وقال رمزى :

ـ الحاجه الثمينه دايما تبقى جميله •

ولم ترتح ليلى الى هذه الاشارة الى ثمن الخاتم ، وقال أبوها :

ـ فعلا الغالى تمنه فيه •

وربض الصمت على الثلاثة حتى توقفت العربة أمام بيت جميلة • وانفتح الباب ولفت ليلى موجة من الدفء

* * * *

اندفع محمود من بين صفوف المنتظرين تجاه ليلى ، كان ينوى أن يصافحها فقط ، ولكنه عندما اقترب منها ووضع يدها بين يديه ، جذبها الى صدره واحتضنها •

وتشبثت ليلى به وشعرت أنه قريب منها ، أقرب مما كان طيلة السنين الماضية •

وعندما انفصل الاخ عن الأخت كانت الدموع تلمع فى عينى ليلى وكانت أمها تقف بعيدا وشفتاها ترتجفان •

وصرخت جميلة فى حماس وهى تمسك بكتفى ليلى :

ـ انت جنان يا حبيبتى النهارده ، جنان !

وقالت خالتها :

ـ يا روحى عليك ، ربنا يحميك ، عروسه ولا كل العرايس •

وصافحها عصام وهو يبتسم ابتسامته الخجول وقال :

ـ فى الحقيقة ، حاجه تخلى الواحد يقرر انه يتجوز •

وصافحها على بك زوج جميلة ، وقال وكرشه يتهدج :

ـ ما شاء الله يا ست هانم ، حاجه عظيمه خالص يا ست هانم •

ووقف الدكتور رمزى متباعدا ، ينتظر انتهاء المظاهرة ، ثم تحول اليه المستقبلون يصافحونه ويهنئونه •

وتقدمت ليلى الى حيث تقف أمها ومالت عليها وقبلتها ولمعت الدموع فى عينيها من جديد ٠

وعزفت الموسيقى ٠ وأمسك رمزى بذراع ليلى وسار بها الى داخل الحديقة ٠

وشعرت ليلى بشىء من الحرج وهى تمر بين الموائد المتناثرة فى الحديقة المزدحمة بالناس ثم زال الحرج ٠

وقف الرجال ليتملوا منها وهى تمر ، وشعرت بعيونهم تطوف بوجهها فى حنان ، وكأنها تربت على خدها ، وزغردت سيدة وأفسحت بزغرودتها المجال للتعليقات ٠ وارتفع صوت نسائى يقول « يا روحى عليها زى القمر » وقال صوت رجل « زى الخوخه ، الخوخه الحلوه » ٠

وشدت ليلى قامتها وارتفع رأسها وتورد خداها ، وتكور فمها الدقيق ، وترقرقت عيناها بلمعان وهاج ٠ شعرت أنها جميلة وأنها محبوبة ومرغوبة ، وانتشت ٠

وعند ما اقتربت من المائدة الرئيسية خلعت قفازها وهى تحنى رأسها الى جانب فى دلال ، ومدت يدها تقطع التورتة الكبيرة ٠ وابتدأ حفل الشاى ٠

وعند ما مرت السكين فى التورتة ، تذكرت ليلى فجأة أن رمزى بجانبها ، وتطلعت اليه وهى تضحك وقدمت له قطعة من التورتة وهى تنظر اليه فى شقاوة ٠٠

الليلة ٠٠ الليلة سيقول لها شيئا جميلا ، الليلة ٠ شيئا يهزها ويلفهما معا ، ويجعلهما يحلقان عاليا بعيدا عن الناس ٠ الليلة هى جميلة فى ثوبها الابيض وهو جميل فى بذلته الكحلية ٠ والليلة ليلتهما التى سيتذكرانها دائما ، حين ينفردان فى بيتهما ، يحكى لها ، وتحكى له

الليلة سيمد يده الى يدها من تحت المائدة ، ويمسك بها ويهمس بشىء فى أذنها ، شىء يجرى الدماء ساخنة فى عروقها ٠ الليلة ستطوف نظرته بها كأنها تتحسسها ، وكأنها تربت عليها وكأنها تضمها ، ثم تنزاح عنها فى ألم ، حين يدرك هو أن النظرة لا تكفى ، لا تشبع الرغبة فى أن يحتويها فى كيانه ٠

والليلة ستتوقف الكلمات على لسانه قاصرة مبتورة عاجزة عن تحمل الحب الذى يطويه لها هذا الرجل الكبير فى جوانحه ٠

* * * *

ومالت ليلى برأسها الى جانب ، وقالت فى خفة وهى تحاول أن تصل برمزى الى اللحظة التى تنتظرها ٠

ـ يعنى ما قلتش الفستان عاجبك ولا لأ ؟

ـ ما قلت ٠

وتكور فم ليلى وهى تمضغ قطعة من التورتة ٠

ـ يعنى عاجبك ؟

وابتسم رمزى وقال :

ـ أنا عارف أنت عايزانى أقول ايه ؟ لكن أظن الكلام ده اتقال كفايه الليله ٠ بعدين تطلعى فيها ٠٠

وقالت فى دلال وعيناها تتوهجان :

ـ عايزاك تقول ايه ؟

وضحك رمزى

ـ انك حلوه ٠

واحمر وجه ليلى ، وأطرقت فى حياء وقالت فى صوت هامس :

ـ يعنى أنا حلوه صحيح النهارده ؟

ووجف قلبها ، وهى فى انتظار الاجابة ٠ وقال رمزى :

ـ ودى عايزه كلام !

ولكن كان فى رده نغمة من الاستخفاف لم ترتح اليها ليلى ٠ وانقبضت يدها على طرف المائدة وكأنها تتشبث بها ٠

وقالت وهى تهز رأسها كطفلة عنيدة :

ـ على كل حال ، أنا ضرورى أكون حلوه ، بالنسبة لك انت على الأقل ، والا ما كنتش خطبتنى ٠

وقال رمزى :

ـ أنا على العموم ماباختارش مراتي على أساس سوقى ٠

وسقطت الشوكة من يد ليلى فى الطبق ٠

وأضاف رمزى :

ـ المظهر الخارجى مايهمنيش فى كتير ، اللى يهمنى الاستقامه ٠

ولم تعاود ليلى الأكل ٠ أبعدت الطبق عنها ، وانقبض وجهها وعيناها تطوفان بالحديقة ٠

ولاحظت ليلى أن جميلة قد نظمت كل شىء بنفس الطريقة التى نظم بها ليلة الاحتفال بزواجها ٠ الموائد متناثرة فى الحديقة حول الممر ، والانوار الملونة تتلألأ بين الاشجار ، والاوركسترا فى نفس المكان عند مدخل الحديقة ، ونفس الوجوه تتطلع اليها ، والمائدة الرئيسية بالقرب من مدخل البيت ٠٠٠ مع فارق واحد ٠٠٠ أنها هى تجلس حول المائدة الرئيسية بدلا من جميلة ، ورمزى يجلس مكان على بك ٠

* * * *

مالت جميلة على ليلى ورمزى وقالت :

ـ ايه رأيكم ؟ كل حاجه كويسه ؟

وأشارت ليلى الى البذخ الذى تبدى فى كل شىء ، وقالت فى صوت ضعيف :

ـ كل ده عشانى ؟ عشانى أنا يا جميله ؟

وكأنها تستكثر على نفسها هذا الحفل الباذخ ٠

وضحكت جميلة وقالت :

ـ يا سلام يا ستى ، هو احنا عندنا كام ليلى ؟!

واعتدلت فى وقفتها ، وقالت وهى تضحك فى استفزاز :

ـ وعشان كمان الدكتور رمزى ، على الله يكون مبسوط ٠ احنا عارفين ، انه مايحبش الحفلات ، والكلام الفارغ ده ، ولكن حانعمل ايه بقى ؟ ضرورى ياخدنا على قد عقلنا ٠٠

ولم تفت نبرة السخرية على الدكتور رمزى ، ونظر الى جميلة فى غضب . وصمدت جميله لنظرته ، وهى تكتم ابتسامتها .

وذاب غضبه فى إبتسامة وقال :

ـ على العموم يا ستى ، احنا متشكرين .

وهمت جميله بالانصراف ، ثم توقفت ، وكأنها تذكرت شيئا ، وقالت لليلى وهى تشير بيدها الى الحديقة :

ـ خدت بالك يا ليلى ؟ أنا عملت كل حاجه زى يوم جوازى تمام .

وتلفتت ليلى حولها ساهمة .

وقالت جميلة وهى تستدير لتنصرف :

ـ تمام يا ليلى ، تمام .

وبدت نظرة حزينة فى عينى ليلى وهى تقول :

ـ فعلا زى يوم جوازك تمام .

ولكن جميلة لم تسمعها ، كانت قد أولتهم ظهرها وهى تتجه الى موائد المدعوين .

وتركز نظر رمزى على ظهر جميله ، وهى تسير فى ثوبها الضيق . كانت فى ثوب أسود حالك السواد يضم فى عنف جسدها الفائر ، يكشف عن جانب من الظهر ، وينفرج ليبرز دقة الخصر ، ثم ينحبس عند الردفين ، وكأنه انحبس منها فجأة فى هذا الموضع وهى تلبس ، وسدلت بقيته فى صعوبة على ساقيها البيضاوين المتلثتين فى امتشاق وانسجام .

وارتفعت عينا الدكتور رمزى من أسفل الى أعلى ، حيث ينفرج الثوب الأسود عن كتفين مستديرتين كالتفاحتين ، ويمتد ليكشف عن عنق طويل من مرمر .

وغرق رمزى فى السواد من جديد ، سواد شعرها الحالك القصير المقصوص فى استدارة ..

وراقبت ليلى جميلة وهى تقترب من المائدة التى يجلس عليها صدقى وعصام وشوشيت ..

كان صدقى يجلس مسترخيا فى مقعده وهو يلعب بسلسلة ذهبية فى يده ، ولكن وجهه لم يكن مسترخيا كجسده ، كان يتحفز لجميله وهى تقترب الى حيث يجلس .

وعصام لم يشعر باقتراب جميله ، كان منصرفا الى شوشيت أخت صدقى ، ينظر اليها نظرته الخجول ويبتسم فى وجههـــا ابتسامته غير المكتملة ، ويحاول ، بلا فائدة ، أن يصل اليها . وهى تجلس غائبة عنه غارقة فى دخان سيجارتها ، نحيلة رهيفة ليس فى وجهها جمال سوى جمال عينيها الكبيرتين الحالمتين اللتين تنظران بعيدا ، الى حيث يتطاير الدخان .

وعصام يحاول ، المسكين يحاول أن يقوم بالدور الذى أسند اليه دور المغازل ، وهى قريبة منه وبعيدة ، كما لو كانت محبوسة فى دخان سيجارتها ..

وجميله تميل على صدقى ، وتقدم له قطعة من الجاتو ، وصدقى يعتدل فى جلسته ، ويهمس فى أذنها بشىء ، وتهز جميله رأســـها بالنفى .

جميلة تقول لا ، وتتجه الى المائدة التى يجلس عليها زوجها بكرشه المنتفخ ثم تطوف ببقية الموائد .

وانتقلت ليلى بنظرتها الى المائدة التى تجلس عليها أمها ... أمها قلقة ، تجلس وقد تهدل كتفاها ، وترفع عينيها فى حـــذر وفى خوف وكأنها تريد أن تنظر الى شىء ، وتخشى أن تتحقق مخاوفها . ولكن مم تخاف أمها ؟ أتخاف ألا تكون هى سعيدة ؟. لا انها لا تنظر فى اتجاهها . انها تنظر فى اتجاه اليمين ، فى اتجاه محمود وسناء ..

سناء تجلس مع محمود وحدهما ، ياللجرأة ! سناء وقد تورد وجهها تهمس فى أذن محمود بشىء ، وعينا محمود تلمعان كفصين من الفيروز

ومالت ليلى الى الأمام ولم تستطع أن ترخى عينها عن سناء ومحمود وكأنها مربوطة اليهما بخيوط سحرية .

* * * *

ولمس رمزى ذراع ليلى ورأت صدقى يقف خلفها يهنئها ٠

وقال رمزي وهو يرقب صدقي يتخذ الاتجاه المضاد ، ويعبر الباب متجها الى داخل القيللا ٠

ـ أخو جميله ؟

وضحكت ليلى فى سخرية ، وكأنها قد وجدت منفذا لغيظها ٠

ـ صدقى ، أخو جميله ، ؟! طبعا لأ ٠ اللى ما فيه شبه بينهم !

ـ فى المظهر الخارجى جايز ، ولكن نفس الشخصيه ٠

ـ أبدا ما فيش نسبة ، جميله بنت طيبه وبسيطه ، وصدقى ٠٠

وقاطعها رمزى :

ـ يعنى عايزه تقولى ، ان جميله شخصيتها زى شخصيتك مثلا ؟

ـ تقريبا ، احنا متربيين سوا فى بيت واحد ٠

وهز رمزى رأسه ، وهو ما يزال يحد النظر الى جميله :

ـ لأ هى حاجه تانيه خالص ـ وعمرك ما حاتبقى زيها ٠

ونظرت اليه ليلى فى دهشة ، وضحكت فى ارتباك ٠

وقال رمزى :

ـ بتضحكى على ايه ؟

ـ أصل أنت قلت الجمله دى بطريقه غريبه ، زي ما تكون زعلان أنى مش زى جميله ٠

ونظر رمزى الى ليلىطويلا ، وهو يسحب نفسا من سيجارته ،وقال:

ـ لو كنت زيها ، ماكنتش اتجوزتك ٠

ـ ليه ؟ جميله مالها ؟

ـ أنا ماقلتش حاجه ، جايز هى أحسن بنت ٠ بس مش الطراز اللى ينفعنى ، قصدى كزوجه ٠

ـ قصدك الطريقه اللى بتلبس وبتزوق بها ؟

ـ لأ حاجة أعمق من كده ، شخصيتها ، شخصيتها ماتتمشاش مع شخصيتى ٠

وترددت ليلى لحظة ، ثم قذفت بالسؤال الذى يعذبها ٠

ـ وانت عايز تتجوزني ، عشان شخصيتي بتتمشى مع شخصيتك؟
ونظرت اليه ، تنتظر أن يلين وجهه ، أن يخبرها أنه يحبها ، وانه أحبها دائما .

وقال رمزى في بساطة ، ودون أن تختلج عضلة واحدة من عضلات وجهه :

ـ طبعا ، عشان مطيعه وهاديه ، وبتسمعى الكلام .

وتشبثت ليلى ببقية من أمل ، وقالت :

ـ بس ؟!

وتوقف تنفسها ، وهى تنتظر الجواب . وقال رمزى :

ـ أمال يعنى عشان ايه ؟

* * * *

وخفضت ليلى رأسها ، وانحنت ترقب المائدة بعينين زائغتين،وفى قدح نصف ممتلىء من الشاى ، لمحت ذبابة غارقة تحاول فى يأس واستماتة أن تخلص نفسها .

وبحركة لا ارادية ارتفع رأس ليلى ، وتركز كيانها بأجمعه فى مراقبة محمود وسناء . وتسلل الى قلبها ألم مفاجىء ، وكأن يدا تعتصره،وكلما ازداد الألم ازدادت انكبابا على مراقبة سناء ومحمود ، وكأنها تستعذب الألم وتسعى الى مزيد منه . وعيناها مفتوحتان ورأسها يدور بين سناء ومحمود ، وكيانها تستوعبه المراقبة ... محمود قد رقت شفتاه حتى كادتا تختفيان ، وسناء احمر وجهها ، وأشاحت برأسها فى دلال ، محمود يميل عبر المائدة ويهمس بشىء ، وسناء تكز على شفتها حتى لا تنفجر ضاحكة . نظرة محمود تتحسس سناء وكأنها يد انسان أعمى ، وسناء تسدل جفنيها على عينيها ، وتتحسس بيدها يد محمود من تحت المائدة . محمود يضع كلتا يديه على المائدة وهو يضحك فى شقاوة ، سناء تنظر اليه فى دهشة وهى لا تدرك مرماه ، محمود يقول لها شيئا ، ويشير اليها بيده . عينا سناء تتوهجان وشفتاها الرقيقتان تنطبقان فى تحفز .

سناء تضع يدها على المائدة ومحمود يمسك بيدها بين يديه أمام الناس ، أمام كل الناس ، فى النور ، ليعرف من لا يعرف أن سناء تحب محمود وأن محمود يحب سناء .

ومس رمزى ذراع ليلى وقال :

- جرى ايه ؟ يا اقولك سرحانه فى أيه ؟

ونظرت اليه ليلى نظرة غريبة وكأنها أفاقت لتوها من حلم • وكأنها نسيت أنه موجود الى جوارها • ولكنه موجود ، موجود في كل ذرة من الهواء ، موجود وكأنه وحده هو الموجود •

وسرت رجفة باردة فى جسم ليلى •• « فى تلاجة ، وينقفل عليها » سناء قالت « اللى تتجوزه تتحط فى تلاجه وينقفل عليها » •

ومالت ليلى على رمزى وهى تضحك وكأنهـــا ستحكى له حكاية تستخف بها ، حكاية مضحكة لا يصدقها عقل •

- تصور ؟! سناء ومحمود بيحبوا بعض • تصور ؟!

وانكفأ رمزى يراقب سناء ومحمود ، وقالت ليلى فى صـــوت حاد متقطع وكأنها فقدت القدرة على التنفس الطويل :

- لعب عيال ! مش كده ، لعب ، لعب عيال ، عيال •

وانتابت صوتها فى المقطع الأخير بحة أشبه ببحة البكاء • ولم يعرها رمزى أى اهتمام ، كان اهتمامه منصبا على مراقبة سناء ومحمود وكأنه. يجد فى هذه المراقبة لذة •

كان من الواضح أن ســناء ومحمود قد قررا أن يتحـــديا كل الموجودين ، وأن يعلنا عزمهما على الزواج بطريقة لا تحتمل الشك •

واعتدل رمزى فى جلسته وقال فى استنكار :

- فيه خطوبه رسمى ؟!

وضحكت ليلى ضحكات قصيرة محمومة وكأنه ألقى بنكتة • ومالت عليه وكأنهـــا ستفضى له بسر غريب • وقالت هامسة وقد اتسعت عيناها :

- فيه حب • تصور ؟!

وضحكت ضحكة أشبه ما تكون بالنشيج •

واعتدلت فى جلستها • وعادت من جديد تراقب ســـناء ومحمود وكأنها مشدودة اليهما بخيوط سحرية • ولكنها لم تستطع أن تركز ، كان صوت رمزى يصــل اليها من بعيــد وكأنه يتكلم من داخل حجرة زجاجية مقفلة ••

ـ مافيش حاجه اسمها حب · دي الكلمة اللى الانسان المتحضر بيقنع بها الغريزة · واللى انت شايفاه قدامك ، اندفاع ، زى اندفاع الحيوان وراء غريزته ·

ولكن من حسن الحظ أن الصوت قد توقف · وأنها تستطيع الآن أن تركز ، أن ترقب ، والألم يعصر قلبها ، سناء وقد تورد وجهها وهى تهمس فى اذن محمود بشىء يجعل عينيه تلمعان كفصين من الفيروز ·

* * * *

كادت ليلى تقفز واقفة ، عندما شعرت بيدين تستقران على كتفها · وتنبهت حواسها وهى ترى جميلة تقف خلفها مستندة الى المقعد ·

وقالت جميلة :

ـ جرى ايه يا ستى ليلى ، هو انت حاتقعدى كاشه كده ؟! مش تيجى تحيى ضيوفك ·

واستدارت جميلة تواجه رمزى ومالت برأسها الى جانب · وترقرقت عيناها وتثنى صوتها وهى تقول فى دلال واستفزاز :

ـ هو الدكتور رمزى من الرجاله اللى بيخوفوا ولا أيه ؟

ووجف قلب ليلى والكلمات تخرج من شفتى جميلة · خشيت أن يرد عليها رمزى ردا وقحا أو جامدا بعد كل هذا الذى فعلته من أجلها · ولدهشتها رأت وجه رمزى يحمر ، ولكن ارتباكه لم يدم الا لحظة نفث فيها دخان سيجارته ثم ارتخى فى جلسته · ولمعت عيناه بنظرة جريئة متحدية ودبت الحياة فى وجهه وهو يميل تجاه جميله ويبتسم ويقول :

ـ وأنت ، مابتخافيش ؟!

وهزت جميلة رأسها بالنفى ·

وضحكت ضحكات قصيرة متقطعة اهتز لها جسدها · وطافت عينا الدكتور رمزى بالجسم الفائر الناضج تزنه فى لهفة وفى ظمأ · وكأنه يدير بين يديه كوبا من الماء المثلج بعد طول ظمأ · ثم استند بظهره الى مسند مقعده وضاقت عيناه واهتزت ساقاه هزات رتيبة وهو يقول :

ـ أبدا ؟! أبدا ؟!

وخرجت كلماته سميكة وكأن شيئا ما يثقلها ·

ومالت جميله بنصفها الأعلى الى الأمام ، وأسندت يديها الى فخذيها وقالت وقد توهج وجهها :

- أنا ما أخافش • آنا أخوف بس يا دكتور رمزى •

ورأت ليلى عينى رمزى تستقران فى نهم على الخط الذى يفصل بين نهدى جيله ، وشفتاه تتكوران فى ابتسامة كريهة أشبه بتكشيرة حيوان مفترس •

ووصلت الى آذانها أصوات الموسيقى ، وهى تتوالى فى ضربات سريعة متلاحقة مجنونة •

وقال رمزى وهو يمسح بلسانه شفتيه وكأنه يتلمظ :

- بيتهيأ لك •

وكأنه يقول :

- استنى على ، الزمن بينى وبينك طويل •••

ورأت جميله نظرة رمزى ترتجف على نهديها ولحظت أنه لا يستطيع بحال أن يستقر فى جلسته ، وانتشت •

واعتدلت قامتها وضحكت في انتصار وهى تقول :

- على العموم ، كفايه عليك ليلى تخوفها •

واستدارت ومضت • نسيت ما جاءت من أجله ومضت وردفاها يهتزان أكثر مما يهتزان عادة حين تمشى ، وكأنهما انفصلا عن جسدها ، وكأنما أصبح لهما كيان منفصل ، كيان رجراج جياش فوار لا يمكن التحكم فيه •

وتوقفت جميلة أمام باب الفيلا مترددة •

وتحركت شفتا ليلى وهى تناديها ، ولكن لم يخرج من حلقها صوت ، وكأنها فقدت القدرة على النطق •

ولم يدم تردد جميله طويلا ، سارت الى الفيللا وردفاها يرتجفان ، وعبرت الباب ، واختفت فى المبنى •

ولمحت ليلى الذبابة وقد طفت على قدح الشاى ، ماتت وطفت على السطح • وجعلت ترقبها وهى لا تفكر فى شىء ولا تشعر بشىء وفى عقلها خواء وفى كيانها خواء •

وارتفعت ضجة من المدعوين كالعاصفة المكبوتة واندفعت الى الحلقة راقصة متشحة بوشاح أحمر طويل وازدادت ضربات الموسيقى جنونا وعنفا وتتالى التصفيق متتابعا متلاحقا وعلت الصرخات المجنونة ونشرت الراقصة وشاحها الاحمر ، وبدأت تدور حول نفسها دورات سريعة •

وفقـــدت الأشياء توازنها ، وبدأت الموائد تهتز أمام عينى ليلى والناس والأشجار ، وبدأ الجدار من خلفها يتمايل ويهدد بالانهيار •••

ورفعت ليلى يديها الى رأسها وكأنها تحجب عنها لطمة متوقعة •

وقال رمزى وهو يهز كتفها :

ـ مالك ؟ مالك يا ليلى ؟

واستقامت الأشياء أمام عينى ليلى وبدأت تستعيد حواســـها • وشلها خوف قاتل حين تعرفت على صوت رمزى وهو يقول :

ـ انت ضرورى تعبت من الدوشة ، فى الواقع حاجة تدوش ••

وانقبض وجه ليلى وهى تحاول أن تزيح عن خدها ذبابة حطت عليه • ولكنها لم تجرؤ على تحريك ذراعها ، بقى مدلى الى جانبها كطن من الحديد الى أن أمسك محمود بيدها •

* * * *

تشبثت ليلى بيد محمود فى جنون ، وأطبقت عليها بكل قوتها ، وكاد محمود يصرخ وهو يقول :

ـ أيه يا ليلى ؟ فيه أيه ؟

ـ خدنى ، جوه •

وقال رمزى :

ـ ليه ؟

وقالت ليلى فى صوت ضعيف وكأنها تعتذر :

ـ شويه ، شويه •

وظلت تردد هذه الكلمات فى سرها ومحمود يسحبها الى داخل الفيللا • ولحقت بهما سناء فى البهو ، زوجهها يتوهج ، وأمسكت بوسط ليلى وهى تقول :

ــ هنيئنى يا ليلى ، هنيئنى • دى اللحظــة اللى كنت طول عمرى با استناها •

وحركت ليلى شفتيها وهى تحاول أن تبتسم ولكن جاءت حركتها أشبه بالحركة التى تسبق البكاء •• ورأت صورة حسين وهو يلمس ذراعها ويقول :

ــ أنا مستنيك يا حبيبتى طول عمرى مستنيك •

واندفعت تجرى على السلم وكأن انسانا يطاردها • وهمت سناء باللحاق بها ولكن محمود قال لها وهو يمسك بيدها :

ــ سبيها يا سناء ، أصلها متضايقه شويه •

* * * *

وفتحت ليلى أول باب صادفها فى الدور الثانى وانهارت على أول مقعد قابلها ، وهى تلهث • ووجدت نفسها فى دورة المياه الملحقة بغرفه نوم جميله • وجلست وصدرها يتهدج وهى تحاول أن تستجمع أفكارها •

ولكن صوتا ما كان يصم أذنيها ويفتت أعصابها ويحول بينها وبين التركيز • وتلفتت ليلى حولها وأدركت أن الصوت صــوت ماء مكتوم ينتفض فى الماسورة • وحاولت أن تنصرف الى التفكير من جديد ولكن الماء المكتوم كان يتحشرج بشكل كريه ، يتحشرج كحشرجة مريض يحتضر • وتحاملت ليلى على نفسها وسارت الى الحوض ومالت على الصنبور وفتحته • وانفجر الماء المكتوم وهو يغلى فى حشرجة ضخمة •• حشرجة كريهــة مخيفة ، ثم سكن وهو ينساب فى هدوء ••

وشعرت ليلى بهدوء يتسلل الى جسدها المنهك • ورفعت قامتهــا وصفا عقلها وأدركت فجاة الموقف كاملا بكل تفاصيله • وكأن الغشاء قد انزاح فجأة عن عقلها وعن عينيها • وهمست فى يأس : أعمل ايه ؟ أعمل أيه يارب ؟!

ووصلتها أنغام الموسيقى من الحديقة ممتزجة بأريج الياسمين . ولمحت وجهها فى المرآة ، وجه ميت . ومسحت بيدها على وجهها .. أمامها العمر كله لتفكر ، أما الآن فيجب أن تخفى ذلك الوجه الميت عن الناس وأن تنزل لتواجه رمزى ولتواجه الناس ، لتواجه المصير الذى اختارته لنفسها . الأمر بسيط ، بسيط للغاية .. مزيد من البودرة ومن الأحمر ثم لا يعرف أحد ، لا يدرك أحد أن تحت المساحيق وجه ميت .

وسارت ليلى الى باب دورة المياه المؤدى الى مخدع جميلة ، وشعرت بقدميها تضعفان تحت ثقل جسمها ، وكأنها مريضة منذ شهور . ودفعت الباب ودخلت الى الحجرة ..

* * * *

كانت جميلة متمددة على الشيزلونج وجفناها مسدلان على عينيها وكأنها نائمة . وعلى الأرض يركع صدقى ، ظهره الى ليلى ونصفه الأعلى ممتد فوق جسد جميله ، ووجهه مدفون بين نهديها ، وكأنه نائم بدوره . ورأت جميله ليلى أولا حين ارتد باب الحمام الى مكانه محدثا أزيزا . رأتها واتقدت عيناها كراهية وغضبا . وربتت على كتف صدقى ليقوم ولكن ذراعيه التفتا حولها فى تشبث . وامتدت كراهيتها اليه ، مدت يديها وانتزعت ذراعيه فى عنف عن كتفها وهى تصرخ فى صوت مكتوم :

- قوم .

واستدار صدقى وهو ما زال فى جلسته وبدا عليه الارتباك حين رأى ليلى ، ثم قام ، وشبه ابتسامة تحوم حول شفتيه وكأنه قد وجد شيئا مسليا يدعوه الى الابتسام ، ولكنه لا يبتسم تأدبا ومجاراة للآخرين .

وسارت جميله الى مائدة الزينة وهى تعطى ظهرها لليلى ووقف صدقى فى وسط الحجرة وهو يسوى شعره بيده .

وقالت جميلة بنفس الصوت المكتوم دون أن تستدير :

- أخرج .

وهز صدقى كتفه وسار الى باب حجرة النوم ، وأدار المفتاح فى

الباب وخرج • كان با بالحجرة موصدا ، ولم يخطر ببال جميله أن أحدا سيدخل حجرتها عن طريق دورة المياه •

وفتحت جميله صندوقا خشبيا موضوعا على مائدة الزينة • وأخذت منه سيجارة وأشعلتها بيد مرتجفة وسحبت منها نفسا ، واستدارت تواجه ليلى :

— اتفضلى ، اشتمى ، حاضرينى عن الفضيلة ، عن الخيانة والانحطاط •

ولم تتكلم ليلى ، نظرت الى جميله وكأنها لا تراها ، وكأنها تنظر خلالها • وبدأت جميله تتمشى فى الحجرة كالنمر الحبيس ، تخطو عدة خطوات قصار ثم تستدير وتخطو نفس الخطوات لتستدير من جديد :

وتوقفت فجأة وقالت :

— ما تتكلمى ، ما بتنطقيش ليه ؟ ولا ما يصحش ؟ مايلقش انك تكلمى واحده زيبى ؟!

وربعت يديها على صدرها :

— معلوم ! واحده زيك محترمة ، مرات الأستاذ••الأستاذ المحترم اللى ••

ولم تستطع جميله أن تكمل • انفجرت تضحك ضحكات خالية من المرح ، ضحكات عصبية قصيرة متلاحقة متتالية كادت تحول بينها وبين التنفس • وانطوى الجزء الأعلى من جسمها الى الأمام وهى تسند يدها الى بطنها تهدىء من ضحكاتها ، واستطالت الضحكات وأصبحت أكثر حدة وكأنها أنات ثم هدأت •

واعتدلت جميلة وهى تقول فى فرح وحشى :

— الاستاذ بتاعك اللى زى الكلب ، ريقه يجرى على كل عضمه ••

وشدت قامتها وهى تتقدم من ليلى وأشارت بيدها وهى تقول :

— عارفه صدقى اللى خرج ده ، أشرف منه ، على الأقل مش عامل اله ، على الأقل ما بيخبيش حقيقته •

ورفعت جميلة السيجارة الى فمها وأخـــذت نفسا عميقا ، وأخذت تتطلع الى حلقات الدخان وهى تلتف بعضـــها فوق البعض ، ثم قالت بصوت عميق هامس :

- تفهمى ايه انت فى الدنيا ؟! تفهمى ايه !؟ تفهمى ايه اللى تقاسيه الست لما تعيش مع راجل بتكرهه ؟ علموك دى فى الكتب ؟ فهموك دى؟!

وانهار صوت جميلة وهى تنطق الجملتين الاخيرتين وامتلأت عيناها بالدموع وازداد صوتها ارتجافا وهى تستطرد :

- تعرفى ايه اللى تحس بيه الست لما تشعر انها بقت زى الخرقه القـــديمة ؟ نشفت ٠٠ جسمها نشف وقلبها نشف ٠ لأن ما حدش بيبص لها وعنيه بتلمع ، ما حدش بيقول لها : أحبك ٠٠؟

وتوقفت جميلة لحظة عن الكلام ثم دوى صوتها مرتجفا متحشرجا يائسا ٠٠

- أعمل ايه ؟ ٠٠ قوليلى أعمل ايه ٠٠ ؟!

وتشنج وجه ليلى وهى تحاول أن تتكلم ، ولكن فمها استدار دون أن يخرج منه صوتا ٠

وقالت جميلة وهى تبتسم فى مرارة :

- الطلاق ؟٠٠ مش كده ؟٠٠ بسيطه !

وأشارت بيد ترتجف الى السرير وهى تقول :

- على السرير اللى قدامك ده نمت تلات أيام بين الموت والحياة ٠٠ بلعت آنبوبة الاسبرين ، وأمى قالت مش عايزه فضايح ٠ كانت فاهمه أيه معنى انى استنى مع راجـــل ما بيحبنيش وما با أحبوش ، ومع كده صممت ٠٠

وسكتت جميلة ثم بدأت تضحك ضحكاتها الهستيرية المتلاحقه

- أمى٠٠ أمى أنا ٠٠ مش عايزه فضايح ، أمى ، أمى مش عايزه فضايح !!

وسكتت عن الضحك فجأة وضاقت عيناها وقالت :

— وأنت ؟ وانت يا ست يا محترمه ، يا بتاعة المبادىء ، لو كنت مطرحى تعملى أيه ؟ حا تعملى أيه ؟

وبدأ صوت جميلة وهى تسأل هذا السؤال مرتفعا مليئا بالتحدى ثم انخفض ، واختفت نبرة التحدى وكأنها تسـأل ليلى ، سـؤالا مجرد سؤال :

— حاتعملى ايه ٠٠ ؟

وكأنها أدركت بحاستها أن ليلى تقف نفس الموقف الذى تقفه وأن لا بد لها أن تنتهى الى نفس النهاية ٠٠

واهتز كيان ليلى بصرخة مدوية ، وتقدمت الى جميلة وهى لا ترى شيئا ، تتحسس طريقها كالعمياء ، وعند قدميها سقطت مغميا عليها ٠

* * * *

٠٠ وبعد فترة عبرت ليلى وجميلة باب الفيللا الى الحديقة وعادت ليلى الى مكانها وانخرطت جميلة وسط المدعوين ٠ ولم يلحظ أحد شيئا كانت جميلة قد أخفت وجههـا خلف المساحيق وكذلك فعلت ليلى

ولكن لو دقق الانسان لوجد شيئا لم تستطع المساحيق أن تخفيه النظرة الحزينة المستسلمة فى عينى جميلة والنظرة الخائفة القلقة التى تبحث عن مخرج فى عينى ليلى ولكن لم يدقق أحد ، لم يهتم أحـد الاهتمام الذى يدفع الى التدقيق ٠

* * * *

وبعد أيام تلقت ليلى خطابا من حسين يقول فيه :

عزيزتى ليلى ٠٠

تلقيت خطابا من محمود يخبرنى فيه أن خطبتك قد أعلنت لأحد أساتذتك ٠٠ وبالاسى كتبت لك خطابا مجنونا ثم مزقته ٠ أتصدقين أنى ما زلت أحبك ٠٠؟!

واليوم أشعر أنى فى حالة أفضل تمكننى من التفكير السليم ولذلك أكتب اليك لأهنئك ٠ وبالرغم من كل شىء فأنا سـعيد من أجلك أنت يا عزيزتى ، سعيد لأنك استطعت أخـيرا أن تدفعى الباب وأن

تنطلقى. لقد استطاع هو أن يفعل ما فشلت أنا فيه ، استطاع أن يحررك من قيودك وأن يعيد اليك ثقتك بنفسك وبالناس .. أليس كذلك ؟.. ولابد أنك تمضين الآن فى الطريق المفتوح باللمعة فى عينيك وبالاشراقة فى وجهك ، الاشراقة التى كادت تجعلنى أصرخ فى المصعد .

لاتقلقى بشأنى ، فأنا بخير ، لم أنهر حين أرسلت الى خطابك الجاف، ولم أنهر حين سمعت خبر خطوبتك .. فأنا أعمل وأحيا من أجل حب أكبر من حبى لك ، حبى لمصر ولشعب مصر . وما دام ذلك الحب يعمر قلبى فلن انهار ولن أكف عن العمل . ومنشأ الصعوبة أن حبى لوطنى كان قد اختلط بحبى لك ، حتى أصبحت أنت رمزا لكل ما أحبه فى الوطن . وعلى الآن أن أحاول أن أنتزعك من فكرى ومن خيالى ومن دمى

لا تتألمى من أجلى ولا تلومى نفسك فأنت لم تشجعينى بل بالعكس فعلت كل ما يمكن أن تفعله إنسانة رقيقة حساسة مثلك لتثبيط همتى .. ولكن ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل فى الفكرة المجنونة التى سيطرت على فكرة أنك لى وأنى لك مهما طال الزمن ؟! .. ان الخطأ الوحيد الذى ارتكبتيه هو أنك جعلتنى أراك ، وأنك جميلة وأنك رقيقة وأنك .. وأنك .. أنت .

فاذا أردت أن تكفرى عن خطئك ، دعينى أراك مرة واحدة حين أعود الى الوطن وأملأ عينى منك مرة أخيرة وأنت تمضين فى الطريق المفتوح والاشراقة فى وجهك واللمعة فى عينيك ..

حسين عامر

٢٠

عين محمود طبيبا فى المستشفى الاميرى ببور سعيد ، وبعد أسابيع من استلامه العمل جاء فى زيارة الى القاهرة ، وكان يجلس على مائدة الغذاء يوم الجمعة مع أسرته حين رفع رأسه عن الطبق وقال :

- على فكرة .. أنا حا اتجوز ..

ووجف قلب ليلى وهى ترقب وجه أبيها والانفعالات تتوالى عليه .. بدا وجهه أول الأمر جامدا و كأنه لم يفهم كلام محمود ثم انهار ، تدلى

طرفا فمه وغزا عينيه حزن عميق وأطبق جفنيه على عينيه وامتدت يده الى الفوطة يخفي وجهه خلفها وهو يتظاهر بمسح فمه • وحين رمى بالفوطة جانبا كان وجهه قد ارتد جامدا كما كان وان عـــراه بعض الاحتقان ••

وتـرك الأب ثواني من الصمت تربض على الموجودين قبل أن يقول فى هدوء مصطنع :

— بتقول ايه •• ؟

ونظرت ليلى الى أخيها وشفتاها ترتجفان ، تنتظر منه أن يتكلم وكأن مصيرها معلق على الكلمات التي ستخرج من شفتيه • وتكلم محمود :

— با أقول حا اتجوز ••

وارتخت ليلى في جلستها والتمعت عينـاها بالدموع ، انتشت • وكأنها هي التي واجهت أباها بهذه الجسارة وبهذه البساطة •• ان الامر بسيط للغاية ، ما عليها الا أن تهز كتفهـــا كما هزها محمود وتسلط عينيها فى عيني أبيها وتقول •• ماذا تقول ؟

ودوى صوت أبيها مرسلا الرجفة الى جسدها :

— حضرتك موضب كل شيء وجاى تقول لى ؟ وعـــلى ايه ؟ على ايه تتعب نفسك ؟! ما هو أنا طرطور •• مش كده •• ؟!

— أرجوك يا بابا ، أرجوك تفهمني

— أنا لا أبوك ولا أعرفك أنا برىء منك •

وأطبق محمود عينيـه يا ئسا ، وهو يدق بيده اليسرى على المائدة

وقال أبوه ونغمة العتاب تتسلل الى صوته :

— طول عمرى با اربيك ، وأصرف عليك دم قلبى علشان لما تكبر تقف على رجليك ، وتساعد أمك وأختك اللى على وش جواز • وتو ما بقيت بنى آدم عايز ترفسنا ، عايز تتجوز •

واحمر وجه الأب حين أدرك أن الضعف قد تسلل الى صوته وانقلبت نبرة العتاب الى نبرة سخرية :

- بدل ما تساعدني دلوقت عايزني أساعدك عشان تتجوز ، مش كده ٠٠ ؟

وواجه محمود أباه في اعتزاز :

- أنا مش عايز مساعده من حد ٠

وثار الأب لهذه الجملة كما لم يثر من قبل ٠ وكأن استغناء ابنه عن مساعدته أمر لا يطاق ولا يحتمل ٠ واتسم كلامه من ذلك الحين بسخرية مرة :

- وحاتتجوز مين يا حضرة الدكتور ٠٠ ؟

وتجاهل محمود سخرية أبيه وقال وهو يحاول أن يصل الى قلبه

- يا بابا البنت اللى حا اتجوزها ممتازة وطيبه ، ومتعلمه وبنت عيله حتى اسأل ليلى عنها ٠

وانكمشت ليلى فى مقعدها حين تركزت عليها نظرة أبيها قاسية متسائلة ، وكأنه يحملها مسئولية هذه المصيبة التى نزلت بهم ٠ وضربت الأم كفا بكف وقالت :

- صاحبتها يا سيدى ٠٠ أمال ؟ الست ليلى جلابة الهنا ، طول عمرى أقول الاختلاط ما يجيبش الا المصايب وآدى آخرتها ٠

وانزاحت نظرة الأب عن ليلى واستقرت باردة على محمود :

- والعيلة دى حاتاخدك على ايه ؟٠٠ حاتدفع مهر كام وشبكة كام؟

وقال محمود بصوت مكتوم :

- أنا حا اتجوز البنت مش حا اتجوز العيله ٠٠

واسترخى الأب فى جلسته وقال :

- بقى كده ؟ هى بقى من اياهم ؟! من اللى ماشيين على حل شعرهم!

وغطى محمود وجهه بكفيه وهو يحاول أن يسيطر على نفسه ٠ لقد توقع كل ذلك وأكثر ، ويجب أن يحول بين سيل الكلمات الجارحة التى تتكون فى عقله وبين الانطلاق ٠

ودوى صوت الأب :

- والله والله لو كانت دى بنتى لكنت قتلتها ، قتلتها قتل ٠

واستقرت نظرته على ليلى حامية مهددة ٠ وسرت الرجفة فى جسدها تحت وقع نظرته ٠٠ هل خمن شيئا ؟ مستحيل ٠ كيف يستطيع أن يخمن ؟ احساسه الأبوى ؟ احساسه الأبوى حقا » أى احساس ؟ ان حائطا ضخما وقف دائما بينه وبينها وكأنهما لا يتكلمان نفس اللغة وكأنهما ٠٠

وأزاح محمود يديه عن وجهه وقال بصوت مؤدب يعلن به انتهاء المناقشة :

- أنا آسف يا بابا ، ولكن يظهر حضرتك مش حاتقدر تفهمنى ٠

ولكن محمود لم يستطع أن يفلت بهذه البساطة ٠ تعمد الأب أن يمد فى المناقشة :

- مين يقدر يفهمك ؟ مين يقدر يفهم ان انسان مفلس زيك ، متخرج أول امبارح ، عايز يتجوز ويفتح بيت ويربى عيال ويحمل مسئوليات٠

وارتخت ليلى فى جلستها ٠٠ لا لم يخمن ، لا هو يستطيع أن يخمن ما يدور فى فكرها ولا أى انسان ؟ ولا هى حتى تستطيع أن تصف شعور الاشمئزاز الذى سيطر عليها فى كلمات تبدو للناس مقبولة ومعقولة ٠ ماذا تقول ؟

ان القناع قد سقط وتحت القناع طين ٠ أن نظرة رمزى زحفت كالثعبان على صدر ٠٠؟

وقالت الأم بصوت مرتجف :

- يا بنى كل حاجة لها أصولها واللى يمشى على الأصول ما يتعبش٠

وأغمضت ليلى عينيها ٠٠ ماذا تقول ؟ لو قالت لأمها عن الطريقة التى زحفت بها نظرة رمزى على نهدى جميلة لضحكت أمها وقالت ببساطة :

- كل الرجالة كده ٠ أمال انت فاكره ايه ؟

ماذا تقول ؟ ومن يستطيع أن يفهمها حين تقول ان نظرة رمزى التى زحفت كالثعبان كشفت لها عن فساده وعن كل الفساد ، فسادها هى التى ارتضت هذه الزيجة ، وفساد جميلة وفساد عصام الذى ارتضى أن يلعب دور البهلوان ، وفساد صدقى الذى يبحث لنفسه كل يوم عن فريسة ليثبت لنفسه أنه رجل ، وليثبت للعالم الخارجى أنه بطل مغوار . وفساد أم جميلة . وفساد أمها هى التى قبلت أن تعيش على الخوف خوفا من كلام الناس ، وفساد أبيها الذى يؤمن دائما أنه على صواب .. وفساد كل أصولهم ، كل أصولهم ..

وقال محمود :

- يا ماما الأصول اتغيرت ، الزمن بيتغير والأفكار بتتغير ، حاولوا انكم تفهموا .

وكان من المستحيل أن يفهماه ، واعتصم الأب بغرفته بعد أن هدد بقطع كل علاقة بينه وبين محمود . ولجأت الأم الى الدموع .

وسافر محمود الى بور سعيد وفى يوم الخميس التالى حضر الى القاهرة ولم يزر عائلته ، ولكنه زارها يوم الخميس الذى يليه . ووجد الدكتور رمزى فى انتظاره .

كانت الأم قد طلبت منه أن يتدخل ليعيد محمود الى صوابه .

وانفرد رمزى بمحمود فى حجرة الاستقبال والأب ما زال يعتصم فى حجرته والأم مع ابنتها فى الصالة ينتظران .

* * * *

وراحت ليلى تذرع الصالة جيئة وذهابا وعيناها تتطلعان فى قلق الى الباب المغلق،وخوف غامض يعصر قلبها ، خوف منأن يستسلمأخوها لقوة هذا الرجل الذى انفرد به . واستولت عليها رغبة جامحة فى أن تسمع كل كلمة يقولها أخوها ، وكأن مصيرها هى معلق على هذه الكلمات . وانحرفت الى باب غرفة محمود ، وقالتأمها وهيتستوقفها:

- رايحه فين ؟

- حا اجيب كتاب من مكتبة محمود .

ودخلت الغرفة وتسللت الى الباب الزجاجي الذى يفصـــل غرفة محمود عن غرفة الاستقبال ،و التصقت بالحائط تتبين الحديث الدائر بين الرجلين. واعتراها خجل طارىء من تلصصها ، زال حين تبينت نبرات صوت رمزى . لم تسمعه قط يتكلم بهذه الطريقة ، صوته مرتخ معسول منخفض ، صوت صديق يحكى لصديقه ، ولا بد أن ملامحه مرتخية الآن والصندوق الزجاجي الذى يغلف وجهه قد زال.كم وجها لهذا الرجل ؟! معها هى اله ، ومع جميلة طفل يسيل لعابه ، ومع محمود صديق قديم يحكى ..

ـ أنا حا احكيلك حكايه يا محمود ما قلتهاش لحـــد قبل كده ، ولكن انت أخويا الصـــغير ، ومش ممكن أبخل عليك بتجـربة من تجاربى .. لما كنت طالب فى الجامعة حبيت بنت ساكنه فى الدور اللى تحتى ، وبقيت أقعد بالليل فى الضلمة أسمع أم كلثوم وأعيط ، وأسهر للصبح وأنا با اكتب قصيده شعرلحبيبتى ، وأنزل ألتقيها مستنيانى على السلم بمريلة المدرسه ، أعطيها القصيده وكل حته فى جسمى بترتعش. وفاتت الايام وابتديت أخرج معاها وحبى لها بيزيد يوم عن يوم ، والدنيا جميله فى عينى . ونويت انى أتجوزها بمجرد ما أتخرج ، ماكانش ممكن أتصور نفسى عايش يوم واحد من غيرها ..

واتسعت حدقتا ليلى فى دهشة وابتلعت ريقها .

واستأنف رمزى كلامه ..

ـ وفى ليله كان أهلها مسافرين وفتحت لى الباب ...

وقمت من على الكنبة ، وبصيت لهـــا وهى لسه متمدده ، وعرفت فجأة أن حبى لها خلص . خلص فى اللحظه دى . وتانى ليـــله لقيت الباب مردود قفلته بايدى ، و نزلت سكرت ، وجيت وش الصبح لميت عفشى وعزلت من الحته كلها ..

وكتمت ليلى صرخة كادت تنطلق من فمها ، وشعرت برغبة فى أن تهرب من الغرفة ، ومن البيت بأكمله . ولكنها بقيت مسمرة فى مكانها مشدودة الى الباب الزجاجي المغلق ، وكأنها مشدودة الى هوة بقـــوة لا تملك لها دفعا ..

واستمر رمزى يتكلم :

- ومن يومها عرفت ان مافيش حاجه اسمها حب • فيه اشتهاء ، والاشتهاء بينتهي لما الانسان ياخد اللي عايزه • والاشتهاء حاجة والجواز حاجة تانيه ••

وترددت في رأس ليلى فكرة واحدة ، فكرة ثابتة تنخر فيه كالمسمار والبنت ؟ البنت ؟ ايه اللي حصل للبنت ؟

وقال محمود في برود :

- أنا مش فاهم انت بتحكي الحكايه دي ليه ••؟

وغطت ليلى وجهها بيديها •• لم يردد محمود تساؤلها ، لم يخطر مصير البنت ببال أحد ، حتى محمود ، وكأن بين هذين الرجلين سابق اتفاق على ان البنت التي تخرق الأصول لا تستحق مجرد التفكير ••

وقال رمزي في تردد وهو يحمل كلامه أكثر من معنى •

- يعني ضروري الجواز يا محمود؟مافيش طريقه تانيه ؟ مش يمكن تكون نزوه وتفوت وتدفع تمنها غالي ••

وكزت ليلى على شفتها السفلى بأسنانها •• السافل •• السافل ، وتمنت أن يصفعه محمود ، لا أقل من أن يصفعه محمود ردا على اقتراحه المسموم ••

ولكن محمود لم يصفعه ، فاته المعنى المقصود ، وقال في جمود :

- أنا مش عيل يا دكتور رمزي ، أنا عندي قدره على الاختيار وعلى الثبات على اختياري ••

وقال رمزي :

واضح ان مناقشتنا انتهت ، بس قبل ما اقوم من هنا عايز أحكيلك حكايه افتكرتها دلوقت وانت بتتكلم

وقال محمود في تادب :

- تفضل •

ولكن كان من الواضح أنه لم يعد يهتم أدنى اهتمام بما يقوله رمزي ، على العكس من ليلى ، تنبهت حواسها كالفأر الذى تطبق عليه

المصيدة ، وتصلب جسمها وجمد وجهها،وكأنها هى وحدها مع رمزى• وهو يتكلم وهى تنفعل بكل كلمة ، وتثير فى خيالها كل كلمة حشـدا من الصور والعبارات ، من الماضى ومن المستقبل ، ومن هنا وهناك • صور وعبارات تتزاحم وتتراكم وتختلط حتى تصبح بلا معنى • وحزن موجع يربض على صدرها وكأن كلمات رمزى أصابع تطبق فى بطء على عنقها لحظة بعد لحظة •

- الحكاية دى عن زميل لى اتجوز من خمس سنين ، كان متحمس كده زيك ، واتجوز على حب واحده زيه متحمسه وثايره ، وتحدوا كل العقبات اللى قابلتهم ، وكل المجتمع من حواليهم ، واتجوزوا ، وعاشوا فى شقه مافيهاش الا طرابيزه وسرير مله،وطبعا الحب والقيم الجديده! وتحققت كل نظرياتهم ، كل نظرياتك • الزوج والزوجه حاجه واحده، مافيش بينهم أسرار وعلاقتهم قايمه على المحبه وعلى الصدق والصراحه•

- على الخوف مع رمزى حا أعيش •• على الخوف • ويوم بعد يوم دمى حاينشف من الخوف ، الخوف اللى راح والخوف اللى جاى ••

- وحتى نظرياتك عن الجنس تحققت ، الجنس والزواج حاجـه واحده ، والجسد والروح حاجه واحده • وكل مايطول بهم الزمن يحبها اكتر ويدرك اكتر أنها جزء منه ، وانه جزء منها ، وأنهم حاجه واحده• والفرحه كانت بتلمع فى عنين صاحبى وهو قاعد وسطنا ، وبمناسبه ومن غير مناسبه يجيب سيرة مراته « مراتى قالت كده ، مراتى رأيها كده » •

كان سعيد والناس عرفوا انه سـعيد ، وقالوا « الغربال الجديد له شده » • ولكن سنه فاتت وهو عنيه لسه بتلمع ، ولسه بيقول مراتى•

الناس ابتدوا يشـعروا بحاجه غريبه ، حاجه غير متمشـية مع قواعد المجتمع اللى هم عايشين فيه ، حاجه مضحكه وابتـدوا يكتموا ابتسـامتهم قدامه ويضحكوا عليه من وراه •••

- فضايح ! مش عايزه فضايح ! أمى مش عايزه فضايح •••

- وصاحبنا ولا هو هنا ، أخد مراته وسـافر أوروبا ، كان عايز يقتسم معاها كل تجربه مرت عليه قبل كده ، وبعد ما رجع ، كنت أنا

وهو بنتعشى فى مطعم ومعانا بعض الأصدقاء ، وبعد ما شبعنا ابتدينا نتكلم ، طبعا عن الستات ، واحد يحكى والباقى يسمع ، والحكايه اللى بيحكيها ، كان يمكن تحصـــل لهم أو يمكن لسه حا تحصل لهم ، أو حصلت لهم فعلا حكايه مشابهه …

- فى المطبخ … الضلمه … الكنبه .

- وحكايه تجر حكايه ، والمتحدث بيتغير ، والكل منســجم زى ما نكون أعضاء فى جمعية متفاهمين عـلى أدق أسرارها ، أو تروس فى ساعه ماشيه على نمط واحد ، فى اتجاه واحد ما بيتغيرش ، اتجــاه واحد مفهوم وواضح ومنطقى ومتسلسل …

- واللى يعرف الأصول ما يتعبش …

- وجه الدور على صاحبنا ، وابتدت عنيه تنعم ، وملامحه تنعم وهو بيحكى عن تجربه انفعل بها فى غابه من غابات انجلترا الجميله . مع مراته !! وبعد تلات سنين من جوازهم . ويلمنا …

- فضايح ! مش عايزه فضايح ! أمى مش عايزه فضايح …

- كلنا بلمنا . فيه حاجه وقفت فى تروس الساعه ، حاجه عطلت، حاجه قلبت الاتجاه العام المنطقى المفهوم . وواحـد منا لخص الموقف وقال « بعد تلات سنين من الجواز ؟ مستحيل !! » والتانى فضــل يضحك لغاية الدموع ما نزلت من عنيه .
وكملنا كلامنا وشعر صاحبنا انه غريب ، انه معزول عن دايرتنا وقام .

- « لا تنحبسى فى الدائرة الضيقة يا حبيبتى ، انهـا ستضيق عليك حتى تخنقك » …

- ومن يومها صاحبنا بطل يتكلم عن مراته ، وابتدأ يشعر بالحرج فى مجلسنا ، وفى كل المجالس . ابتدأ يشعر انه غير متجانس ، وانه معزول عن الدايره الكبيره ، وابتدأ يحتار …

— خلاص يا ليلى انا لقيت حل · لقيت حل يا حبيبتى ·· « البت الخنامه ؟ أصلها واخده على عصام ، صاحبته يا ستى ! »

— وبعد مده لما ابتدا يتكلم عن مراته تانى ، لقى اللى يسمع له واللى يجد كلامه مفهوم · كان بيتكلم عن الزوجات ومتاعب الزوجات · وهى الست عايزه أيه أكتر من بيت وأولاد وزوج يقوم بواجباته الزوجية ؟! الست عايزه أيه ؟!

— تموت زى صفاء او ··· تعمل زى جميله

— ومن كام يوم لقيت صاحبنا متصـــدر مجلس ، وبيتكلم بثقه ، وعنيه بتلمع ، والكل بيسمع له · شديت كرسى وقعدت··· كان بيحكى على آخر مغامرة من مغامراته ·

ووقفت ليلى فى وســط الحجرة ترتجف بعجــزها وبكراهيتها وبثورتها ، وقال رمزى وقد تسلل الى صوته الحزن :

— ما فيش مخرج · صدقنى يا محمود ما فيش مخرج ·

ولم تستطع ليلى أن تكتم صرختها هذه المرة ، وكالمجنــونة دفعت باب الحجرة وخرجت مندفعة

وأكمل رمزى حديثه بعد أن تغلب على نبرة الحزن التى تسللت الى صوته :

— كلنا تروس فى عجله كبيره ، والعجله بتمشى ، واللى يحــاول يعطلها بيتحطم ، والشاطر اللى يفهم الموقف واللى يستفيد منه ·

وبدت فى عينى محمود نظرة حزينة كالنظرة التى تبدو فى عيون الناس وهم يرقبون غروب الشمس ، ولكنه ما لبث أن ابتســم وقال وهو يقف :

— أؤكد لك يا دكتور رمزى انى مش حا انهزم زى صاحبك ·

* * * *

وكالمجنونة اقتحمت ليلى غرفة نوم أبيها وهى تصيح فى صوت متحشرج :

- بابا ..

وهب الأب من سريره مذعورا والكلمات ترتجف على شفتيه :

- فيه ايه ؟ فيه ايه ؟

وشل القلق قواه ، ووقف يرتجف وهو ينظر الى سحنتها المنقلبة والى عينيها اللتين تتأججان فى وجهها . وقف ينتظر منها أن تتكلم ، أن تخبره أن كارثة ما قد حلت بهم ..

وأشارت ليلى بيدها اشارة هستيرية تستبعد بها هـذا الاحتمال وقالت :

- مافيش . مافيش حاجه .

وغشى على الأب لحظة ، والدم يعود الى الجريان فى عروقه بعد أن توقف . وعندما بدأت رؤيته الى الأشياء تستقيم قال :

- ولما مافيش حاجه ، ازاى تتهجمى على بالشكل ده ؟ ازاى تدخلى على من غير استئذان ؟

وقذفت ليلى بالجملة التى تكونت فى عقلها دفعة واحدة وكأنها تخشى ألا تخرج أبدا ان لم تقذف بها هكذا :

- عايزه أكلمك فى موضوع جوازى .

وسمعت ليلى كلماتها وهى تتكلم كلمة ، كلمة ، وكأن انسانا آخر هو الذى تكلم ..

وعصر الخوف قلب الأب . وأدرك أنه على شفا كارثة أفدح من كل الكوارث التى مرت به ، وأن عليه أن يستجمع كل قواه ليواجهها . وضاقت عيناه الرماديتان ولمعتا بلمعان رهيب وهو يرقب ابنته ويقول

- عايزه ايه ؟

ولم يكن فى صوته غضب ولا رائحة الغضب . كان صوتا ثلجيا معدنيا وكأنه يصدر من آلة مشروخة :

- عايزه ...

ولم تستطع ليلى أن تكمل ، كان يقترب منهـــا بخطوات قصيرة

آليه ، وبوجـه جامد وبجسم متصلب ، وكأنه آلة مسلطة عليها ، آلة تقترب منها فى بطء لتسحقها :

- عايزه أيه أنت كمان ؟

وعكس صوته يأسا أعمق من يأسها . يأسا تخطى مرحلة الغضب ، يأس رجل فقد كل شيء ولم يعد له ما يفقده ، رجل لا يتورع عن شيء ..

وفى عينيه رأت ليلى نظرة قاتلة ، قاتلة بلا غضب ، قاتلة وباردة .

وقالت بصوت مخنوق وهى تمد يدها الى رقبتهـا وكأنهـا تحميها منه :

- ولا حاجه .. ولا حاجه ..

وأرادت أن تتراجع الى الوراء بظهرها . ولم تستطع أن تتحرك . شلها الخوف واستمرت تتمتم :

- ولا حاجه ولا حاجه يا بابا يا بابا .

وعند ذلك النداء انحسرت النظرة القاتلة عن وجهها . واستدار الأب وهو يهز رأسه وكأنه يفيق من كابوس مرعب .

وتراجعت ليلى بظهرها الى الباب وهى تمسح وجهها بيديها وتتمتم بصوت مرتجف .. ولا حاجه ولا حاجه ..

وقال رمزى وهو يسد الباب مخاطبا الأب :

- ما فيش فايده .

وارتجفت ليلى من قمة رأسها الى أطراف أصابعها . واستندت الى مقعد بجوارها حتى لا تنهار على الأرض . واستدار الأب يواجه رمزى وعلى شفته ابتسامة واهنه وقال بصوت متداع :

- أنا كنت عارف ، كنت عارف ان مافيش فايده ، ربنا يعوضنا فيه خير .

واحتدت عينا الا ب وهو يسلط نظرته على ليلى ويقول :

- ربنا كريم ، ربنا عوضنا فعلا ، خسرنا عيل وكسبنا راجل ..

واستقرت نظرته على رمزى ..

- كسبناك يابنى .

٢١

وفى تلك الليلة تمنت ليلى وهى نائمة على السرير أن تموت ·· تمنت أن تغمض عينيها وتنام ويصبح الصبح ولا تفتحهما ، تمر ، تهرب فى سلام بلا مشاكل ولا عنف ولا شجار ··

ولكن الناس لا يموتون هكذا ،لا يغمضون عيونهم ويموتون ، لابد من شيء يسبب الموت · المرض ؟ التيفود مثلا ؟ نعم ، التيفود مرض سهل ، مرض لطيف يخدر الانسان · تنام على السرير وتغيب عن الوعى يوما بعد يوم وكأنها تنزلق فى هدوء وفى سكون · وحول سريرها وجوه تحجرت فيها الدموع تتشبث بها كأنها سدود تحول بينها وبين الانزلاق ، بينها وبين الأحلام · ثم تنأى الوجوه وتلفها سحابة تتكاثف حينا بعد حين وتزول السدود ··

وانزلقت ليلى الى النوم،الى الأحلام،وفى أول الليل نامت نوما هادئا مليئا بالأحلام الهادئة · وهى الآن ممددة على ظهر باخرة فى وسط البحر لا تدرى الى أين هى ذاهبة ومن أين هى آتية · لا تدرى من هى ، لا ماضى لها ، ولا مستقبل · لا تدرى شيئا سوى أنها مستلقية على ظهرها، وسكينة حلوة فى قلبها ، وبحر أزرق كاللانهائية يحيطها ، وأشعة الشمس تتراقص على سطح المياه الزرقاء فتلتمع كفصوص من الماس وتتراقص على جسدها المدد فتدغدغه وتسلمه الى خدر لذيذ ·

وهى الآن تدفع بابا أمامها وتدخل حديقة ، حديقة لم تر مثلها طوال حياتها ، حديقة بيضاء ، الزهور فيها بيضاء ، والأشجار متوجة بالبياض ، بحر ممتد من الزهور البيضاء،زهور غريبة طويلة طول قامة الانسان ، طويلة وبيضاء وشامخة وجميلة · والزهرة تميل على الزهرة فى حنو ورقة تربت عليها وتكاد تهمس ، وكأنها انسان ·

وليلى تمر بين الزهور والزهور تتمايل عليها وتربت على خدها وتسكرها بعبيرها ، فتجرى وهى تضحك ضحكات قصيرة متقطعة ، وتصل الى نهاية الحديقة منتشية مليئة بسعادة فوارة لا تكاد تتحملها · وتجلس على مقعد تحيطه شجرة ياسمين تتساقط زهورها على رأسها وتمد يدها لتلمسه فاذا بالياسمين قد انتظم فى تاج يحلى شعرها · وترتخى ليلى فى جلستها وهى ترقب بحر الزهور ·

وتنفرج الزهور عن طفل يجرى فى اتجاهها — طفلها — وتحتضن ليلى ابنها فى شغف ، وتجلسه فى حجرها ، وتهدأ الفورة فى جسمها وتستحيل الى سكينة حلوة • وفى عبادة صامتة تتحسس ذراع طفلها ذراعه البيضاء بياضا شفافا وكأن النور يتسلل منها • وتود لو استطاعت أن تجلس العمر هكذا تنظر فى عبادة صامتة الى ابنها وهو فى حجرها • ولكن الطفل لا يريد أن يستقر ، يريد أن يلعب وأن يجرى وأن ينطلق ، أن يستكشف الدنيا الجميلة من حوله • وتقبله فى فمه الرقيق اللين قبلة أخيرة وتطلقه •

ويقف الابن تجاههـــــا ، ويحــــدث شيء عجيب ، شيء عجيب يحدث أمام عينيها ، يكبر ابنها وينمو ويطول ويتحول الى رجل • رجل أسمر طويل يشع منه النور كما كان يشع من جسد ابنها •

من هو ؟ من هو هذا الرجل الذى يطالعها بابتسامة لا تقاوم ؟ أنها قطعا تعرفه ، ولكن من هو ؟ انها تعرفهما •• تعـــرف هاتين العينين السوداوين ، تعرفهما وهما مفعمتان بالقوة والصـلابة والاعتـــداد • وتعرفهما حين تذوب فيهما الجرأة والصلابة والاعتــــداد وتصبحان ناعمتين هكذا حانيتين هكذا • لمن ؟ لو عرفت ! من يكون هذا الرجل الذى يطالعها بابتسامة لا تقاوم ••

وتكد ليلى عقلها وهى تتعرف عليه وكأن حياتها كلها تتوقف على هذه المعرفة • ويصل الى مسمعها صوت كالهزيم ، هزيم العاصفة • وتسرى رجفة الى يديها ، وترى الظلام قد ساد الحديقة ، وابنها وقد اختفى ، ابتلعه الظلام ، ولم يعد يبدو منه الا شـــعاع من نور يلمع فى الأفق البعيد •

وتجلس ليلى على المقعد يعذبها شعور مبهم بالاثم ، شعور لا يلبث أن يتجمع ويتبلور ويطفو على السطح •• لو عرفت ذلك الرجل لما ضاع ابنها ، ولما هبت العاصفة ، ولما ساد الظلام •

واشتدت الريح هبة بعد هبة ، وكأنها سوط مسلط على الحديقة ، على الزهور البيضاء الجميلة • ولكن الزهور البيضاء تمايلت تفسح له الطريق وتعود أطول مما كانت وأجمل وأكثر اعتدادا ، حتى الظلمة لم تستطع أن تغرقها ، شقتها الأغصان المتوجة بالبياض وكأنها تباشير الصبح تبدد الظلام • واندحرت العاصفة وساد السكون •

ثم اندفع الباب ودخل الحديقة جمع كبير من الرجال والنساء يتقدمهم رجل في بذلة سوداء • وفي خطوات بطيئة متزنة تقدموا ، رؤوسهم مرفوعة وأجسادهم متحفزة وكأنهم جاءوا في مهمة •

وتسللت ليلى هاربة واختفت خلف امتداد شجرة الياسمين بحيث تراهم ولا يرونها •

ومن بعيد رأت الرجل ذا البدلة السوداء يشير للجمع الذى يتبعه اشارات متعددة دون أن ينطق • ورأت الجمع يتفرق بنفس الخطوات المتزنة الثابتة لينتظم على شكل حلقة تحيط بالورود البيضاء • وفي وسط الزهور وقف الرجل ذو البدلة السوداء وأشار بيده اشارة البدء•

وفجأة أومضت في الظلمة مناجل جديدة لامعة تهتز في الأيدى • من أين جاءوا بها ؟ لم يكن في أيديهم شيء •

وبدأ الرجال والنساء يجتثون الزهور الجميلة في نظام وروية وبالتدريج • وضربة بعد ضربة ، وصفا بعد صف تتهاوى السيقان الشامخة على الأرض هامدة • والرجال والنساء يتقدمون صفا بعد صف وضربة بعد ضربة ، يتقدمون بوجوه جادة وعيون حزينة ، وكأنهم يؤدون مهمة ثقيلة على أنفسهم ولكن لا بد لهم من أن يؤدوها •

والرجل ذو البدلة السوداء يشير اليهم كلما تباطأوا ، ويبتسم ابتسامة كريهة شبيهة بتكشيرة الحيوان المفترس كلما سقط صف من الزهور ، وكأنه لا يستريح الا اذا سقطت كل الأزهار الشامخة تحت قدميه جثة هامدة •

وناح طائر من بعيد ، واعتدلت امرأة والمنجل يلمع في يدها اليمنى ومسحت بيدها اليسرى دمعة انفرطت من عينها • وانحنت تجتث الزهور من جديد ••

وكتمت ليلى صرخة كادت أن تفلت منها••هذه المرأة انها تعرفها • انها تعرفها •• أم صفاء ، دولت هانم ، أم صفاء •••

وانزاح الغشاء عن عيني ليلى ، وهي الآن ترى كل الوجوه بوضوح، وجوه رجال ونساء ، وجوه الرجال نظيفة محلوقة ووجوه النساء لامعة من أثر المساحيق • وبين الوجوه الكثيرة المتشابهة تستطيع الآن أن تتبين وجوها تعرفها •• فهذا هو أبوها وهذه هي خالتها أم جميلة ، وهذا الرجل الذى يلبس البذلة السوداء والذى يوليها ظهره••لابد أنه

هو ، لا بد .. واستدار رمزى بوجهه فى اتجاه ليلى وكأنه يؤكد لها أنه هو ..

وأطبقت ليلى فمها حتى لا تصرخ وازدادت تشبثا بشجرة الياسمين التى تختفى خلفها .

وعندما اندحر بحر الزهر الأبيض كالبساط على الأرض نحى الرجال والنساء مناجلهم جانبا .وبدأ الرجال يرصون الطوب على شكل حلقة واسعة . وانحنت النساء على الزهور يجمعنها حزما ، واحتضنت كل امرأة حزمة فى صدرها كما تحتضن وليدها وسارت بها الى الحلقة التى بناها الرجال . وفى حنو أنزلت كل واحدة حزمتها وسجتها على الأرض وتراجعت .

وأشعل الرجل ذو البذلة السوداء النار فى حزم الزهور ، ووقف الرجال والنساء جنبا الى جنب فى حلقة واسعة متراصة يرقبون الزهور وهى تحترق .

وفى وهج النار بدت وجوههم متشنجة بالألم والعرق يلتمع فوق جباههم وكأن جزءا منهم يحترق فى النار . ولكن أحدا منهم لم يتحرك تمتموا بالدعوات وبقوا متسمرين فى أماكنهم يتساند بعضهم على بعض . وبدأت الأغصان تجف وتتكسر وتحدث صوتا أشبه بصوت النواح .

ومن المؤخرة شقت الصفوف امرأة مسدلة الشعر ، واندفعت تريد أن تلقى بنفسها فى النار .

وعلت غمغمة غضب من الجميع . وأعاد بعض الرجال المرأة الى الحلقة ، وساد الاطمئنان الجميع من جديد . وكأن من الضرورى لسلامتهم ألا يتحرك أحد ، وأن يقفوا هكذا ، مثبتين بالأرض ، جنبا الى جنب يتساند بعضهم الى بعض .

وتحولت الزهور الى رماد وتأججت النار مزغردة ثم بدأت تخبو ، ولم تعد تظهر الا فى جهات متفرقة ضعيفة مائلة الى الزوال . ولكن الدخان كان يجثم فى كتل ضخمة بشعة كريهة على وجه السماء وعلى وجه الأرض وعلى الصدر يكاد يسحقه .

واستيقظت ليلى مذعورة وهى تعانى شعورا بالاختناق .

٢٢

ومضى الزمن ، الزمن الذى ما يزال يوما بعد يوم يكسر من حدة الأحداث ويمط فى خيوطها ويكرر ، حتى تصبح ككل شيء متشابه مكرر، جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية ، جزءا يحاول الانسان أن يتقبله بدلا من أن يدفعه ٠

ولم تنتحر ليلى كما أرادت ، ولم تهرب كما انتوت ، ولم تنفجـر رغما عنها فى وجه رمزى كما خشيت ٠ ولم تعد حتى تبكى فى فراشها كل ليلة ، ولم تعد تتصور معارك وهمية مع أمها وأبيها ورمزى فى أحلام اليقظة ٠

تبلدت حواسها وكأنها تحت تأثير مخدر دائم ولم تعد تنفعل بشيء ، حتى رمزى لم يعد يثير فى نفسها هذه الكراهية العنيفـة المتأججة ٠ انكسرت مع الأيام حدة كراهيتها له ، وأصبحت تحتمله بنفس الطريقة التى تحتمل بها أوامر أبيها وتأنيب أمها ٠

ولم يبق لها شيء سـوى مرارة دائمة فى حلقها ، مرارة تصبح عليها وتمسى عليها ، وانسحابة فى الصدر تغشاها كلما انفردت بنفسها فى مكان ضيق ، انسحابة كالانسحابة التى يشعر بها الانسان عندما يكتشف فجأة أنه فقد ـ بلا رجعة ـ شيئا ثمينا لا يعوض ٠ وكانت ليلى تتنبه لهذه اللحظات حين تجد نفسها تتمتم بلا وعى .

ـ قوينى يا رب ٠٠ قوينى

من أين يأتى هذا النداء ؟ من أى أعماق يطفو فجأة هكذا ؟ دائما نفس النداء ٠ ولم تطلب العون من الله ؟ ليقويها على احتمال مصيرها ؟ أم ليقويها على تغييره ٠

ولم تكن ليلى تتوقف لتسأل نفسها هذه الأسئلة أو لتفكر ٠ كان من الأساسى لها فى هذه الفترة ألا تتوقف وألا تفكر ٠ وبلا وعى راحت تحتمى من الألم وكأنها تخشى أن تمس جرحا غائرا فينفجر منه القيح محدثا ألما لا تقوى طاقتها البشرية على احتماله ٠ وبلا وعى نظمت حياتها بحيث لا تتوقف ولا تفكر ٠

كانت تذهب الى الكلية وتعود محملة بكتب استعارتها من المكتبة وأغلبها مجموعات قصص قصيرة ، لا لأنها تفضل القصة القصيرة على غيرها من ألوان الأدب ، بل لأن القصص القصيرة تتطلب فى القراءة تركيزا أقل مما تتطلبه الرواية مثلا · وما أن تنتهى من الاستذكارحتى تفتح الكتاب وتقرأ ·

وكأى مدمن للقراءة تظل تقرأ وهى لا تستمد أى لذة ولا تنفعل اقل انفعال بالعمل الفني ومع ذلك تقرأ ، صفحة بعد صفحة ، وقصة بعد قصة·وتنسى القصة حين تبدأ التالية ، ولا تتذكرأحداثها مهماكدت ذهنها الا اذا أعادت تقليب الصفحات · وكالآلة تقرأ وعيناها مكدودتان ورأسها يدور وشيء ما يثقل صـــدرها وهى تقرأ فى سرعة وفى نهم وبأنفاس متقطعة وكأن انسانا ما يقودها بسوط ·

ويسقط الكتاب من يدها وتطفيء النور وتنام وتستيقظ كالمخدرة لتواجه الحياة من جديد ·

ويوما بعد يوم يتكاثر الأثاث فى البيت ، أثاث بيتها ··

ويوما بعد يوم تلف وتدور فى المحلات خلف جميله وأمها ، ولا تتدخل الا للحد من اسرافهما · كانت تشعر بشعور من الاثم وكأنهـا تسرق كل قرش يدفعه أبوها فى تأثيث البيت الجديد ·

وتقف جميلة مبهورة أمام سلعة من السلع وتقول :

— ايه رأيك يا ليلى ؟

وتهز ليلى كتفها بلا مبالاة وتقول :

— أى حاجه ·· ·

وتحتد جميله :

— هو انت مالكيش رأى فى حاجه أبدا ··

فى الماضى كان لها رأيها ، كانت عندها فكرة واضحة عن البيت الذى تريده لنفسهـا ، وكانت حتى تستطيع أن تراه بعينيهـا · بيت حجراته قليلة ولكنها واسعة ، وحجرة الجلوس مفروشة ببساط لا سجاد، بساط من اللون الرمادى يمتد من الحائط للحائط · ومقاعد وأرائك

مريحة مكسية ووسائد متناثرة على الأرائك ، وسائد زاهية ومتعددة الألوان وأثاث متناثر فى الأركان يترك رحابة يتنفس فيها الانسان . أما الآن فكل شيء يستوى لديها ..

كل شيء يستوى لديها الآن ، سواء اشتغلت عقب تخرجها بالصحافة كما أرادت دائما أو اشتغلت بالتدريس كما يريد رمزى . لم يعد اشتغالها بالصحافة يبدو أمرا هاما كما كان يبدو من قبل .

لقد أرادت دائما أن تتخذ من الكتابة مهنة ، وأن تعبر عن نفسها وعن الناس من حولها . وكتبت فعلا وقيل لها انها تستطيع أن تكتب. وحتى وهى تتكلم كان الناس يلاحظون قدرتها على التعبير عن أدق أفكارها . وكان زميل لها يتحمس كلما سمعها تتكلم ويقول « ضرورى تكتبى ، أنت خلقت عشان تبقى كاتبه » . وكانت تكتب ، وتحلم باليوم الذى تصبح فيه كاتبة .

ولكن كل ذلك كان زمان . وما من شيء يهمها الآن . ثم أنها لا تستطيع أن تكتب الآن ، بل أنها لا تستطيع حتى أن تتكلم بوضوح . فالكلمات تتوقف على شفتيها وتتلعثم ولا تستطيع أن تكمل جملتها . وأحيانا ترد على الأسئلة التى توجه اليها بردود غريبة لا تتنبه الى غرابتها الا عندما ترى الدهشة فى عيون من حولها . ثم أن مهنة التدريس مهنة سهلة لا تتطلب تفكيرا عميقا ولا قدرة خاصة . تحضر المدرسة الدرس وتلقيه وتنتهى مهمتها وكل شيء يستوى لديها .

يستوى لديها أن تتزوج بعد استلامها لعملها كمدرسة فى سبتمبر ١٩٥٦ كما يريد رمزى أو فى يوليه بعد تخرجها مباشرة كما يريد أبوها. ان أباها يستعجل زواجها برمزى . منذ ذلك اليوم وهو يستعجله ، منذ ذلك اليوم وهو يعيش فى قلق ..

* * * *

وبعد زواج محمود بأيام لمح الأب لرمزى برغبته فى عقد القران وتجاهل رمزى تلميحه . وعاد الأب وصرح برغبته ، وقال رمزى أنه يفضل أن يكون عقد القران والزفاف فى يوم واحد ، وأن التفكير فى تحديد ذلك اليوم قبل تخرج ليلى سابق لأوانه .

وسكت الأب على مضض وراح يوجه الى ليلى بين الحين والحين نظرات فاحصة كأنه يقيس مدى قوتها · وترتد نظراته عنها راضية · ولكنه لم ينس أبدا اليوم الذى دخلت عليه فيه ـ كالمجنونة ـ صارخة وكمن القلق فى نفسه ·

ولكن هذا القلق كان يطفو على السطح حين يجىء محمود من بور سعيد لزيارتهم زياراته القصيرة المتقطعة ·

كان شيئا ما قد تقطع بين هذين الرجلين · شيئا كان رقراقا وجميلا ومؤثرا ، ذلك الشىء النادر الذى كان يجعل الكلمات على شفتى الابن تثير الدموع فى عينى الأب ، والذى كان يجعل الابن يفهم فى لمحة ، ودون حاجة الى كلام ، كلمات الأب ·

تقطع ذلك الشىء وأصبحا الآن رجلين غريبين مؤدبين · يسأل الأب عن صحة ابنه وعن عمله ويجيب محمود فى أدب · ثم لا يجد الأب ما يقوله لابنه ولا يجد الابن ما يقوله لأبيه · وتتقطع أسباب الحديث بينهما كما تنقطع بين الاعراب ، ويحاول الأب جاهدا أن يمد حبـاله ويفعل محمود نفس الشىء ·

وفى عقل الأب طوال الوقت نفس الشىء ، الشىء الذى لا يتناوله الحديث ، والذى لا يمكن أن يكون أصـــيلا نابعا من القلب دون أن يتناوله ·

كان الأب قد حرم على من فى البيت طرق موضوع زواج محمود بسناء وكأن هذا الزواج لم يكن ·

وفى عقل الأب وفى عقل الابن طوال الوقت نفس الشىء ، الشىء الذى لا يتناوله الحديث ، والذى لا يمكن أن يكون أصـــيلا نابعا من القلب دون أن يتناوله ·

* * * *

وكان هذا الاحساس يؤلم محمودا · فقد أحب أباه ربما أكثر مما أحب أى انسان آخر ·

وفى يوم زواجه عندما ناداه أبوه الى حجرته ســاعة عقد القران ودس فى جيبه مئتى جنيه بكى كالطفل وهو يهم باحتضانه · ولـكن

أباه أبعده عنه في برود . طعنه وقلبه وكيانه بأجمعه متفتح له وكان أحوج في هذه اللحظة الى حب أبيه منه الى نقوده ورفض أبوه أن يهبه الحب رغم أن الحب لا يكلفه شيئا ورغم أن المال قد كلفه الكثير ، علم الله كم كلفه !

وفي اليوم الذي كان عليه فيه أن يسافر الى بور سعيد مع زوجته، في الوقت الذي عليه فيه أن يبدأ حياة جديدة وقف أمام حجرة أبيه يقرع الباب ليودعه . ولكن أباه ترك الباب مقفولا يفصل بينهما وما زال الى الآن مقفولا .

وفي كل مرة كان يسأله :

ـ عايز فلوس يابني ؟!

وفي كل مرة كان يجيب :

ـ متشكر يا بابا

وبوده دائما أن يقول :

ـ مش عايز حاجه الا أنك ترجع تحبني زي ما كنت بتحبني

ولكن مثل هذه الكلمات لا تقال . ثم ان الحب لا يستجدى . وهو اما موجود أو غير موجود.حب أمه له مثلا لم يتغير أبدا ، هي دائما كما هي بوجهها الصبوح وبحبها الكبير الذي تخجل من ابدائه وبلمساتها الخجلة وبعينيها الصغيرتين اللتين يتغلب عليهما القلق والحنان . وأخته أخته ليلي تحبه ، بل أن حبها له قد تضاعف في الأيام الأخيرة . ولكنها قد تغيرت ، تغيرت وكأن ماء الحياة قد جف منها .

هل حدث تطور في علاقتها برمزي ؟ ان سناء تقول أنها تحبه وأنها تقدره ، وأن ربنا فوق وهو تحت بالنسبة اليها . ولكن لماذا تتجنب الحديث عنه هكذا ؟ ولماذا تغيرت ؟ هل اكتشفت أن رمزي لا يحبها ؟ هل اكتشفت أنه غير قادر على الحب ؟ منـــذ ذلك الحديث مع رمزي وهو غير مطمئن . وقد أراد أن يتدخل ولكن سناء منعته . قالت ان أي تحطيم لرمزي هو تحطيم مباشر لليلي لأنها تؤمن به ايمانا راسخا. ولكن ماذا حدث ؟ هل تزعزع ايمانها ؟ هل تحطم الاله أمام عينيها ؟! هل عرفت فيه الانسان الذي يخفي احتقاره لنفســـه تحت مظهر من

القوة ، والذى يبرر ضعفه بنظريات عقيمه ؟ الانسان الذى ينمو على حساب الآخرين - كالنباتات المتسلقة ، والذى لا يشعر بالثقة الا اذا سحق كل ارادة تتصدى لارادته . الانسان الانتهازى الذى يكرس ذكاءه وآدمية من حوله من الناس ليحقق أغراضه الشخصية والنفعية . هل زالت الغمامة ورأته على حقيقته ؟

ولكن لماذا هى راضخة ؟ لماذا هى مستسلمة لا تتكلم .. ؟ لقد حاول جاهدا أن يجعلها تتحدث عن نفسها وعن زواجها المقبل وحياتها المستقبلة ولكنها كانت تهرب منه دائما ، وتجعله هو يتكلم عن نفسه وعن سناء . وحين يفعل تحيره بتصرفاتها . تمسك بيده بين يديها وتشرق دموعها وابتسامتها فى نفس الوقت . وتنظر اليه فى عبادة صامتة وكأنه بطل من أبطال الأساطير . وفى مرة شحبت ابتسامتها فجأة وارتسم الخوف فى عينيها ومالت عليه هامسة وهى تقول :

- حاسب على سناء يا محمود ، حاسب على سناء .

وسألها فى حيرة :

- خايفه من أيه ؟ خايفه من أيه بس يا ليلى ؟

واعتدلت فى جلستها وقالت فى مرارة وهى تنظر بعيدا :

- مش كفايه انك تبنى حاجه جميله يا محمود . المهم انك تحافظ على جمالها .

ومالت عليه وهى تقول فى كلمات متقطعة :

- دايما يا محمود ، دايما .

وهى تكاد تختنق بعاطفتها ، وكأن حياتها تتوقف على سعادته هو وسناء ، وكأن سعادتها هى لا تهمها شخصيا ولا تهم أحدا .

وهى تعزو هذا التغير الذى طرأ على صحتها لآلام فى معدتها :

- ما باهضمش يا محمود ما باهضمش .

- يعنى أيه مابتهضميش ؟

- تو ما آكل أحس بنار فى صدرى وصداع فى راسى .

– أصناف معينه اللى بتتعبك ؟ البيض مثلا واللبن ٠٠

– كل حاجه ، حتى العيش الحاف ٠

وفحصها أكثر من مرة ولم يستطع أن يرجع الآلام التى تشعر بها الى سبب عضوى واحد ، المرارة سليمة والكبد غير متضخم وليس هناك تقلصات فى القولون تدل على وجود مصران مزمن وليس هناك ٠٠ ومع ذلك فهى تتأوه متوجعة كلما مس جدار بطنها مسا سطحيا ٠

ونزع محمود السماعة من على أذنيه ٠ وقال وهو يحد النظر الى ليلى :

– الأعصاب يا ليلى ، أعصاب المعده تعبانه ٠

وأفصحت نظـرته عن عشرات من الأسئلة ٠

وارتجفت شفتا ليلى ثم أشاحت بوجهها بعيدا عنه ٠ وجلست فى السرير وقالت متضاحكة وهى تعدل ثيابها :

– الأعصاب ؟! هو الدكاتره ما عدش حيلتهم الا حكاية الأعصاب ولا دى الكلمة اللى بتقولها يا محمود لما ما تعرفوش تشخصوا المرض ٠

ولكنه لم يضحك ٠ انتوى ألا يتركها تفلت منه هذه المرة ٠

– مالك يا ليلى ؟ فيه ايه ؟ قوليلى ، أنا أخوك ٠

وأغمضت ليلى عينيها وتقلص وجهها وكأنما تلقت صفعة ٠

ودخلت أمها الحجرة ٠

وألقى محمود السماعة فى الحقيبة فى غضب ٠٠ ان أمه تدخل دائما فى اللحظه غير المناسبه ، وكأنها مكلفة بذلك ٠٠ ربما كان أبوه يخشى من انفراده بليلى ٠٠

وقالت الأم :

– ايه يابنى ، لقيت ايه ؟

وقال محمود وهو ما زال غاضبا :

– الأعصاب يا ستى ، أعصابها تلفانه خالص ؟!

وقالت الأم غير مصدقه :

- أعصاب ؟! أعصاب ايه يابني ؟!

واستبعد الأب هذا الاحتمال فى استخفاف حين قال :

- كلام فارغ .

* * * *

ولكن قلق الأب تزايد . وصمم على مفاتحة رمزى فى موضوع تحديد موعد للزواج ، ان ليلى مقبلة على امتحاناتها النهائية ولم يعد هناك أى داع للتسويف .

وجلس الأب ينصت الى رمزى وينتظر ثغرة يتسلل منها الى الموضوع .

ولم يكن من السهل ايجاد هذه الثغرة .

كان لرمزى قدرة على تركيز الحديث حول نفسه ، حول المؤامرات التى دبرت ضده وأحبطها ، والخطط التى رسمها ونجحت ، والكتب التى كتبها والتى ينتوى كتابتها ، والانتصارات التى أحرزها ، والانتصارات التى سيحرزها .

وكان لرمزى أيضا القدرة على احاطة حديثه بأهمية تبلغ مستوى القداسة وكأن مصير العالم كله يتوقف على النقطة التالية من الحديث ، على الخطوة التالية التى سيتخذها ليسحق أعداءه سحقا نهائيا ..

وكان من المستحيل والأمر كذلك أن يقاطعه الأب . لو فعل لكان هذا قطعا أمرا خارجا على حدود اللياقة . واستطرد رمزى فى كلامه والأب يتململ ، وتوقف رمزى ليستجمع أفكاره ، ولم يطق الأب صبرا ، اندفع يتكلم ..

لا ، لا داعى للاستعجال ، كل شىء يجب أن تعد له عدته ويجب أن يحسب حسابه بمنتهى الدقة . اختيار المسكن مثلا عملية هامة ، عملية يجب أن تتم على أسس سليمة ولا يمكن أن تتم قبل أن تلتحق ليلى بعملها الجديد . فالمسكن يجب أن يكون أقرب ما يمكن الى مكان عملها حتى تستطيع أن ترعى شئون البيت . والنظام أساس الحياة الزوجية ، وهو لا يتساهل أبدا فى موضوع النظام هذا ، فهو يريد

لبيته أن يسير كالآلة ، كل شيء في مكانه وكل شيء بميعاد • فكيف يتأتى لليلى أن تقوم بكل هذه المهام ومقر عملها بعيد عن البيت ؟!

لا •• الزواج في يوليه أمر سابق لأوانه • والمسألة ليست سلق بيض • المسألة يجب أن تكون مدروسة من كل النواحي •

وماذا يقترح ؟! انه يقترح أن تتم كل الاستعدادات اللازمة ويترك تحديد موعد الزواج لحين تعيين ليلى •

ولكن الأب لم يرضخ هذه المرة • فهو يرغب في تحديد موعد ولو بعد شهور • المهم هو تحديد الموعد ، فهو لم يعد يطيق هـذا الموقف المعلق •

وتحدد أول أكتوبر سنة ١٩٥٦ موعدا لزواج ليلى برمزى •

ولم يسترح الأب الى هذا التأجيل الذى ليس له ما يبرره • ان التأجيل يعني الانتظار ثلاثة شهور وأكثر • ومن يدرى ماذا يحدث في ثلاثة شهور ؟ ان ليلى فتاة طيبة ولكنها تحت تأثير سيء ، تأثير محمـود والمرأة الأخرى •

ولو علم الأب أن ليلى تقابل سناء يوميا وتقضى معها أطول ما يمكن من وقت لتزايد قلقه •

٢٣

كانت سناء قد استقرت في القاهرة لتأدية امتحاناتها النهائية • وبعد كل امتحان كانت تتجه هي وليلى الى ركنهما القديم خلف المكتبة • وعلى العشب تحت ظل الشجرة الكبيرة تجلسان •• وفجأة يعود كل شيء كما كان زمان — رائعا • وتعود ليلى فتاة لاهية تضحك من أعماقها حتى تنفرط الدموع من عينيها

وتقول سناء فجأة :

— وازى رمزى ؟

وتقول ليلى وهي ما تزال تضحك :

- سحق نص العالم ولسه قدامه النص التانى ٠

وسرح نظر سناء بعيدا ، وراحت تقتلع العشب من الأرض حزمة بعد حزمة ٠ ثم قالت دون أن تنظر الى ليلى :

- ما تسيبيه يا ليلى ٠

وتنهدت ليلى وقالت فى هدوء :

- كل واحد بياخد نصيبه يا سناء

واعتدلت سناء تواجهها :

- ما فيش حاجه اسمها نصيب ٠ احنا اللى بنصنع نصيبنا ٠٠

وقالت ليلى

- وأنا اللى صنعت نصيبى بأيدى ٠

- مفهوم ٠ ولكن دا مايبررش أنك تنتحرى ٠

ومالت عليها ليلى وقالت بصوت هامس وكأنها تفضى لها بسر :

- صدقينى يا سناء ٠ أنا ما استاهلش أحسن من كده ٠

- أنت غلطانه ، أنت بنت ٠٠

ومدت ليلى يدها تسد فم سناء وهى تقول بصوت فاصل :

- ما تتعبيش نفسك يا سناء ٠ أنا عارفه نفسى كويس ٠٠

وأزاحت سناء يد ليلى عن فمها فى رقة ٠ وأمسكت بها بين يديها وقالت :

- ومحمود ؟ محمود ما يقدرش يساعدك يا ليلى ؟

وانتزعت ليلى يدها من بين يدى سناء ٠ وقالت وهى تضحك ضحكة مرة :

- محمود ؟! يقدر يحيى الموتى وهى رميم ٠

وأمسكت سناء بركبتى ليلى وكادت تصرخ وهى تقول :

- ليه ؟ ليه يا ليلى ؟ ليه بتكرهى نفسك بالشكل ده ؟

ـ لأن دى هى الحقيقة ٠

وسارت سناء وليلى فى اتجاه باب الجامعة الخارجى وقد علا وجهيهما الوجوم ٠ وعندما مرتا بحذاء الموائد المتناثرة فى الحديقة توقفت سناء فجأة واستدارت تواجه ليلى ٠ ونعم صوتها ولمعت عيناها وهى تقول منغمة :

ـ عارفه يا ليلى ؟ عارفه مين زارنا فى بور سعيد ؟

وسرت رجفة فى قلب ليلى ثم تركزت فى رأسها ، وكأن سلكا كهربائيا مكشوفا قد مسها ٠ وقالت بصوت هامس :

ـ مين ؟

ولم تكن فى حاجة الى أن تسأل ٠ فقد عرفته ، عرفه دمها الذى تدفق الى قلبها ثم تركز فى رأسها ٠

وقالت سناء فى انتصار :

ـ حسين ٠٠

ودون حاجة الى اتفاق سابق انحرفت الصديقتان الى مائدة من الموائد المتناثرة وجلستا حولها ٠

وطلبت سناء زجاجتين من الكوكا كولا ، وانتقلت من موضوع حسين الى موضوعات أخرى وكأنها تتعمد تعذيب ليلى ٠ويد ليلى ترتجف على الكوب وعشرات من الأسئلة تتوارد على ذهنها ، ولكنها لا تسأل وتنتظر واجفة القلب أن تعود سناء الى موضوع حسين ٠٠

وعادت سناء الى موضوع حسين ، وأجابت عن كل الاسئلة التى أرادت أن تسألها ليلى ولم تسألها ، كل الأسئلة الا سؤال واحد ، أهم من كل الأسئلة ٠

نعم ٠ عاد حسين من ألمانيا منذ شهرين وهو رائع كعادته ٠ تغير قليلا ، ازداد رجولة وجاذبية ، واكتسب شيئا من الصعب تحديده شيئا يتبدى فى مشيته وفى صوته وفى عينيه ، فرحة جديدة ، كما لو كان قد مر بمحنة ثم اكتشف أنه أقوى مما كان يتوقع ٠ والواقع أنه لطيف وقد قضى معهما يومين فى بور سعيد كانا من أسعد الأيام بالنسبة

لحمود ٠ محمود يحبه بصورة مذهلة الى درجة جعلت سناء تغير ٠ ولحسين تأثير عجيب على محمود ولكن سناء لا تعترض على هذا التأثير بل بالعكس ترحب به ٠ فحسين يجعل محمودا يشعر أن الدنيا بخير ، وأن الناس طيبون ٠ وأن كل شيء سهل وأن الأحلام ممكن أن تتحول الى حقائق ٠

وقد التحق بالجيش ، ويعمل حاليا بالمصانع الحربية ٠ وما زال يحلم - طبعا كعادته ٠ لقد قضى ثلاث ساعات يرسم رسومات ويشرحها لمحمود ومحمود مبهور ، وهى تكاد تصرخ من الضيق ٠

- وعارفه كان بيرسم ايه ؟ السد العالى يا ستى ٠

وضحكت سناء

- والطريقة اللى كان بيتكلم بها عن السد العالى ؟! تقوليش بيتكلم عن حبيبته ٠٠

وابتسمت ليلى ابتسامة خفيفة ٠٠

والتفتت سناء الى ليلى وقالت فى شقاوة :

- تصدقى يا ليلى ؟!

وتوقف تنفس ليلى ٠ وأكملت سناء كلامها :

- تصدقى ان حسين لسه بيحبك ؟!

وطفرت الدموع الى عينى ليلى واحمر وجهها ٠ ومالت على المائدة وأرادت أن تقول :

- مش معقول ٠

ووجدت نفسها تقول :

- وعرفت ازاى ؟!

وانفجرت سناء ضاحكة ٠

وبدا الذهول على وجه ليلى ٠ ذهلت مما أصابها ٠ لقد مضى عليها زمن طويل ولا شيء يحركها ولا شيء يهزها ، وها هى ترتجف الآن وكأنها فتاة مراهقة ، كل شيء بأعماقها يرتجف ٠ وسناء تضحك منها

وقالت ليلى فى غضب،وغضبها موجه الى نفسها أكثر مما هو موجه الى سناء .

ـ بتضحكى على أيه ؟

ومضت سناء تضحك ، ثم اعتدلت وهى تكتم ضحكتها ، ومدت يديها الى الأمام فى حركة مسرحية ، وقالت وهى تقلد ليلى ، فى صوت مسرحى مؤثر :

ـ يقدر يحيى الموتى وهى رميم ؟!

ولم تستطع ليلى أن تكتم ضحكتها.

ـ انت مصيبه .

وقالت سناء :

ـ والله ما مصيبه غيرك . مستموته كده على الفاضى . أنت ؟! أنت ميته ؟! دا أنت فيك حياة تكفى عشره ..

وعادت تضحك من جديد ..

وساد الصمت الصديقتين لحظة بدت فيها سناء واجمة وكأنهـا تفكر . ثم مالت بنصفها الأعلى على المائدة وواجهت ليلى بوجه هادىء وهى تقول :

ـ روحى يا ليلى اتجوزى رمزى زى ما أنت عايزه . بس واجهى الحقيقه الاول ، الحقيقه اللى انت طول عمرك بتهربى منها ..

وتوقفت سناء عن الكلام ، رأت يد ليلى تزحف نحوها عبر المائدة، تزحف مرتجفة وكأنها حيوان جريح . وفى عينى ليلى رأت نظرة مبتهلة نظرة تتوسل اليها ألا تتكلم ، ألا تواجهها بالحقيقة العارية .

وكأن الحقيقة لن تصبح حقيقة الا اذا تكلمت ! الا اذا تشكلت فى كلمات حية نابضة .

وترددت سناء لحظة ، ثم قذفت بكلماتها فى عنف ، كمن يوجـه صفعة لشخص أصيب بالاغماء ليفيق :

ـ الحقيقه يا ليلى انك بتحبى حسين ، طول عمرك بتحبيه ، وطول عمرك حاتحبيه .

وشعرت ليلى بدوار وكأن شيئا ما ينزف بداخلها • وغطت وجهها بيديها • ودون أن تنظر الى سناء ، ودون أن تنطق بكلمة ، سحبت حقيبتها من فوق المائدة وانصرفت • ونادتها سناء ولم تتوقف • سارت بخطى واسعة وكأن انسانا يطاردها ، وألقت بنفسها فى أول أتوبيس توقف أمام باب الجامعة دون أن تهتم بمعرفة وجهته •

وجلست منكمشة مطرقة تحتضن حقيبتها •••

وكلمات حسين تتردد فى أذنيها •• فى يوم الصبح حاتصحى وتكتشفى انك بتحبينى •

وتتقاطع الكلمات وتتشابك وتتراكم ، دائما نفس الكلمات •• الصبح ، حاتصحى ، الصبح •

ولكن الصبح قد تأخر ، تأخر بحيث كان من الأفضل ألا تصحو أبدا ، وألا يأتى الصبح أبدا •

وكل شيء واضح الآن ، واضح وحاد وعنيف ولا شيء يستوى لديها • حبها لحسين حاد وعنيف وكرهها لرمزى حاد وعنيف • وكرهها لعجزها ولضعفها أحد وأعنف •

والحقائق حقائق ، وعارية •• وليلى تواجهها بعينين مفتوحتين ولا تملك من أمر نفسها شيئا •

٢٤

جلست ليلى الى مكتبها وأسندت رأسها الى كفيها ، وعيناها تلمعان وهما يتطلعان بعيدا ، وفى صدرها ذلك الشعور العجيب المتوهج الذى ظنت ، من طيلة غيبته ، أنه لن يعود أبدا • ولكنه عاد ، دافقا متوهجا وثابا لا تكاد ضلوعها تحتويه •

وكانت قد فرغت لتوها من ذرع الحجرة عشرات المرات جيئةوذهابا والشعور المتوهج ما يزال يتأجج وما يزال يتطلب منها أن تبكى ، أن تضحك ، أن تصرخ ، أن تقفز ، أن تقبل أحدا ، أن تتكلم مع أحد من الناس ، مع الكثير من الناس •

وسمعت ليلى همهمة ، اشتدت حتى أصبحت كهدير البحر ، وجرت الى النافذة وفتحتها على مصراعيها ، وودت لو استطاعت أن تندفع مع موجة من هذه الموجات الآدمية التى تمر مهللة منتصرة فى الطـــريق الواسع العريض .

وعادت تذرع الغرفة من جديد وهى لا تعرف ماذا تفعل بهذه الفورة التى تتأجج فى صدرها .

وانحرفت الى المكتب وسحبت ورقة وقلما ، وبدون أن تفكر سطرت الكلمات التالية الى أخيها :

« عزيزى محمود

« منذ زمن طويل ، طويل جدا ، لم أشعر بما شعرت به الليلة وأنا أستمع الى خطاب جمال عبد الناصر .

شعرت أني قوية وأني قادرة على كل شيء ، كل شيء ، . أتفهمنى ؟! والشعور بالكبرياء الذى نسانى عاد الى من جديد ، والانتماء يامحمود. لم أعد وحيدة ..

شعرت تلك اللحظة أني كنت هنـــاك ، مع الآلاف التى تهلل فى الاسكندرية ، ومعك ومع سناء ومع ...

حتى أبى لم يعد غريبا . لقد كاد يحتضننى ونحن نســـتمع الى الخطاب . تصور ؟! وكلنا - حتى أبى - كلنا أممنا القناة .

والشعور بالكبرياء الذى نسينى عاد الى ، والشعور بالعجب لأن القوة مازالت تنتفض فى أعماقي حية .. وان كانت حبيسة . »

وتوقفت ليلى لحظة وقد غشت الدموع عينيها ، ثم واصلت الكتابة

« أهذه هى المعجزة التى وعدتنى بها ؟.. المعجـزة التى ستهزنا وتجعلنا ننفض أكفاننا وتنبعث أحرارا أقوياء من جديد ؟ .. قل لى انها المعجزة .. أرجوك يا محمود قل لى انها المعجزة .. »

* * * *

لا ليست هذه هى المعجزة .. قال محمود : « ان المعجزة ستحدث حين نستطيع أن نحمى القناة وأن نحمى جميع مكاسبنا الوطنية ، حين نتخلى عن سلبيتنا ، ونصمد جميعا حتى الموت للاستعمار »

وقال رمزى ان هذا مستحيل ، فتأميم القنـاة ألب علينا جميع القوى الاستعمارية ونحن أضعف من أن نواجهها . وميزان القوى ليس فى صالحنا . وكنا نستطيع أن ننتظر ، أن نتدبر الأمور ولا نتعجل ، والشجاعة والحماقة لا يفصلهما الا خط رفيع .

وقالت ليلى اننا لا نقف وحدنا بل يقف الى جانبنا كل الأحرار فى العالم وميزان القوى ...

وقاطعها رمزى فى عنف .

كان قد مضى عليها وقت طويل لم تفتح فمها برأى معارض لرأيه وها هى ذى الآن تتكلم بثقة وبوقاحة كما لو كانت تفهم من أمـور الدنيا أكثر مما يفهم ..

وكزت ليلى بأسنانها على شفتها السفلى وسكتت ، ورمزى يتبادل الحديث مع أبيها . ثم انتهزت فترة السكون الذى ساد لحظة ومالت فى اتجاه رمزى وقالت :

– الانسان لوكان عاش طول عمره خايف يحسب حساب كل خطوه ما كانش بنى حضارة ولا اخترع حاجه ، ولا انتزع حريته . ما كانش حقق أى حاجه جميله .

وانقبض وجه رمزى لحظة ثم عاد الى جموده ، وقال فى سخرية بعد أن ارتخى فى جلسته :

– ولما أنت فصيحه كده ، ما نجحتيش بتفوق ليه .. ؟!

وأخذت ليلى على غرة واحمر وجهها غضبا . لم تتوقع أن يلجأ رمزى الى هذه الطريقة الخسيسة ليهرب من المناقشة . ولكنه لجأ اليها لينتصر .. ما من طريق لا يلجأ اليه لينتصر ! حتى فى المناقشة ..

انه مغتاظ ، لا لأنها نجحت بدرجة مقبول ، بل لأن سناء نجحت بدرجة جيد جدا ، سناء التى تنبأ بفشلها وأقسم أغلظ الايمان على أنها لن تفلح ..

ونظر رمزى الى ليلى فى غيظ .. لقد منحهـا كل شىء يمكن أن يمنحه رجل لامرأة . منحها ابنـه ومركزه وماله ، وأضفى عليهـا الاحترام ، وبعد أن كانت نكرة أصبح الكل يحترمها على أساس أنهـا

زوجته المقبلة . وأعطاها الحياة المنتظمة المطمئنة الخاليـة من القلق ، وكتبه ونصائحه وتوجيهاته ، وكل شيء ، كل شيء يمكن أن يمنحـه رجل لامرأة وأستاذ لطالبة ، ومع ذلك تركت فتاة قذرة كسناء تتفوق عليها .. !

وقال رمزى فى حقد :

– أنا مش فاهم أيه اللى كان ناقصك ؟ كل التسهيلات كانت عندك .. كل التسهيلات ..

ومالت ليلى فى اتجاهه ووجهها يتورد وعيناها ترقصان ، وكأنها على وشك القفز من ارتفاع الى الماء ، والمغامرة تسحرها وتخيفها فى نفس الأوان :

– تحب تعرف ، أيه اللى كان ناقصنى ؟

ولكن الأب تدخل فى الحديث وأفسد على ليلى نشوتها المفاجئة .

أراد أن يعرف أثر تقدير النجاح فى التعيين ، وهل سيترتب عليه صعوبة فى ايجاد مكان لليلى فى مدارس القاهرة الثانوية ؟

نعم ، الصعوبة موجودة ، بل ان أمر تعيين ليلى فى القاهرة يكاد يكون مستحيلا لولا أن لرمزى – والحمد لله – نفوذا فى وزارة التربية والتعليم . فهو يعرف جميع وكلاء الوزارة معرفة شخصية ، وهم جميعا يتمنون أن تسنح لهم الفرصة لتقديم خدمة اليـه . وهو يستطيع أن يقابل الوزير فى أى وقت من الأوقات .

وهو حقا لا يحب أن يستخدم نفوذه ، فقد شق طريقه دائما بذراعه وأملى نفسه على الآخرين بتفوقه ، ولكن ما باليد حيلة ..

* * * *

أخذ رمزى ليلى لمقابلة المفتشة العامة للمواد الاجتماعية ، ووجدت ليلى نفسها فى غرفة فسيحة يتوسطها مكتب كبير ، تجلس خلفه امرأة فى الخمسين من عمرها يكشف شعرها الفضى المشـدود الى الخلف عن جبين شامخ تشوب نصاعة بياضه تجاعيد الشيخوخة .

وجلست ليلى على طـرف الأريكة بينما ارتخى رمزى فى جلسته ووضع ساقا على ساق وهو يبين الغرض من الزيارة .

واستمعت المفتشة الى الكلام دون أن تنظر الى رمزى ، وعلى وجهها الوسيم ارتسمت ابتسامة خفيفة وكأنها تفكر فى شىء آخر ، شىء لا علاقة له بالموضوع الذى يثيره ذلك الرجل الذى جلس وقد وضع ساقا على ساق وكأنه فى بيته ٠

ودون أن تنطق بكلمة نظرت الى ليلى ومدت يدها بورقة مطوية ٠ وقفزت ليلى من مكانها مضطربة وسارت فى اتجاه المفتشة وحين حاذتها توقفت ٠٠

وابتسمت المفتشة فى وجه ليلى وكأنها تعرفت عليها لتوها ، وقالت بصوت ناعم والحنان يترقرق فى عينيها ٠

– اكتبى الطلب دا يا ليلى ٠٠

وأشارت بيدها الى المائدة فى الطرف الآخر من الحجرة وهى ماتزال تبتسم ٠٠

وبيد ثابتة أخذت ليلى الطلب ، وكأن ابتسامة المرأة الهادئة الواثقة المطمئنة قد أضفت عليها هى الهدوء والثقة والاطمئنان ٠ وبخطوات ثابتة سارت الى المائدة وجلست تكتب البيانات المطلوبة بعيدا عن رمزى

الاسم ، العنوان ، الشهادة ، تقدير النجاح ، الوظيفة المطلوب التعيين فيها – مكان التعيين ٠٠

ورمزى لا يكف عن الكلام ٠٠ القاهرة ، لابد أن تعين ليلى فى القاهرة ٠٠ لا ، انه لا يكتفى بمجرد المحاولة ٠ يجب أن يأخذ وعدا صريحا من المفتشة ، والا سيضطر الى استخدام نفوذه ٠ ان وكلاء الوزارة يتمنون خدمته ، والوزير شخصيا لا يتأخر عنه فى طلب مثل هذا و ٠٠

وتوقفت ليلى عند مكان التعيين ، الاختيار الاول ، والاختيار الثانى ٠ ورمزى يتكلم ٠٠٠

القاهرة ، لابد من القاهرة ، ان القاهرة هى مكان عمله وبالتالى لابد أن تكون مكان عمل زوجته المقبلة ، يجب أن تعده المفتشة بتعيين ليلى فى القاهرة ، لا مفر من القاهرة ٠٠

والمفتشة تبتسم ابتسامتها الخفيفة وتنظر الى لا شىء ٠٠ وكأنهـا

تفكر فى شيء آخر لا علاقة له بهذا الرجل الذى يهـــدد ويتوعد ، شيء جميل ..

وانحنت ليلى على الطلب وتحت مكان الاختيار الأول كتبت بورسعيد وتحت مكان الاختيار الثانى كتبت بور سعيد . وطبقت الورقة وقفزت واقفة . وفى نفس اللحظة قام رمزى واقفا .

وتقدمت ليلى بخطوات واسعة الى مكتب المفتشة وقابلها رمزي في منتصف الطريق أمام المكتب .

واجتاحت رجفة الخوف جسد ليلى ، وكادت تستسلم ولكنها رأت الابتسامة الواثقة المطمئنة وشعرت وكأن الابتسامة تلفها . وتجاهلت يد رمزى الممتدة اليها واستدارت وأعطت الطلب للمفتشة وتنهدت فى ارتياح ..

وقال رمزى للمفتشة فى ضيق مكتوم :

ـ تسمحى أشوف الطلب مستوفي ولا لأ ..

ووجف قلب ليلى من جديد وأغمضت عينيهـــا .. وحين فتحتهما كانت المفتشـة تبتسم بسمتها الخفيفة وهى تنظر الى بعيد ، وتدق المكتب والطلب تحت يدها ، دقات رتيبة ..

والتفتت المفتشة الى ليلى وقالت بصوت هادىء :

ـ الطلب مستوفى يا ليلى .. ؟

ولم تستطع ليلى أن تجيب ، أشارت برأســها بالايجاب دون أن تنطق بكلمة ...

وفتحت المفتشة درج مكتبها وألقت بالطلب فيه ، ثم ردت الدرج الى مكانه فى هدوء ، وقامت واقفة وهى تقول :

ـ خلاص يا ليلى .. ان شاء الله حانحاول نجيب رغبتك ، مـــع السلامه ، مع السلامه يا دكتور ..

وعندما وصلت ليلى الى الباب استدارت وهى تبتسم .. وسبحت عيناها فى الدموع حين التقيتا للمرة الاخيرة بعينى المفتشة .

* * * *

ولكن رمزى كان ناقما على المفتشة ، لم يغب عنه تجاهلها المتعمد له • وتحول عدم رضائه الى ثورة عندما تلقت ليلى خطاب التعيين من وزارة التربية والتعليم •

ووضع رمزى الخطاب فى جيبه ، وهدأ من روع الأب الثائر ووعد بوضع الأمور فى نصابها :

— فى أربعة وعشرين ســاعة ، حاتكون ليلى متعينه فى القاهره وحضرة المفتشة اياها حايجيلها الأمر من فوق • أصل فيه ناس كده زى الكلاب ، ضرورى يجيلهم الأمر من فوق •

وصرخ الأب عقب خروج رمزى الى الوزارة :

— بور سعيد ؟! •• مستحيل •• بور سعيد بالذات مستحيل :

ثم ضاقت عيناه وهو يرقب ليلى :

— أنت ، أنت اللى طلبت بور سعيد •

وقلبت ليلى يديها فى براءة :

— أنا طلبت مصر • حتى حضرتك اسأل رمزى لما يرجع •

ولم يرجع رمزى فى الظهر كما وعد ، ولكنه جاء بعد العصر • وقال أنه سوى المسألة ، وأنه أخذ وعدا صريحا من وكيل الوزارة بنقل ليلى الى القاهرة بعد استلامها للعمل فى بور سعيد بأسبوعين • وأن المسألة مسألة شكلية ، ولا بأس فى بعض الأحيان من الخضوع للشكليات ••

ولكن الأب أظهر استياءه من هذه التسوية ، وقال انه يفضل أن ترفض ابنته التعيين على أن تسافر وحيدة الى بور سعيد •

— ثم مين أدرانا انها حاتتنقل صحيح بعد أسبوعين ؟!

واحتد رمزى وهو يصف للأب مدى نفوذه فى وزارة التربيـــة والتعليم ، وكيف ثار وكيل الوزارة حين علم بخطأ المفتشة وكيف وعد بتلقينها درسا لن تنساه ، وكيف أن نقل ليلى من بور سعيد بعـــد أسبوعين من تسلمها العمل أمر مضمون مائة فى المائة ••

وهـــدأ رمزى وهو يشرح للأب كيف أن رفض ليلى للتعيين يعنى انتظارها للدفعة التى تلى دفعتها ، أى ضياع سنة بأكملها ، وكيف أن

التســـوية التى ارتضاها لا تتعارض مطلقا مع خطتهم ، فليلى ستستلم عملها فى أول سبتمبر ، وستكون فى القاهرة فى نصف سبتمبر ، أى قبل الموعد المحدد للزواج بأسبوعين .

وأشار رمزى الى أن اقامة ليلى فى بور سعيد ميسرة ، فمن حسن الحظ أن المدرسة الثانوية تضم قسما داخليا مخصصا لاقامة المدرسات المغتربات ، وأن المسألة والأمر كذلك ، تدعـــو الى الاطمئنان من كل الوجوه ..

وبعد أن انتهى رمزى من عرض الموضوع قال للأب :

- أيه رأيك .. ؟

- حا افكر ..

وترك الأب الموقف معلقا .. وأول سبتمبر يقترب والأب ما يزال يفكر ..

وعندما نادى ليلى وانفرد بها فى غرفته عرفت أنه سيفتح الموضوع وتأهبت بكل حواسها لملاقاته ..

وقال الأب :

- أنت عايزه الشغلانه دى .. ؟

وارادت ليلى أن تصرخ من أعماقها وتقول :

- أيوه ، أرجوك ، أرجوك يا بابا ..

ولكنها تمالكت نفسها وقالت وهى تهز كتفها وكأن الأمر لا يعنيها فى شىء :

- زى ما حضرتك عايز ..

وقال وهو يدير ظهره لها :

- والناس اللى هناك دول حا تختلطى بيهم .. ؟

ولم تدر ليلى كيف ينبغى أن تجيب على هـــذا الســـؤال ، وقالت فى بلاهة :

ـ زى ما حضرتك عايز ..

واستدار يواجهها وقد شحب لونه وقال فى هدوء قاتل :

ـ انت عارفه أنا عايز أيه ؟ عارفه كويس أوى ..

ولم تتكلم ليلى . وبدأ أبوها يذرع الحجرة ثم توقف وقال :

ـ السكن فى المدرسه ، محمود يزورك معلهش ، التانيـــه لأ ، زيارات عندهم فى البيت مافيش ، خروج من المدرسه مافيش .

وركز الأب عينيه فى عينى ليلى وقال فى حدة :

ـ فاهمه .. ؟

ـ حاضر ..

وضاقت عينا الأب الرماديتان وارتجفت شفتاه وهو يقول متوعدا :

ـ عارفه حا يحصل ايه لو بلغنى انك دخلت بيتهم ، أو اختلطت بيهم .. ؟

وأغمضت ليلى عينيها وهزت رأسها علامة الفهم دون أن تتكلم ..

وقال الأب :

ـ خلاص ..

ووقفت ليلى مسمرة فى مكانها . وقال الأب فى ضيق :

ـ خلاص ، انتهينا ، روحى حضرى نفسك ..

وخرجت ليلى من الغرفة وهى لا تكاد تصدق أن أباها قد سمح لها بالسفر الى بور سعيد ..

* * * *

وأعدت ليلى حقائبها وهى ترتجف رجفة المباغتـــة كلما سمعت خطوات أبيها تدب فى الصالة .. تملكها الخوف من أن يحدث شىء فى آخر لحظة يحول بينها وبين السفر ..

ولم يزايلها هذا الخوف حتى وهى تقف فى نافذة القطار ورمـــزى

يقف على الرصيف • واختلست ليلى نظرات سريعة الى ساعة يدها الساعة لا تتحرك وكأنها قد فسدت ••

وبوجه متوتر راحت تتطلع حولها وكأنها تبحث عن شيء ضاع منها •• وتنهدت حين وقعت عيناها على ساعة المحطة •• الحمد لله •• الساعة الثانية عشرة •

الساعة الثانية عشرة والجرس لا يدق والقطار لا يتحرك ••

وقال رمزى :

— ما تخافيش يا ليلى ، كلها أسبوعين وحاترجعى على طول •

والجرس يدق والقطار لا يتحرك ، ربما أصابه عطب ، ولن يتحرك •• لن يتحرك أبدا ••

وتحرك القطار ، وتهلل وجه ليلى ، وصاحت فى نشوة دون أن تنظر الى أحد ، أو توجه الخطاب الى أحد ، صاحت وكأنها تتغنى بأغنية :

— أنا مش خايفه ، مش خايفه ••

وجلست وهى ما زالت تدمدم :

— أنا مش خايفه ، مش خايفه ••

ثم هبت واقفة وكأنها نسيت شيئا وأقفلت النافذة وغاب عنها رمزى والرصيف بأكمله ، وتقدم القطار فى بطء ثم انطلق ••

* * *

ولم يكن أمر نقل ليلى من بور سعيد بالسهولة التى تصورها رمزى، وبدلا من الأسبوعين بقيت ليلى فى بور سعيد شهورا •

وفى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ بدأ الهجوم الاسرائيلى على صحراء سيناء ، وفى ٣١ أكتوبر اشتركت بريطانيا وفرنسا فى العدوان على مصر ، وبدأت العمليات الحربية ضد المواقع المصرية •

٢٥

وتدفق شلال هادر ، واعترضت المستنقعات مجرى للشلال فى الطريق ، تريد أن تمتصه وأن تفنيه فيها ، وأن تحيله بركودها الى ركود

والشلال عات جبار جياش عميق ٠

والمستنقعات عتيقة ترسبت على مر السنين ، تجثم على أرض مصر فى اطمئنان وهدوء وصفحتها تلتمع تحت أشعة الشمس ٠

وتحت الصفحة اللامعة طين ٠

واكتسح الشلال المستنقعات فى الطريق ، وأفنى ماءها فى مائه ، وأحال ركودها الى فورة فتية وثابة مائجة فوارة ٠

وفى أغوار الشلال ذاب الطين ٠

وتقدم الشلال عاتيا جبارا جياشا عميقا الى آخر الطريق ٠ وفى آخر الطريق سد ، سد من صخور ٠

وتحت أقدام الشلال انهار السد ، وتفتت الصخور ٠

* * *

ظل جرس التليفون يدق فى شقة محمود طيلة الصباح ، ولا أحد يجيب النداء ٠

كانت ليلى فى المدرسة ، وسناء فى مركز تمريض ، ومحمود فى مركز تدريب عسكرى ٠

وعندما عادت ليلى الى الشقة عقب اعلان تعطيل الدراسة كان جرس التليفون ما زال يدق ٠

وارتجفت يد ليلى بالمفتاح وهى تفتح الباب ، ووصل الى سمعها رنين الجرس متصلا لا متقطعا ، وأدركت أن الاتصال من أبيها أو من رمزى ٠

ووضعت ليلى حقيبة ملابسها بالقرب من الباب ، واتجهت الى التليفون بخطى بطيئة ، ووضعت يدها على السماعة ، وهمت برفعها ٠ وسمعت نفسها تقول :

ـ حاضر يا بابا ، زى ما أنت عايز يا بابا ٠

وانحرفت عن التليفون ، واندفعت الى الحجرة التى خصصتها سناء لها ، وأغلقت الباب خلفها ، وجلست على طرف السرير ، ورنين التليفون يخترق الباب المغلق ...

* * *

لا ، انها لا تريد أن تسمع الصوت يأمرها أن تعود ، ويجرها جرا الى القاهرة من جديد ، أنها لا تريد أن تترك حياتها لرمزى ولأبيهـــا يكيفانها كما يشاءان ، وكأنها قطعة من الحجارة يقذف بها الانسان بطرف حذائه أينما أراد ، وكيفما شاء . انها لا تريد أن تعود الى القاهرة ، ولن تعود الى القاهرة . يجب أن تواجه أباها وأن تواجه رمزى ، يجب أن تقول.لا .

وقامت ليلى واقفـــة لترد على التليفون ، وسارت الى باب الحجرة المغلق ، ووضعت يدها على مقبض الباب ، وسرت رجفة باردة فى جسمها

رأت أباها يقترب منها فى خطوات قصيرة آلية ، بوجه جامد وبجسم متصلب وكأنه آلة مسلطة عليها ، آلة تقترب منها فى بطء لتسحقها . ورأت رمزى يهز وجهه الجامد المغلق ويقول :

ـ ما فيش فايدة .

والتليفون يرن ، ولا يكف عن الرنين . حتى صوت الانذار بالغارة أخف وطأة من ذلك الرنين ، انه لا يستمر هكذا نقيـــلا ملحا خانقا بلا نهاية ، انه يستمر لحظات قصيرة ثم يأتى الرد حاسما عارما .

ويهتز البيت والقلب ، والمدافع المصرية المضادة للطائرات تنطلق من كل جانب ، وكأن الأرض تفجرت حمما .

ويتطلع الانسان من النافذة الى الا فق البعيد ، وهو يتنقـــل ببصره فى السماء ، ومع كل طلقة يكتم أنفاسه وينتظر .

ويتفجر الدم فى عروقه وهو يسمع الناس يهللون ، ويلمح طائرة تتحول الى شعلة من نار وهى تهوى الى الأرض أو الى البحر .

ويكتم أنفاسه لينتظر من جديد ...

والتليفون يرن ولا يكف عن الرنين ، والرنين يتضخم لحظة بعـــد لحظة ..

وتشبثت ليلى بمقبض البـــاب ، وجســـمها يرتجف بعجـــزها ، وبكراهيتها وبثورتها •

والرنين يلهب أعصابها وينخر فى رأسها ، يحفر فيه ثقبا يتسع لحظة بعد لحظة ، ثقبا يكاد يودى بها الى الجنون •

وانفجرت ليلى صارخة ، ودفعت الباب أمامها وخرجت من البيت لاهثة وكأن خطرا يداهمها •

وعندما وصلت الى الشارع ، ولم يعد الرنين يتردد فى مسمعها تنهدت فى ارتياح وهى تغطى وجهها بيديها •

* * *

وعاد محمود الى البيت متأخرا تلك الليلة ، وكانت سناء فى المطبخ، تطهو بعض السباجتى للعشاء ، وكانت ليلى تنتظره فى الصالة •

وجلس محمود يخلع حذاءه العسكرى وهو يتوجع من طيلة وقـــوفه على قدميه •

وقالت ليلى :

ـ ايه الأخبار •• ؟

وتألقت الفرحة فى عينى محمود ، وفتح فمه ليتكلم ، ولم يتكلم ، قلب يديه وهو يعلن عن عجزه عن التعبير عما يعتمل فى نفسه من مشاعر ثم تنهد فى ارتياح وهو يقول :

ـ الدنيا بخير يا ليلى •

وارتخى محمود فى جلسته وهو يحكى لليلى :

ـ ولد عنده ١٢ سنة ، جه فى مركز التدريب وعايز يدرب ، قلت له : أنت صغير ، بص لى وقال : أنا كبرت اليومين اللى فاتوا •

ودق محمود بيده على مسند المقعد وهو يستطرد فى كلامه :

ـ وأدركت انه مش هو بس اللى كبر ، كلنا كبرنا اليـــومين اللى فاتوا ، كلنا من غير استثناء •

وغلى الماء فى الوعاء وأسقطت سناء السباجتى ، وضاعفت الشعلة تحت الوعاء •

والتفتت ليلى بحركة لا ارادية الى التليفون ، وغزاها شعور من الخجل لأنها لم تواجه أباها ولم تواجه رمزى ٠

واستأنف محمود كلامه :

ـ البلد بقت معسكر كبير ، معسكر بيغلى ، والقطر بيوصل كل ساعة ، وبيوصل مليان متطوعين ٠

وتهلل وجه ليلى ٠٠

وانحنى محمود ، وأمسك بحذائه ، وقام واقفا وهو يقول :

ـ عارفه مين وصل النهارده ٠٠ ؟

واحمر وجه ليلى وقالت :

ـ حسين ٠٠ ؟

ـ أبدا ، حسين فى سينا ٠

ـ أمال مين ٠٠ ؟

ـ خمنى ٠٠

وضحكت ليلى وهى تخفى اضطرابها ، وقال محمود فى انتصار :

ـ عصام ٠٠ ؟

ـ مش معقول ٠٠ !

ـ هو أيه اللى مش معقول ٠٠ ؟

وقالت ليلى :

ـ وخالتى ؟ خالتى ازاى تسيبه ٠٠ ؟!

وقلب محمود يديه ، وبهما فردتا الحذاء ، ومط وجهه وهو يظهر تعجبه بطريقة مسرحية مبالغ فيها ٠

وانفجرت ليلى ضاحكة ٠٠

وهز محمود رأسه هزة خفيفة ، وكأن شيئا قد حدث ، شيئا عجيبا لا يستطيع تصديقه ولا تفسيره

وسار من جديد فى اتجاه حجرته ، وعندما وصل الى الباب استدار يواجه ليلى وهو يقول فى صوت ناعم :

– مش قلت لك يا ليلى ؟ اننا كبرنا ..

وكاد محمود يهمس وهو يقول :

– دى المعجزة يا ليلى ، المعجزة ..

ودقت صفارة الانذار من جديد ..

* * *

ويوما بعد يوم تضاءلت الفترة بين الانذار والانذار حتى انعدمت ، وتوقفت صفارات الانذار ، وتحولت الغارات الى غارة متصلة .

والمدافع المضادة للطائرات تنفجر تكاد تنصهر ، وخلف المدافع احتشد الناس يهللون .

وصرخ رجل عجوز أبيض الشعر يقف بين الجموع خلف بطارية الجمرك :

– شد حيلك يا محمد .

وسقطت طائرة محترقة تهوى الى البحر .

وانخفضت طائرة فجاة حتى كادت تلمس رءوس الواقفين ، ووجهت نيران مدفعها الرشاش الى المدفعجى .

وطوى محمد نصفه الأعلى على بطنه متأوها .

وقفز جندى من خلف محمد ، يريد أن يحتل مكانه .

واعتدل محمد فى جلسته ، وبيدين غارقتين فى الدم أطلق مدفعه على الطائرة قبل أن تختفى .

وزحف الى الخلف مخليا مكانه لزميله ، وتمدد على ظهره وعيناه عالقتان بالطائرة المحترقة .

وحين وصلت الطائرة الى البحر ، ابتسم محمد ابتسامة واهنة ، وأغلق عينيه ..

* * *

وبعد خمسة أيام سكتت المدافع .

وبدأت الطائرات تدك المدينة ، والناس يدفنون موتاهم ، ويضمدون جرحاهم وينتظرون .

وحين نزل جنود المظلات في الجميل وفي الرسوة وفي بور فؤاد ، وجدوا الناس ينتظرون ..

وأصبح من الواضح أن المعركة قد بدأت ، وأنها قد اتخذت طابعا جديدا ، يتحتم معه ترحيل من تبقى في بور سعيد من نساء وعجائز وأطفال ..

وكانت كل الطرق المؤدية الى خارج بور سعيد مقفولة ، فيما عدا طريق واحد .

٢٦

الساعة الحادية عشرة صباحا واليوم يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، والغيوم تلبد السماء ، غيوم كثيفة غبراء ، والشمس تتسلل من بين الغيوم تشق لنفسها ثغرات زرق يخالطها البياض .

والغيوم تلف بحيرة المنزلة بوشاح أغبر رمادى ، وعلى سطح البحيرة ترتجف ظلال سوداء ، ظلال مراكب صغيرة وكبيرة ، مراكب مليئة فوق طاقتها وأخرى لم تمتلىء بعد ، وظلال ناس يعبرون المرسى الى المراكب وهم محملون بأمتعتهم ، وظلال ناس ترتمى على الشط وتدفن وجوهها فى الماء تروى عطشا لا يرتوى ، وظلال ناس على الشاطىء ينتظرون .

وعلى سطح البحيرة انطبع ظل فتاة طويلة ممشوقة وهى تعبر المرسى بخطوات متثاقلة ، تتقدم الى البحيرة ويداها تلتفان فى حنان حول لفة سويت فى عناية . وتوقفت الفتاة بغتة ثم استدارت وعادت تجرى الى البر وهى تصيح :

— عادل ، عادل .

وصاحت أم الفتاة تناديها من المركب :

- فايزه ، فايزه •

ولكن فايزه لم تستجب لنداء أمها ، شقت لنفسها بصعوبة طريقه وسط مئات من الأطفال والنساء والعجائز الذين يصطفون على الشاطىء وكادت تصطدم بطفل يفتح عينيه على اتساعهما وكأنهما تحرقانه •

ونظر اليها الطفل نظرة واعية مستنكرة وكأنه يقول :

- مستعجله على أيه ؟ فيه أيه الواحد يستعجل عليه ؟

وكأنه شيخ هرم وكأنه كبر فجأة ولم يعد طفلا ، كبر من الهول الذى رآه ، خلال خمسة أيام بلياليها •

وربتت فايزه على كتف الطفل فى ارتباك ومضت تجرى تشق طريقها بين الجموع وهى تصيح لاهثة :

- عادل ، عادل

واستدار شاب فى ثياب المقاومة الشعبية ، كان قد أعطى ظهره للمسافرين ، وعاد وهو يجرى فى اتجاه فايزه •

ووضع يديه على كتفيها ووقف تجاهها ينظر فى عينيها دون أن يتكلم ، واستجمعت هى أنفاسها ثم أخذت تلوك فمها بلسانها وهى عاجزة عن التعبير عما فى نفسها • وكزت بأسنانها على شفتها السفلى وقالت بصوت هامس :

- أنت حاتيجى ، مش كده يا عادل ؟ حاتيجى •

وعكست عيناها أعماقا من الحزن ، وكأن حزن هؤلاء النساء اللاتى يعبرن المرسى الى البحيرة وقد تركن على البر أبناءا وأزواجا ، وجثث أبناء وأزواج قد تجمع فى عينى هذه الفتاة التى لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها •

وابتسم عادل :

- مش أنا اللى حاجى ، أنت اللى حاتيجى يا فايزه ، احنا حانتجوز هنا فى بور سعيد ، بلدنا •

وتطلعت فايزة اليه فى خوف • والتقت عيناها بعينيه فى نظرة

طويلة ثم أشرق وجهها المليح بابتسامة حلوة استقرت لها نغازتان في خديها ، ولمعت عيناها بأمل حلو ، وكأن يدا مسحت الرؤيا المخيفة التي عاشتها خمسة أيام · وكأنها لم تعد ترى الا نفسها وعادل يمرحان كالأطفال على شاطئ بور سعيد الذهبي ، وهي تجرى وعادل يلحق بها ويقبل مؤخرة عنقها ، والشمس تدغدغ جسمها وتتراقص كقطع الماس على صفحة البحر الزرقاء ··

البحر ؟! الشاطئ ؟! أين هما ؟! وكأنها لم ترهما منذ مئة سنة وكأنها عاشت دائما بين الحرائق والأشلاء ·

وغامت عينا فايزه ، واشتدت قبضتها على اللفة التي تحملها وكأنها تحميها من عدو يتربص بها :

- أمتى ؟ أمتى يا عادل ·· ؟

- حالا يا فايزة ، حالا يا حبيبتي ، ان دخل العدو حايدخل على جثتنا ، وان قعد يوم مش حايقعد التاني ·

واحتضنت فايزه اللفه في صدرها وقالت بصوت مكتوم ·

- عادل ، أنت ضروري تعيش ، ضروري يا عادل ·

وقال عادل وهو يخفي انفعاله تحت ستار من الاستخفاف :

- ما تخافيش يا فايزه ، عمر الشقي بقي ·

ولم تضحك فايزه ، قالت وهي تهمس :

- توعدني ، توعدني يا عادل

وقال عادل في لهجة نصف مازحه :

- أوعدك يا حبيبتي ··

واختلطت دموع فايزة بابتسامتها ، ومن خلال دموعهما ملأت عينيها بصورة حبيبها ، وداخل الاطمئنان قلبها ·

ان عادل وعدها ، وعادل لم يكذب أبدا عليها ، عادل سيطرد الأعداء · عادل والآلاف من المصريين الذي رأت شجاعتهم بعينيها · الم يبيدوا رجال المظلات في بور فؤاد والجميل ؟

ستعود ، ستعود حتما الى بلدها والى بيتهـــــا ، الى البحر والى الشاطىء ، ستعود الى عادل ومع عادل ستعيش ، ستحيا ويحيا عادل ان هذا حقها وحق عادل ، ولا يمكن أن يســـمح الله لأحد أن يسلبها حقهما فى الحب ، وحقهما فى الحياة •

وقال عادل فى صوت هامس :

ـ أوعدك يا فايزة أنك حاترجعى بور سعيد وان الناس دول كلهم حايرجعوا بورسعيد

وطافت عينا عادل بالشاطىء •••• كانت المراكب التى امتلأت بالركاب تفرد قلوعها ، واللنشات تدير آلاتها استعدادا للرحيل ، وأمام المرسى لنش أبيض صغير خـــال من الركاب الا من امرأة ذات ضفيرتين تلبس السواد وتحتضن بين ذراعيها طفلا نائما لا ترفع عينيها الخائفتين عنه ، وكأنها تستمد قدرتها على الحياة من وجوده هكذا نائما على صدرها ، وكأنها لاتشعر بوجودها الا من خلال وجوده •

وحزن يسود المكان ، حزن رقيق كالماء الرقراق يخفف من لوعتـــه أمل فى الخلاص وفى اللقاء • وفى سرعة وبلا صوت الا صوت القبلات وعبارات مع السلامة تتردد من الأعماق ، يمتلىء المزيد من المراكب واللنشات ، وعلى المرسى أم تنتزع فى ألم ابنها الذى تعلق بعنق أبيه، وابن يحمل امه العجوز ، وجريح مربوط الساق يتكىء على كتف امرأة •

وعلى الشاطىء لم يتبق الا عدد قليل من الناس • يقفون جماعات ، ورجل عجوز يفترش الأرض ويضع يده على خده وينتظر فى استسلام وفى استسلام تنساب الدموع من عينى فتاة حلوة ممتلئة الجسم وهى تقف مع فتاة رهيفة مطبقة الشفتين ، ومع شـــــابين فى ملابس المقاومة الشعبية • وقد ساد الصمت الأربعة ••••

وليلى لاتستطيع ان تمنع دموعها من الانسياب ، كانت تشعر بالهزيمة ، وكأن أحـــدا قد ضربها علقة حامية ولم تستطع حتى أن تصرخ فى احتجاج •

وقالت ليلى ودموعها تتجمع فى ركنى فمها ،

ــ ضرورى نسافر يامحمود ؟ مانقدرش نعمل حاجه ؟ نســـاعد فى حاجه ؟

وانحنى محمود يقرب الحقائب بعضها الى بعض ، ثم اعتدل وقال فى صوت مكتوم :

ــ احنا حانرجـــع للمناقشة دى تانى ، قلت لكم حاتعطلونا ، حاتزحمونا ، الست اللى عايزة تخدم صحيح تســـيب البلد للرجاله

وسعت عينا ليلى للالتقاء بعينى عصام ، ورأى عصام الرجـــاء الصامت الملح وأشاح بوجهه بعيدا ٠

وأطبقت سناء شفتيها فى غيظ ٠

وارتفعت صيحة نسائية تنادى من جديد ٠

ــ فايزه ، فايزه

وقالت فايزة

ــ ماما بتنادى

وقرب عادل فايزة منه وأخذها بين ذراعيه وقبلهـــا فى عينيها الواحدة بعد الأخرى ، ومسح على خدها بشفتين مرتجفتين ، ثم أطلقها وهو يقول

ــ مع السلامه ، مع السلامه يا حبيبتى

وتشبثت به فايزة فى جنون

وقال عادل فى حزم متكلف

ــ مع السلامه

وهمست فايزة

ــ مش عايزه أسيبك ياعادل ، مش عايزه أســـيبك لوحـــدك ٠

وقالت سناء وصوتها يرتجف ٠

ــ واسمعنى أنت اللى حاتفضل هنا لوحدك ٠

ورد محمود فى عنف أشد مما يستدعيه الموقف

ـ أنا راجل ..

ثم أضاف فى لهجة أرق

ـ أظن احنا انتهينا من مسألة السفر دى ياسناء

ونظرت اليه سناء فى عتاب والدموع تلمع فى عينيها ... منذ أن تزوجا قاسمته كل دقيقة من حياته ، كل انفعالة وكل تجربة ، فلماذا يريد أن ينفيها ، أن يعزلها ؟ .

وفتحت سناء فمها لتتكلم ومدت يدها لتؤكد كلامهـــا ، ولكن الكلمات جمدت على شفتيها وبقيت يدها معلقة فى الهواء ...

وارتفع صوت نسائى يئن بالرعب والهلع

ـ فايزه ، بنتى ، بنتى

ومن علو شاهق انخفض سرب من الطائرات المعادية وعلا أزيزها وهى تقترب من البحيرة .

وهمست ليلى وكأنها تصلى

ـ مش ممكن ، مش ممكن ياربى ، مش ممكن

وجاء جواب تساؤلها فى نظرة محمود القلقة التى ارتفعت الى السماء

وارتعدت يدا عادل على جسد فايزة وقال والقلق يتسلل الى صوته

ـ اجرى ، اجرى يافايزه

وابتسمت فايزة فى اطمئنان وهى فى حضنه وقالت

ـ ولايهمك ، أهم طول النهار بينبحوا زى الكلاب المسعورة

وارتفع صوت أم فايزة من جديد هالعا مسعورا .

وقبلت فايزة عادل من جديد وهى تقول

ـ استنانى ياعادل استنانى

واستدارت تجرى فى اتجاه البحيرة وعادل يرقبها ، وهى تتلفت مابين الحين والحين ، ووجهها يشرق بابتسامة جميلـة ويدها اليسرى تلوح لعادل ويدها اليمنى تنطوى فى احتراس على اللفة التى تحملها

وبدأت فايزة تعبر المرسى ، واستدارت هذه المرة اســتدارة كاملة وهى تلوح لعادل التلويحة الاخيرة ٠٠٠

وانكفأت فايزه على وجهها وانحلت اللفة التى تحملها ٠

ورفعت المرأة ذات الضفرتين عينيها الخائفتين عن الطفـــــل الذى تحمله وتطلعت الى السماء ، وصرخت صرخة مدوية ملتاعة مجنونة وهى تلوح بيديها ٠

واضطرب سطح البحيرة بدوائر واسعـــة تتخللهـــا الفقاقيع وبصرخات ، صرخة بعد صرخة ، وصرخة فوق صرخة ، وكأن جبلا من الصرخات ينتفض من الأرض آلى السماء ، والصرخة قصيرة لاتستغرق ثوانى ، ولكنها مشحونة بالعمر كله ، بالرعب ، بالرغبة الجـارفة فى الحياة ، باليأس الموجع من الحياة ، بالثورة ، بالحب ، بالكراهيـة ، بالاستسلام، بكل أطياف الماضى وبوارق ماكان يمكن أن يكون مستقبلا٠

ولم يعد أحد يرى شيئا ٠ تفجرت الأرض وهبت منها عاصـــــفة كثيفة من ذرات التراب حجبت الرؤية ٠

وانسحبت الطائرة خفيفة بعد أن القت حمولتها على ناس كانوا فى البحيرة وناس كانوا على شاطىء البحيرة

وانقشع التراب ليحل محله دخان أســـــود لزج مختلط برائحة الشواء ، دخان ينبعث من نار تتأجج على سطح البحيرة فى مساحات كانت تشغلها مراكب مليئة بالناس ومراكب خالية من الناس ٠

ثم هـــدأت الصرخات واتضحت الرؤية ، وشـيئا فشيئا ضاقت الدوائر التى خلفها الغرقى على سطح البحيرة حتى استوت ٠ وعاد الماء كعادته يتموج فى سكون وعلى سطح الماء بقايا أخشاب محترقة ، ودمية من مطاط خلفتها صبية ، دمية مقفلة العينين تهتز فى رتابة وتبتسم ٠

* * *

ولم تشعر ليلى بشىء ، سوى أن الأرض اهتزت هزة عنيفة وكأن

بركانا قد تفجر تحت قدميها وأن شيئا ما قد ألقاها أرضا • وفقدت ليلى الوعى وهى مدفونة تحت كوم من التراب •

وعندما بدأت تفيق ، وقبل أن تستجمع كل وعيها خيل اليها أنها ماتت وأنها مدفونة وأن هذا التراب الذى يملأ خياشيمها ويثقل جسدها هو قبرها • وامتلأ كيانها برغبة فى الاسترخاء ، فى الضياع والاستسلام •

ولكن شيئا ماكان يحول بينها وبين الاستسلام ، أنين متقطع يصدر من هنا ومن هناك ومن كل مكان وكأن الكون كله يئن من حولها يهزها المرة بعد المرة ، ويحول بينها وبين الضياع •

والآن لم يعد الأنين فقط هو الذى يهزها • فهى تستطيع أن تتبين أصواتا فزعة تنادى أسماء ، ومن بين الأسماء اسمها ، اسمها مختلطا بعشرات الأسماء •

والآن لم يعد صوت واحد هو الذى يناديها ، الكل يهزها ، الكل يحول بينها وبين الضياع •

وفتحت ليلى فمها لتصرخ ، ولكن التراب انهال فى فمها ، وكاد يحول بينها وبين التنفس • وأطبقت فمها وأدركت أن عليها هى أن تنفض أكوام التراب التى تراكمت عليها ، وأن تشق طريقها وحدها الى الحياة •

واستندت على يديها وبدأت تزحف ، خطوة بعد خطوة وكأنهاتحمل أطنانا من الحديد ، والتراب فى فمها وفى أنفها ، وتنفسها يضيق أكثر وأكثر ، وصدرها يحترق ، وأطرافها تتثلج وشىء ما يشدها الى الأرض ، شىء غير ثقل التراب ، شىء لين هين لزج يدعوها الى الاسترخاء •••• دقيقة واحدة وينتهى كل شىء •• دقيقة واحدة ولا تشعر بشىء •• تنام ••

ولكن الأصوات عادت تناديها وتلح فى النداء ، كل الأصوات • الكل يناديها ، الكل يستنهضها ويحول بينها وبين الاستسلام ، وشىء ما بداخلها يستجيب للنداء ، شىء ينتفض فى داخلها كالعملاق ، شىء جديد مثير لا يتخلى عنها أبدا ، شىء أقوى من النار التى تحترق فى

صدرها ومن الثلج الذى يرتجف فى أطرافها ، أقوى من الاسترخاء ، من التراب ، من الموت ..

وانتفضت ليلى واقفة ، وغشى النور عينيها فأغمضتها ويداها تتحسسان جسدها . وأدركت أنها خرجت من المذبحة سليمة .

وفتحت عينيها وقد اعتادتا النور ثم أطبقتهما فى الحال وجرت بعيدا وهى تترنح وكأن أحدا قد طعنها من الخلف بسكين .

وكفت عن الجرى ووقفت لحظة مترددة ، ثم استدارت تواجه المكان . والتقطت عيناها الصورة كاملة ، ثم بدأتا تتركزان على كل تفصيل ، فى بطء وفى تمعن وكأنها تخشى أن يفوتها شىء ...

فى اضطراب وذهول يجرى الأحياء ، يخوضون الدم ويصطدمون بالأشلاء ، أذرع وسيقان وأمعاء ممزقة وجماجم متفجرة . والأحياء يدوسونها ويجرون ، يقلبون جثث الموتى ويطلون فى وجوه الجرحى .

ولم يعد أحد ينادى الآن .. الموتى لايجيبون والجرحى أضعف من أن يجيبوا سوى بالأنين .

وبعض الأحياء كفوا عن البحث ، جاءهم رد النداء .

هذا الرجل الذى ينكفىء على جثة زوجته وولديه جاءه الرد .

وهذا الرجل العجوز الذى يجلس على حافة الشاطىء يبنى كوما من التراب بوجه جامد ويداه لاتكفان عن تسوية التراب ، وكأن كيانه كله رهين ببقاء هذا الكوم سليما لا ينهار ، هذا الرجل العجوز جاءه رد النداء

وهذا الشاب الوسيم الذى يلبس ثياب المقاومة الشعبية ، ويطوى فى عناية ثوب زفاف أبيض ملطخ بالدم والتراب ، جاءه الرد .

ماذا كانت تسميه هذه الفتاة الحلوة ذات الغمازتين ؟ ماذا كانت تسمى ذلك الشاب الذى تحترق عيناه بلا دموع ، وكأنهما امتلأتا فجأة بالحصى ؟ عادل . هكذا كانت تسميه الفتاة الحلوة المشرقة ، ذات الشعر المرسل والغمازتين . كانت تتراقص بفرحة الحياة ، والموت يحلق فوق رأسها ، لم يدر الموت أبدا بخيالها ، لم يتسع خيالها لسوى الحب ، حب عادل وحب الحياة . وراحت أشلاء ، ولم يتبق لعادل سوى ثوب زفاف أبيض ملطخ بالدم والتراب ، ثوب زفاف يطويه عادل فى حنو ، وكأنه

يربت على شعر حبيبته ، وكأنه يهمس فى أذنها بشىء ويعدها بشىء . وينتفض واقفا .

وهذه الأم ذات الضفيرتين التى تقف متشحة بالسواد والماء يقطر من ثوبها ، أين ابنها ؟ .. كان يرقد على صدرها ، وكانت تحميه بذراعها فماذا حدث ؟! ولماذا لا تنادى ابنها ، ولماذا يقبض هذا الرجل على ذراعها ويحول بينها وبين الحركة ؟!

جواب ندائها فى البحيرة ، فى أعماق البحيرة ، ولا خوف فى عينيها ولا انتظار ، لم تعد تخشى شيئا ولا تأمل فى شىء . ماتت وهى تقف بجانب هذا الرجل الذى يحول بينها وبين الانطلاق الى البحيرة .

وانطلقت صيحة فرح من محمود وهو يتحسس جسد ليلى وتمتمت سناء بشىء وانفرطت دموعها وقال عصام :

ــ الحمد لله ، الحمد لله ..

وبقى وجه ليلى جامدا .. وخطر ببالها أنها لم تحاول من قبل أن تتحقق من سلامتهم ، وكأنها نسيت وجودهم فى غمرة الآلام من حولها ، آلام الكل ..

وانضمت ليلى الى بقية الأحياء فى مساعدة رجال الاسعاف على نقل الجرحى ...

فى سكون وبلا صوت انتقل مزيد من الجرحى من المحفات الى عربات الاسعاف .

ولم يعد أحد ينوح ، حتى المرأة العجوز ذات الشعر الأبيض لم تعد تنوح ، كانت دموعها تسيل بلا صوت ، وكأن ما حدث قد استنزف قدرتها على النطق ..

ولم يعد أحد يبحث بين الأشلاء ، يقلب جثث الموتى ، ويطل فى وجوه الجرحى ، سوى طفلة سمراء فى السابعة من عمرها ، ما زالت تجرى والأمل يحبس دموعها ...

ومرت ليلى بمحمود وهو يضمد جرح طفل يسيل الدم من صدره فى غزارة ، وركزت عينيها عليه ، وحاولت أن تشعر بشىء من العزاء لأن أخاها أفلت من الموت . وهمست وهى تردد : محمود حى ، حى .

ومسحت ليلى حبات من العرق تجمعت على جبينها وانحنت تسند الى صدرها امرأة شابة فقدت ساقيها ، ورفعتها الى المحفة بمساعدة رجل من رجال الاسعاف ، ثم مالت عليها تغطيها بملاءة بيضـــاء ، والتقت عيونهما لحظة ٠٠٠

واعتدلت ليلى وفى كيانها ألم ، ألم يستعصى على العزاء ، ألم لايخفف منه نجاة محمود شيئا ، ولا يضيف اليه موت محمود شيئا ، ألم الشابة التى فقدت ســـاقيها ، والأم التى تتحرق شوقا الى ميــــاه البحيرة ، والرجل العجوز الذى يبنى قصرا من الرمال على الشاطىء ٠

وسارت ليلى وهى تحمل طرفا من المحفة فى اتجاه عربة الاسعاف ، وحين مرت بعادل كان يلقى برأسه الى الخلف وهو يهـــوى بفأس على الأرض يحفر قبرا لخطيبته ٠

ووقفت ليلى لحظة تنظر اليه مبهوته ٠٠ كان الضوء الذى انحبس فى الحفرة ينعكس فى عينيه ، وفى هاتين العينين رأت ليلى نظرة أرسلت الرعدة الى جسدها ، نظرة لن تنساها ولو عاشت مئة سنة ٠

وتقدمت ليلى الى الأمام ، وأقفل رجل الاسعاف الباب خلف الشابة الجريحة ، وتحركت العربة تاركة خلفها المكان ، وعادت ليـــلى تخوض الدم ، وتصطدم بالأشلاء وتحمل الجرحى ٠

وأدركت فجأة انها قد تجاوزت مرحلة الألم ٠ لم تعد تتألم ، لم تعد تعيش فى الحاضر الا بجسدها الذى ينحنى ويعتدل ثم يتقدم ويعـــود لينحنى من جديد ٠ ومع ذلك يبدو ذلك الحاضر الذى تعيش فيه بجسدها طويلا وكأنه العمر بأكمله ، طويلا لا ينتهى ، وهى تريد له أن ينتهى ، تريد أن تفرغ من كل هذا ، وأن تعمل شيئا ٠

واستدارت عربات الاسعاف مليئة بحمولتها الواحدة بعد الأخرى ولم يتبق الا عربة واحدة ٠

وانحنى عادل وأسجى حبيبته فى الحفرة وبقى منحنيا عليها لحظة ثم استقام وبدأ — فى بطء — يهيل عليها التراب ٠

وأسرعت يد الرجل العجوز تسوى فى رتابة وحرص كوم الرمال الذى بناه ٠

وتململت المرأة ذات الضفيرتين فى جلستها ولكن رفيقة لها ثبتها فى الأرض وهى تهمس فى أذنها بشىء ..

وعلى سطح البحيرة تموجت دمية مغلقة العينين تبتسم .

ولهثت الصبية السمراء وهى تجرى بين الجثث والأشلاء ، وتكشف عن وجوه الجرحى على المحفات . وبدأت نظراتها القلقة تتوزع بين الجرحى وبين عربة الاسعاف ، وكأنها أدركت أن أملها مرتبط ببقاء العربة فى هذا المكان .

ودخل آخر جريح عربة الاسعاف ، ووقفت الطفلة السمراء متسمرة بلا حراك ، وعيناها على العربة .

* * *

وانضمت ليلى الى سناء وعصام وقال محمود :

ـ أنا رايح المستشفى ، وأنت وصلهم البيت يا عصام ، بعدين نبقى نشوف طريقة تانية ، يقدروا يسافروا مع الجرحى .

وبخطوات ثابتة اقتربت منه ليلى حتى حاذته وقالت :

ـ أنا مش مسافرة يا محمود .

ونظر اليها محمود فى استغراب ، عندما تكلمت بدا له صوتها غريبا وكأنه ليس صوتها ، وكأن انسانا آخر هو الذى تكلم . والطريقة التى تكلمت بها طريقة غريبة هى الأخرى . نبرة صوتها ليس فيها استعطاف ولا تهديد ولا غضب ولا ثورة ، انها نبرة غريبة على ليلى ، نبرة لم يسمعها قط منها أبدا . انها نبرة تقرير .

وقابلت ليلى نظرته لحظة ثم أشاحت بوجهها عنه بلا اهتمام ، وركزت نظرها على الأفق البعيد .

وشعر محمود بالألم ، لقد نظرت اليه وكأنها لا تعرفه ، وكأنها لاتنتمى اليه وكأنه ليس أخاها
نظرت اليه وكأن شيئا لم يعد يربطها به ، لا رباط الأخوة ولا العائلة ، ولا شىء ، لا شىء على الاطلاق .

وانزاحت نظرة محمود عن ليلى فى ألم واستقرت على سناء ، وأشاحت سناء بوجهها عنه • ثم قالت وكأنها خشيت اغضابه :

- على العموم أنا جايه دلوقت المستشفى ، وبعدين نبقى نفكر •

ثم أضافت فى سخرية مرة :

- أظن حاتحتاجوا لممرضات •

وطافت نظرة محمود بمرسى البحيرة ، وعادت تستقر على ليلى • وأدرك اذ ذاك فقط أن نفس الشيء الذى حدث له أثناء معركة الفدائيين فى القناة ، قد حدث لها • لقد خرجت من دائرة العائلة ، من دائرة الأنا الى دائرة الكل • وما من أحد يستطيع أن يوقفها الآن •

وبدت له ليلى وهى تقف هكذا متباعدة ، أطول مما هى وأقوى •

وقبل أن يستدير ليركب عربة الاسعاف ، مد يده ليربت على كتفها • وبدلا من أن يفعل ذلك ، وجد نفسه يصافحها ، مصافحة الند للند •

وعندما همت سناء باللحاق بمحمود ، توقف وأفسح لها الطريق • وأغلقت سناء خلفها باب عربة الاسعاف فى رفق ومضت العربة فى طريقها •

وشقت السكون صرخة مدوية مجلجلة ، وراحت الطفلة السمراء تجرى بلا هدى وهى تنادى :

- أمى ، أمى ، أمى •

والنداء اليائس المفجع يتكرر وكأن الكون بأجمعه يردده •

وانتفضت المرأة ذات الضفيرتين وكأنها أفاقت من كابوس ، وخلصت نفسها من قبضة المرأة المكلفة بحراستها وانطلقت تجرى • وعند شاطىء البحيرة لحق بها رجلان ، واستماتت فى وحشية وهى تخلص نفسها من قبضتيهما •

وعندما وطأت البحيرة بدأت تنادى ابنها ، وتوغلت فى الماء وصوتها يردد النداء ، وعندما وصل الماء الى عنقها كانت ما تزال تناديه بصوت رقيق وكأنها تغنى ، وكأنها تهنن ابنها على صدرها •

ولم يعد الكون يردد سوى صـــوت الطفلة تنـــادى أمها ، والأم تنادى ابنها .

وانهارت الطفلة مكومة على الارض .

وغابت الأم فى البحـيرة وهى تصرخ صرخة مزغردة ، فرحـــة ، منتصرة ، مجلوة .

وانهار الرجل العجوز فوق كوم الرمال وهو ينشج والدموع تتجمـع فى ذقنه البيضاء .

وعاد سطح البحيرة ساكنا ، وعلى السطح دمية مغلقة العينين تهتز فى رتابة وتبتسم .

وعندما استدارت ليلى لتلقى نظرة أخيرة على المكان ، كان عادل قد سوى التراب على قبر حبيبته .

٢٧

ومن خلف القبور ارتفعت الرؤوس ، واســتقرت الأيدى فى تحفز على المدافع الرشاشة والبنادق .

ولكن اشارة البدء لم تأت بعد .

والطائرات تلقى بمزيد من جنود المظلات خلف سور المطار ، والمظلات تتكور ، مظلة بعد مظلة ، بيضاء كالخراج الملىء بالقيح .

والقوات المعسكرة بالموقع الدفاعى فى منطقة الجبانة تتململ ، والأيدى ترتجف على البنادق والمدافع فى غيظ ، واشارة البدء لم تأت بعد .

ومئات الأعين القلقة تنتقل بين القائد وبين المظلات التى تنفرج من الجو ، والقائد يشعر بوطأة القلق من حوله ، ويكاد يسمع السؤال الصامت الذى يختنق به الجو .. الســؤال الذى يردده أفراد المقاومة الشعبية ، وحتى جنود الجيش المدربين الذين اعتادوا اطاعة الاوامر دون سؤال .

ماذا ننتظر ؟

وينتظر القائد دون أن تتحرك خلجة فى وجهه

ومسحت ليلى بيدها حبات من العرق تجمعت على جبينهـــا وقالت لعصام فى همس :

ـ احنا منتظرين ايه ؟

ومد عصـــام يدا مرتجفة وربت على يدها وهو يبتسم لهــا ابتسامته الخجول غير المكتملة ٠

وشعر كل منهما أنه قريب من الآخر ، وكأن الانتظار الذى يرتجف فى أعماق كل منهما قد أزال الجفوة التى قامت بينهما ، حين فرضـــت ليلى نفسها فرضا على عصام وتبعته الى نقطة حراســـته ٠ وأحرجتــه أمام قائده ٠

وتململت ليلى فى قلق ، والخوف يدب اليها ٠٠٠

لم يكن الموت هو الذى يخيفها ، لم يعد الموت يخيفها ٠٠ من هى ؟٠٠ قطرة فى بحر ، والبحر مواج بها ومن غيرها ٠ وان ماتت فهى واحدة من الآلاف الذين ماتوا ، وان عاشت فهى واحدة من الملايين الذين اغتصبوا حقهم فى الحياة ٠ لا ، ليس هو الموت الذى يخيفها ، ولا العـــدو الذى يستتر خلف سور المطار ٠ ان عدوها الرئيسى يرقد هنا ، فى أعماقها : ضعفها ٠ وأغمضت عينيها ، وأحكمت اقفـــال فمها حتى لا تتســـلل اليه الرعدة ٠

وشعرت ليلى برغبة جارفة فى أن ترقب مرة أخرى الناس من حولها وأن تشعر من جديد أنها جزء منهم ٠ واعتدلت فى جلستها خلف القبر الذى تحتمى به ، ورفعت رأسها فى احتراس وأمام عينيها امتدت رؤوس مغطاة بالخوذات ، ورؤوس عارية ٠ رؤوس يختلط سوادها بالبياض ورؤوس شابة ٠

وارتخى جسدها وهى ترقب هذه الكتلة الضخمة المتراصة الممتـــدة من الرؤوس ٠ واستدارت وخلفها امتدت وجوه جامدة ، ووجوه هادئة صفوف متراصة متكتلة من الوجوه ٠

وتوقف تنفس ليلى عندما استقرت عيناها على وجه من الوجوه ٠

وانبعثت فى خيالها صورة عادل وهو يحفر قبـــر حبيبته ، يلقى برأسه الى الخلف ، وفى عينيه النظرة التى لن تنساها أبدا ، نفس النظرة

التى تراها فى عينى هـذا الرجل الذى حسبته عادل ، نفس المزيج من الحب ، من الكراهية ، من التحدى ، من الاصرار • من الاعتداد الواثق المطمئن •

وتنهدت ليلى فى ارتيـاح ، وعادت عيناها تطوفان بالوجوه ، وجها بعد وجه ، وفى مختلف الوجوه رأت شيئا فاتتها رؤيته من قبل ، نفس النظرة التى رأتها فى عينى عادل •

واستدارت ليلى تنظر الى الامام وهى منتشية ، وشعرت أنها قوية • لم تعد وحيدة ، انها معهم الآن •

معهم ، ومعها الحب الذى يضطرم فى قلوبهم والكراهية ، وشـيئا ما من ذلك الاعتداد الواثق المطمئن •

وانبعثت أمام ليلى صورتها وهى تنحنى لتنتشل المجداف الغارق فى النيل •• نعم ، فى اللحظة المناسبة ستدفع الانسانة الأقوى الكامنة فى أعماقها الباب ، وتخرج لتتصرف فى هدوء وبرود وحكمة ، كما يجب أن تتصرف تماما • نعم ، فى اللحظة المناسبة ستحدث المعجزة •

واغرورقت عينا ليلى بالدموع وكأنها ترقب رؤيا جميلة •

ورأى عصام الدموع فى عينيها وأرجعها الى الخوف وقال :

ـ ارجعى يا ليلى ، الباب قريب ، ازحفى لغاية الباب •

وازداد صوته نعومة وهو يهمس :

ـ انت ست ما حدش حايلومك ، ودا مش مكانك •

وشعرت ليلى بالدوار الذى يشعر به من يتطلع الى أسفل ، من مكان شاهق الارتفاع ، وفى أعماقها ارتجف العجز من جديد •

هل تستطيع ؟ هل تصمد ؟ وهى امرأة ، امرأة لا غير • ومن أين لها القوة ؟ من أين ؟

وبدأت طائرات العدو تنزل فوجا جديدا من رجال المظلات داخـل أرض المطار ، فى متناول نيران قوات الدفاع المعسكرة فى منطقة الجبانة •

وفي نفس الوقت بدأت الريح تعوي وتصفر وتهب هبات عنيفة غاضبة وتنشر فى الجو ستارا أصفر من ذرات الرمال ، والطائرات تنزل حمولتها داخل المطار ٠

وحملت الريح جانبا من المظلات بعيـدا عن المطار ، بعيدا فى اتجاه منطقة مجاورة من المساكن الشعبية ٠

وأعطى القائد اشارة البدء ٠

* * * *

- اضربى - ادبله ٠

ارتجف صوت امرأة عجوز مقعدة وهى تنحنى تحد النظر الى الامام، وعلا عويل الطفل الذى تحمله بين يديها ٠

وارتفعت يدا امرأة فتية بقطعة ثقيلة من الحجارة ، وهوت بهـا على رأس جندى من جنود المظلات وهو يهم بالاستواء ، فسـقط على الارض مهشم الرأس ٠

ورفعت المرأة الفتية قامتها ، ومدت يدها اليسرى تمسح حبات من العرق تجمعت على جبينها ٠ وقبل أن تبلغ يدها جبينها اندفعت تجرى الى الأمام وهى تصرخ صرخة عالية مجلجلة ٠٠٠

لمحت مزيدا من المظلات تتساقط فى الفضاء كالخفافيش ٠

ووصلت الصرخة للنساء وهن داخـل أكواخهن يعـدن الطعام للأطفال ، وللأزواج وللأبناء قد يعودون ، وقد لا يعودون ٠ مع الصرخة ادراك أن الخطر الذى خرج له الأبناء والأزواج قد جاء يدق الباب ٠

وانفتحت أبواب الاكواخ الخشبية المتداعية فى عجـلة ٠ وخرجت النساء مسلحات بالسلاح الذى أعد من قبل ، لمواجهة هـذا الموقف : أعناق الزجاجات المكسورة والسكاكين والمطاوى وأيدى الهون ٠

ووصلت الصرخة العالية المجلجلة الى الأطفال وهم ينتظرون فى رهبة وفضول أمام كوخ يقف فى معزل ، بعيدا فى أقصى اليمين ٠

وتفرق الاطفال مذعورين ٠

وفى داخل الكوخ قفزت امرأة جالسة وقد ارتسم الرعب على وجهها٠

وانحنت بنصفها الأعلى على نصفها الأسفل حين داهمها من جديد ، الألم الذى ما يزال يداهمها منذ الصباح ٠

وتوقفت يدا القابلة على طرفى صفيحة مليئة بالماء المغلى ، كانت تهم برفعها من فوق موقد الغاز ٠

و اعتدلت القابلة وجرت الى الباب ووقفت لحظة تتطلع حولها ٠

وأنت المرأة التى تلد فى رعب ، والعرق يتساقط من جبينهـا على عينيها وقالت فى صوت مخنوق :

ــ فيه ايه ؟

وعادت القابلة الى داخل الكوخ بوجه جامد ، وأمسكت بخرقتـين ورفعت صفيحة الماء المغلى بين يديها ، وسارت فى اتجاه الباب من جديد في خطوات سريعة ثابتة ٠

وصرخت المرأة الشابة صرخة يأس موجعة ، وزحفت خلف القابلة ، والعرق يكاد يعميها ، وجسدها يتقلص تقلصات سريعة متتالية ٠

وعند عتبة الباب لحقت بالقابلة وتشبثت بسـاقها فى جنـون وهى تتمتم :

ــ ماتسيبينيش لوحدى ، ماتسيبينيش ٠٠

ولم تستطع الشابة أن تكمل كلامها ٠ داهمها الألم من جديد ، اقسى وأعنف وأحد ، ألم لا يطاق ٠ وشعرت بشيء صلب مستدير يكاد يطل من جسدها ٠ ودمدمت :

ــ أنا خلاص ، خلاص ٠

وأدارت القابلة رأسها وهى تقف على عتبة الباب ، ونظرت الى الشابه الممددة خلفها ، والتقت العيون لحظة ٠

وفى عينى القابلة رأت المرأة الشابة ما يحدث فى خارج الكوخ ، رأت الموت الذى يهددها ، ويهدد الحياة التى تنتفض فى أحشائها ٠

وارتخت يدا الشابة عن ســـاق القابلة ، وتكومت عـلى الارض وانفجرت باكية ٠

وخرجت القابلة من الكوخ ، والبخار يتصاعد من الماء المغلى •

ورفعت المرأة الشابة رأسها وتوقفت الدموع فى عينيها • وبدأت تزحف ، وفى احتراس تمددت على فراشها ، وسحبت ملاءة بيضاء ، وغطت جسمها •••

انها لم تلد من قبل ، ولكنها ستلد ، ستلد وحدها ، رغم كل شىء • الطفل فى بطنها ، وهو يريد الخروج ، وما عليها الا أن تساعده • يجب أن ترتخى لتساعده •

ولكنها لا تستطيع أن ترتخى •

صرخة رعب يصطك لها جسمها ، وعويل طفل ، وتهليل مكتوم ، وانتظار •• وخطوات تتدافع ونداءات مختلطة ، ودبيب أقدام على الأسطح وكأن خيولا تجرى ، وصوت المرأة المقعدة يرتجف فى الفضاء :

— اضربى — اديله •••

وأنين ، وعواء كلب ، ودخان أسود يتسلل الى الكوخ ، وماء يطش على النار ، وصرخات موجعة ، وسكون أقسى من الضجة •

وجموع تتدافع وتصطك بالجدران الخشبية ، وطلقات نار وصوت المرأة العجوز المقعدة يرتجف فى الفضاء ، وانفجار ضخم يهتز له الكوخ حتى يكاد يسقط على رأسها •• وانتظار أقسى من الانفجار •

ووجه الشابة الممددة على الفراش يتقلص ، وجسمها يتقلص ، وهى تعض على جانب من الملاءة البيضاء مكوم فى فمها ••• يجب ، يجب أن ترتخى ، والا سيموت الطفل فى بطنها •

وأخرجت المرأة الملاءة التى تكومت فى فمها ، ومسحت بها العرق الذى يبلل وجهها • وحاولت — بطاقة لا تستطيعها الا أم — أن تركز انتباهها فى الطفل الذى يهدده الموت فى بطنها •

وشيئا بعد شىء ، تلاشى العويل والأنين والنار والدخان والخطوات المذعورة ، وأصوات الرعب المستطيلة ، وأصوات الانتصار المكتومة ، تلاشى العالم الخارجى • ولم يعد فى وعى الأم ، سوى الطفل الذى يريد الخروج الى الحياة •

وبينما كان الأطفال يخرجون من مخابئهم ، والأطفال الكبار يجمعون المدى والسكاكين والحبال التى استخدمت لاصطياد جنود المظلات ، وبينما كانت النساء يجففن عرقهن وبرؤوسهن دوار ، وكأنما استيقظن فجأة بعد حلم مخيف ، وقبل أن يحسبن خسارتهن ومكاسبهن ، وقبل أن يدركن تمام الادراك ما قمن به ، دوت فى الفضاء صرخة ضعيفة متقطعة .

وما لبثت الصرخة أن اتصلت واستطالت ، قوية ، مجلوة مزهوة مزغردة ... صرخة الحياة .

★ ★ ★ ★

وصرخت ليلى صرخة مجلوة مزهوة مزغردة ، والكتل الآدمية تدفعها الى ارض المطار .

كان الفوج الثانى من جنود المظلات قد أبيد على أرض المطار ، وفلول الفوج الأول تتراجع أمام القوات المصرية .

والطائرات الانجليزية تحوم حول المكان حيث تلتحم القوتان ، ولا تستطيع أن تقربه ، فتنحسر عنه عاجزة .

وتتالى الانفجارات فى أماكن متفرقة من المدينة ، وتندلع الحرائق فى مستودعات البترول ، وفى البيوت وفى الشوارع .

والقوات الانجليزية تحاول الافلات من الحصار والعودة الى مخابئها خلف سور المطار ، والقوات المصرية تواصل الضغط تحول بينها وبين الافلات .

والأرض تتفجر ، وعواصف من رمال ، ونار تتأجج من المدافع ، وطلقات كالسيل تترك دوائر واسعة فى الرمال ، ودخان أبيض ، ونقط خضراء تلتمع أمام العيون .

وجثث تتساقط وجرحى وقتلى يسحبون الى الخلف ، وناس تتدافع تحل محل الجرحى والقتلى .

وبين القتلى عصام ، وبين الجرحى ليلى .

والحلقة تضيق على القوات الانجليزية ، وحلقة النار تضيق على المدينة .

والشمس توشك على المغيب ، والعتمة تتسلل الى المكان .

ونار كالنور تتأجج ، تحول بين الظلمة وبين الاستقرار ، وتكشف من بعيد عن العدو وهو يتقهقر .

٢٨

ولم يكن جرح ليلى جرحا خطيرا ، كان جرحا ظاهريا ، وبعـــد أن استخرجت الشظايا التى استقرت فى كتفها الأيمن بدأت تتحسن ٠

وفى البداية استغرق الألم كل حواس ليلى ٠ ألم لا عنف فيـــه ، ولا قسوة ، ولكنه ممض متواصل ، يملى وجوده عليهـــا بحيث لا تشعر بسواه ، ولا تفكر فى سواه ٠ وحاول طبيب المستشفى أن يحقنها بمخدر ليجنبها الالم ، ولكنها رفضت ٠ وكأن من الضرورى لها أن تمر بهـــذه المرحلة من الألم

وعندما بدأ الجرح يلتئم توقف الألم ٠

وكفيض طال كبته ، إنسالت أفكار ليلى والصـــور تتتهـــالى عليها وتتراكم ٠٠٠ وهى فى المعركة وطلقة تمر الى جانب أذنهـــا اليسرى ، وأخرى تصطدم بالأرض وسيل من الطلقات ينهمر ، ويترك فى الرمال دائرة واسعة ، والدائرة تضيق حولهـــا ، وكأن يدا غير مرئيـــة تحكم الدائرة على رقبتها ٠٠٠ وهى الآن تتراجع أمام أبيها وقد حمت عنقهـــا بيديها ورمزى يسد الطريق ويقول : « ما فيش فايده » ٠٠٠ وهى على السطح فى بيتهم تتطلع الى كتل الدخان الكريهة يوم حريق القاهرة ٠٠ وحسين يقول : « دى مش النهاية يا ليلى » ٠٠٠ وهى تتمشى على البحر فى رأس البر ، وحسين يمر بأصبعه على ذراعها ويهمس فى أذنهـــا : « أنا مستنيك يا حبيبتى ، طول عمرى مستنيك » ٠٠٠ وهى فى حجرتها فى رأس البر ، وقبضـــتها متشنجة على الباب المغلق ومحمود يصـــيح ، « مع السلامه يا حسين » ٠٠٠ وهى الآن تتدلى على السور وخيوط المصعد تجذبها الى أسفل ٠٠ والى أسفل يجذبها ثقل التراب وهى مدفونة فى مرسى البحيرة ، وتحت التراب تزحف ٠٠٠ على البلاط بعد أن ضربهـــا أبوها ٠٠٠ وهى الآن تنتفض واقفة تنفض عن نفسها التراب ، وحسين يقول : « عارفه حاتلاقى آيه ؟ حاتلاقى نفسك ، ليلى الحقيقيه » ٠٠٠ وهى تنحنى تعبىء بندقيتها بيدين ترتجفان ، وترفع رأسها فى احتراس ٠ وترى العدو الذى يحكم دائرة النار عليها ، تراه بوجهـه الملىء بالنمش وبشاربه الأصفر الكريه وتنتفض واقفة ، وتصـــوب ، وينطرح العدو على مدفعه الرشاش ، وتتكسر الدائرة ٠٠٠

كم عدوا قتلت ؟

فى البداية ، عندما كان الفوج الثانى ينزل بمظلاته على أرض المطار، كان من الصعب أن تقرر اذا كانت رميتها قد أصـــابت أو لم تصب • كان الجندى ينطرح على الارض والثقوب تملأ جسده ، وكأن الكل قـــد قتله •• وبعد ذلك •••

وقفزت ليلى جالسة فى سريرها وهى ترى العدو يتراجع أمامهــا ، امامها هى ••• ومدت يديها تحتضن كتفيها وهى تســكن فورة الحب والاعتزاز والاعتداد التى اجتاحت جسمها ••• وكل شيء حدث كما يجب أن يحدث تماما ، لم تخطيء فى شيء ، لم يفتها شيء ، قامت بما يجب أن تقوم به تماما •

وتمددت ليلى على السرير من جديد عنـــدما بدأ الجـــرح يؤلمها ••• ستعيش لترى العدو يتراجع نهائيا من بورسعيد ، ستكرس العمر كله ـ لو اقتضى الامر ـ لتراه وهو يتراجع أمامها ، أمامها هى •

وتنهدت ليلى فى ارتياح ، واستدارت شــفتاها فى ابتسامة عندما لمحت محمود يدخل الحجرة •

وقال محمود وهو يزيح الستار عن النافذة :

ـ هيه ؟ ازاى الحال النهارده ؟

وتدفق النور الى الحجرة وتمطت ليلى فى سريرها وهى تقول :

ـ عال •

ـ والألم ؟

ـ راح •

وجلس محمود على طرف السرير ، وأمسكت ليلى بيده وقالت :

ـ محمود ، أنا عايزه أخرج من المستشفى •

ـ مستعجلة على ايه ؟

وتطلعت ليلى الى الأمام وتألقت عيناها ببريق وهاج وهى تقول :

ـ ضرورى يا محمود •• ضرورى •

ـ انت متأكدة ان حالتك تسمح لك بالخروج ؟

ومالت عليه ليلى وهى تقول بصوت متهدج :

ـ أنا عمرى ماكنت أحسن من كده يامحمود ، عمرى ..

وتغلب محمود على دهشته وهو يقول :

ـ على العموم لما نشوف رأى الطبيب المعالج .

* * * *

وبعد أن خرج محمود حاولت ليلى أن تستعيد صورة أبيها وهو يتقدم نحوها بخطوات قصيرة كآلة مسلطة لسحقها ، وأن تسمعه وهو يصرخ بصوت مشروخ ويقول : عايزه ايه أنت كمان ؟

وفى أذنيها تردد صوته وهو يبكى كالطفل الخائف يوم بلوغها ، وفى خيالها انبعثت صورته وهو يميل على المائدة والدموع تلمع فى عينيه ووجهه وقد لان فى ابتسامة حنان .

وحاولت ليلى أن تستعيد صورة رمزى وهو ينظر الى صدر جميلة وعلى فمه تكشيرة كتكشيرة الحيوان المفترس ، ورأت وجهه وهو يحمر تحت نظرة جميلة كوجه صبى مراهق . وحاولت أن تتصوره كما كان يبدو لها دائما فى الفصل جبارا عتيا ، ورأته وهو يمد يده يجفف عرقه فى عز البرد ...

وهى الآن تقف أمام مكتبه ، تواجهه فى تحد ، ويده ترتجف على حافة المكتب ... وشفته ترتجف وهى تميل تجاهه فى حجرة الجلوس وتقول : «تحب أقول لك أيه اللى كان ناقص لى ؟ » .. وملابس التدريب العسكرى تتأرجح فى يدها وهى تقف تجاهه على عتبة الكلية وتبتسم فى وجهه ابتسامة من يأخذ طفلا صغيرا على قدر عقله .

ونفرت العروق فى جبين ليلى ، ولم تستطع أن تتخيل صورة رمزى وهو يسد الباب ويقول : « مافيش فايده » .

وفيما بعد حاولت أن تستعيد صورته فى مخيلتها فى أى وضع من الأوضاع ولكنها فشلت فى محاولتها .

واكتشفت ليلى أن صورة رمزى قد انطمست فى خيالها وكأنها لم تكن .

وهزت ليلى رأسها فى تعجب .. مم كانت تخاف ؟ ! من أبيها ؟ . من رمزى ؟ ! وابتسمت وهى لاتكاد تصدق أن كل ذلك حدث لهـــا ، لها هى ؟ !

وأمام عينيها انبعثت صورتها وهى تندفع الى أرض المعركة ، والعدو يتراجع أمامها .. لابد ، لابد وأن ترى العدو وهو يتراجع من بورسعيد وهى تستطيع .. كل شىء تستطيعه ، لا شىء أصبح الآن مستحيلا .

وقفزت ليلى من سريرها فى انفعال ، وعيناها تتألقان ببريق وهاج . وبدأت تدور حول نفسها وهى تحاول أن تجمع حاجياتها ، وكأنهـــا لاتعرف من أين تبدأ ، واصطدمت يدها بملابسها المعلقة على الشماعـة ولم ترها . وعادت تدور حول نفسها وهى تبحث عن حاجياتها .

وتوقفت ليلى فى وسط الحجرة وعيناها تتطلعان الى الأمام وتتوهجان وكأنها ترى رؤيا رائعة الجمال ، وسمعت صوتا يناديها واستدارت وهى تمد ذراعيها الى الأمام وتصيح : حسين .

وأفاقت ليـلى حين لم تجد فى الحجرة أحـداً ، وبيـدين ثابتتـين ، وبشفتين مطبقتين ، بدأت تجمع حاجياتها .

ولكن حسين كان معها كما لم يكن قط من قبل ، وكأنه أصبح حقيقة تستطيع أن تمد يديها وتحتويها .. وعيناه تذوبان فى نظرة حنان وهو يميل بوجهه نحو وجهها ، وأنفاسه تثير شعرات على خدها الأيمن فتعيد تسويتها ، وتستأنف جمع حاجياتها بيدين ثابتتين ، وبشفتين مطبقتين

- ٢٩ -

بدأت حركة المقاومة مع بدء احتلال القوات الانجليزية والفرنســية لبورسعيد ، وفى كل يوم كانت حركة المقاومة تتضخم ، وهى تضم اليها مزيدا من الرجال والنساء .

وتحت قيادة منظمة تفرقت وحدات المقاومة ، متخفية فى البيوت وفى عيادات الأطبـاء ، وفى المحلات التجـــارية ، وفى كل ركن من أركان بورسعيد .

وفى بيت قديم فى شارع عبادى ، وفى شقة مواطن مصرى ، وقف

خمسة شبان يدرسون مواقع تجمعات العدو ، والطرق المؤدية الى هذه المواقع على خريطة كبيرة لمدينة بورسعيد ·

وكان هؤلاء الشبان ينتمون الى سلاح المهندسين بالكتيبة الرابعة المشاة التى حمت انسحاب القوات المسلحة فى طريق أبو عجيلة — الاسماعيلية ، ثم تحركت الى بورسعيد لتعزيز الدفاع عن المدينة ·

ومن بين هؤلاء الشبان الخمسة ، كان حسين عامر ، الذى عاش المعركة فى كل مراحلها منذ أن بدأت فى سينا حتى انتهت بانسحاب العدو من بورسعيد ·

* * * *

وبعد بدء حركة المقاومة بأسبوع قابل حسين محمود ·

كان حسين قد كلف بتوصيل بعض التعليمات الى وحدة من وحدات المقاومة ، وعندما دخل الحجرة التى يجتمع فيها أفراد الوحدة ، اكتشف أن من بينهم محمود ·

وارتجفت يدا حسين وهو يعانق محمود ، وفى صعوبة تمالك نفسه وبدأ العمل الذى جاء من أجله ·

ولخص محمود نشاط وحدته ، وبدأ حسين يخبر الموجودين بالنجاح الذى حققته بقية الوحدات فى ميدان المقاومة ، وسادت المجتمعين فرحة معتدة والمستقبل يتفتح أمام أعينهم ·

وارتجف الرجاء فى قلب حسين ·

وحين انفرد حسين بمحمود بعد الاجتماع سأل عن ليلى · وعندما علم بالدور الذى قامت به فى المعركة طلب مقابلتها ، وحدد له محمود موعدا ·

وقبل الموعد المحدد خرجت سناء ، وتركت ليلى تنتظر حسين فى البيت ·

* * * *

وعلى عتبة الباب المفتوح وقفت ليلى تواجه حسين ·

ورفعت رأسها اليه وهى تتلقى نظرته التى انصبت على وجهها ، ووقفا هكذا ، بلا كلام ، وعيناها فى عينيه ·

وفى عينيها تفجرت العاطفة التى طال كبتها ، والفرحة المزهوة بهذه العاطفة ، وفى شفتيها ، وفى وجنتيها ، وفى أطراف أصابعها وفى كل ذرة من جسدها • وكأنها نور شــــفاف ينساب مع الدم الذى يجرى فى عروقها •

وفى نظرته تتالت الدهشة ، ففرحة غامرة ، لقد جاء ليراها وربمـــا للمرة الاخيرة ، واكتشف فجأة أنه سيصبح كل يوم على وجهها ، جاء وهو يحسب أنها فتاة رجل آخر ، وحبيبة رجـل آخر ، واكتشف وهو يقف على عتبة الباب المفتوح ، أنها فتاته هو ، وحبيبته هو ، انها له هو •

وفى عينيه تدفق حنان سنين ، وشوق سنين ، وحرمان سنين ، وفرحة كادت تفقده توازنه •

وبصوت يرتجف ناداها ، وبيدين ترتجفان قربها منه •

وعلى صدره العريض أراحت رأسها ، وودت لو توقف الزمن وظلت هكذا تريح على صدره العريض رأسها ، وقلبها ينتفض فوق قلبه ، مع قلبه •

ويداه تنتفضـــان على شـــعرها ، وتنسحبان الى كتفيها تتحسسانها من جديد ، والفرحة تعتصر قلبه ، والحلم لم يعد حلما ، والسراب الجميل أصبح حقيقة فى أحضانه •

وشعر حسين برغبة جارفة فى أن يتأمل وجه ليلى ، وفى رقة متناهية مسح بظهر أصبعه على أسفل ذقنها ، ورفعت اليـــه وجهها ، وبعينين يترقرقان نادته ، وبشفتين منفرجتين ، وباشراقة لفتهما سويا •

وأمال حسين وجهة الى وجهها ، وفى بطء سعت شفتاه الى شفتيها وكأنه يريد أن يستوعب اللحظة ، وكأنه يضن بها ، ويخشى أن تنقضى •

وأرتجفت شفتا حسين على شفتى ليلى ، ولفتهما نشوة أشبه بالغفوة

ووصلت الى سمعيهما خطوات تدب فى الشـــارع ، خطوات ثقيـــلة رتيبة •

وتبددت الغفوة •

وجمد وجه ليلى وارتسمت الكراهية فى عينيها ، واعتدل حســـين وهز رأسه وكأنه يفيق من حلم على حقيقة كئيبة •

واستدارت ليلى وسارت الى النافذة ، واقفل حسين باب الشقة ولحق بها .

* * * *

وفي حرص أزاحت ليلى طرفا من الستار الذى يغطى النافذة ورأت داوريه انجليزية تمر بالشارع الخالى ، وشعرت بانسحابة فى قلبها وكأن نصلا قد اخترقه .

وارتطمت يد ليلى بالنافذة وهى تعيد الستار الى مكانه ، واحتك الخاتم الذهبى بالزجاج محدثا رنينا . وبسطت ليلى يدها ، وهى تنظر فى استغراب الى خاتم الخطوبة ، وكأنها كانت قد نسيت أنه يحتل أصبعها .

وعادت ليلى تزيح الستار ، وعاد النصل يخترق قلبها من جديد . وقالت فى صوت هامس وهى تتابع الداورية التى كادت تختفى من الشارع :

- دى مش النهاية ياحسين .

وقال حسين فى شىء من الاستنكار :

- دى مش أول مرة تسأليني السؤال ده ياليلى .

وابتسمت ليلى ابتسامة خفيفة واستدارت تواجهه وهى تقول :

- دا مش سؤال يا حسين ، أنا با أقرر حقيقه .

وسارت فى خطوات هادئة الى مقعد مواجه لحسين وجلست .

وتركزت نظرة حسين على وجه ليلى ، وجذب انتباهه شىء لم يره قط فى عينيها حتى وهى فى أوجها .. مزيج من الاعتداد المطمئن ، ذلك المزيج العجيب النادر الذى لاينعكس الا فى عينى انسان وجد طريقه ، وعرف بتجربته أنه من القوة ، بحيث يستطيع دائما أن يقف الى جانب مايعتقد أنه الصواب .

وقال فى رقة وهو يقترب منها :

- أنت اتغيرت ياليلى .

وهزت ليلى كتفها هزة خفيفة وقالت :

ـ ومين ما اتغيرش ياحسين ؟ •

واستقرت نظرتها على حسين لحظة وتهدج صوتها وهي تقول :

ـ ودلوقت حانعمل ايه ؟

وكادت الكلمات تتدفق جياشة من فم حسين ، ظن لأول وهلة أنها تشير بسؤالها الى مستقبلهما معا ، ثم توقفت الكلمات على لسانه ، أدرك بقدرته العجيبة على فهمها انها تعنى بسؤالها شيئا آخر ، أعم وأشمل

وقال بعد فترة توقف :

ـ القيادة علمله حساب كل شيء ، وحركة المقاومة بدأت فعلا •

ـ وانت ؟ مشترك •

وهز حسين رأسه بالايجاب دون أن يتكلم •

ومالت ليلى برأسها الى الامام ، وقالت :

ـ وأنا ؟ •• اقدر أساعد في حاجه ؟

واستقرت نظرة حسين على الخاتم الذهبي الذى يطوق أصبع ليلى وقال في استفزاز :

ـ تقدرى ؟

ـ عندك شك ؟

ولانت ملامح حسين في ابتسامة ، وهز رأسه وهو يستبعد الشك في قدرتها ، وقال في صوت هامس ينبض بالحنان •

ـ أنا طول عمرى وانا مؤمن بك •

ولمعت عينا ليلى بالدموع وهي تقول :

ـ حتى لما كنت مش مؤمنة بنفسي ياحسين •

ولكن شيئا ما كان يشد نظر حسين الى الخاتم الذهبي ويجعله يقول في صوت غاضب :

ـ وانت حاتعملى ايه ؟

وقامت ليلى واقفة وهى تقول :

ـ جايه وياك ٠

وحين رأت الدهشة التى ارتسمت فى وجهه ابتسمت وهى تقول :

ـ عايزه أنضم للمقاومة ، مش تقدر ترشحنى ؟

وابتسم حسين وهو يهز رأسه فى تعجب ، وقال فى خفة :

ـ كفايه مفاجآت النهارده ، أحسن أعصابى ما عدتش مستحمله ٠٠

وضحكت ليلى ضحكة قصيرة ، وقالت فى عناد طفولى ٠

ـ حاترشحنى ولا لأ ؟

وقال حسين وهو يختبر مدى صلابتها ٠

ـ المسألة مش سهله يا ليلى ، مش مسألة يوم ولا اتنين ، المقاومه جايز تطول ، وجايز تقتضى انك تختفى شهور ٠

واستدارت ليلى وهى تقول :

ـ حاجيب البالطو ٠

ووضع حسين يده على كتفها يستوقفها ، وأدارها برفق اليه ، وقال وهو يركز عينيه فى عينيها ٠

ـ وأهلك ياليلى ؟

ـ محمود يبقى يطمنهم على ٠

وتنهد حسين فى ارتياح ، واستدارت ليلى ومضت الى حجرتها

وحين اختفت علا الوجوم وجهه وهو يفكر ، وكأن شيئا ما يحول بين سعادته وبين الاكتمال ٠

وخرجت ليلى من حجرتها وقد لبست معطفا أبيض فوق ثوبها الصوف الأبيض ٠

وأشرق وجه حسين حين رآها ، وكأن كل مخاوفه قد زالت وكأن كل أحلامه قد تحققت ٠

وقالت ليلى :

ـ يللا بينا ٠

وسبقت حسين الى الباب المفتوح ٠

٣٠

كانت شوارع بورسعيد تزدحم بالناس ، أمواج متلاطمة من الناس وكأن البيوت قد خلت من سكانها ، وقذفت بهم الى الشارع موجة أثر موجة ، لتختلط ببحر مائج من الناس ·

. وناس يضحكون ، وناس يبكون بالدموع ، وهم لا يعرفون أى دموع هذه ، أهى دموع الفرح بالخلاص ؟ أهى دموع الذكريات الأليمة التى طغت فجأة على السطح فى يوم الجلاء ؟ أم هى دموع التطلع الى مستقبل أفضل ؟

وناس يحملون لافتات النصر ، وناس يهتفون ، وناس يرقصون على الوحدة ، وناس يصفقون وملء قلوبهم نشوة النصر ، وملء عيونهم الغد وفى أعماقهم آدراك أن ما حدث كان لابد وأن يحدث ، ان ما حدث كان ثمن النصر ·

وناس خرجوا يحملون الزهور الى موتاهم ، ولم تصل الزهور الى موتاهم ، فى الطريق نثروا الزهور على موكب النصر ، موكب الغد · فمن أجل الغد مات موتاهم ·

* * *

وعند نقطة التقاء القناة بالبحر ، وعلى مبعدة من تمثال دلسبس ، وقفت جموع من الناس تنتظر فى سكون ، وشاب فى ثياب المقاومة الشعبية يقف على آخر درجات سلم مرتفع ويحفر بمثقاب حفرة فى جسد التمثال ·

وفى هـذه اللحظة لم يكن التمثـال تمثـال بالنسبة للشـاب الذى يحشو الحفرة بالمفرقعات ، ولا بالنسبة للنـاس الذين ينتظرون الانفجـار واجفى الأنفاس · كان رمزا لكل ما توارثوه عن عصور من العبودية والاستعمار ، رمزا يشدهم الى ماضى بغيض ويحول بينهم وبين الاندفاع الى مستقبل أفضل ·

وكان لابد وأن يتحطم الرمز ·

ومال الشاب على قاعدة التمثال ، وأشعل الفتيل ، وتراجع الى الخلف منضما الى الجماهير ·

ومادت الارض من أثر الانفجار ، وعلت موجة من الدخان والتراب حجبت الرؤية ٠

ثم علت همهمة استنكار ٠

وصاحت ليلى فى انفعال ٠

— الراس ، الراس بس اللى انهدت ٠

لم يتحطم سوى رأس التمثال والطلاء ، وبقى رابضا مكانه كما لو كانت جذوره ممتدة فى الأرض ٠

وأمسك حسين بيد ليلى

وتململ محمود فى وقفته ، رأى نفسه وهو يدفن وجهه فى كفيه ويقول بعد حريق القاهرة : هدر ، دم وراح هدر ٠

وغامت عينا سناء ، وهى تتذكر فجأة أباها وأمها اللذين قاطعاها من يوم زواجها بمحمود ٠

وارتجفت يد ليلى فى يد حسين ، ورأت جميلة ممددة على الشيزلونج وصدقى يركع الى جانبها ، وسمعت رمزى يقول : « دى قوانين طبيعة ، الطبيعة عايزه كده » ٠

وصرخت ليلى فى انفعال :

— الأصول ، ضرورى الأصول ٠

وعادت تصحح جملتها :

— الأساس ، المهم الأساس ٠

وتدافعت الجماهير فى اصرار فى اتجاه التمثال ، وضاقت الحلقة حوله من جديد ، وارتفع الشاب على السلم ، وبدأ يحفر التمثال بالمثقاب

واستغرقت العملية مدة أطول هذه المرة ، كان عليه أن يصل الى الأعماق ، الى اعماق الأعماق ٠

وحين فرغ من عمله وأشعل النار فى الفتيل ، ردد الفضاء صدى انفجار كبير ٠

وتناثر التمثال وقاعدته الى أشلاء ٠

وتنهدت ليلى فى ارتياح ...

وتردد في أذنيها صوت انفجار آخر فى المعركة ، انفجار يعلن موت عصام وموت أعدائه ، ورأته يقفز كالنسر من فوق السور والدماء تنزف من جراحه ، ويده اليمنى مطوية على قنبلة ، ووجهه الشاحب يتألق بشفافية أثيرية ، وعيناه تلمعان ببريق وهاج ، وكأنه يرى رؤيا رائعة الجمال .

وارتفع صوت الناس كالهدير وانطلقوا فى موجة جارفة الى الأمام وملأوا المسالك المتفرقة من المكان .

* * *

أمسك حسين بيد ليلى حتى لايفقدها فى الزحمة التى ابتلعت محمود وسناء .

ودفعت الجماهير ليلى وحسين ، وانفجرا يضحكان وهما يندفعان وكأن موجة عاتية تحملهما الى الأمام .

وخف الضغط ، ولم تتوقف ليلى ، استمرت تجرى ويدها فى يد حسين ، وهي تضحك ضحكاتها القصيرة المتقطعة كوقع الاجراس الموسيقية .

كان لابد لها أن تندفع ، أن تجرى ، أن تضحك ، أن تفعل شيئا بهذه الفورة من السعادة التى ترفرف كجناحي الطائر، في صدرها وفي شفتيها وتحت بشرتها وفي أطراف أصابعها .

ونظر حسين الى شعر ليلى الذى تناثر على جبينها والى الوهج الذى يتألق فى عينيها ، وأدرك أنها قد استعادت الاشراقة التى انتظر طويلا ليراها من جديد .

لقد قابل ليلى مرتين أثناء فترة المقاومة ، ولم يكن فى عينيها هذا البريق ، ولكنه عاد ، ومعه الاشراقة التى كادت تجعله يصرخ حين رآها فى المصعد لأول مرة .

وخفق قلب حسين بالفرحة ، وضغط على يد ليلى التى رقدت فى استسلام فى يده .

وصاحت ليلى فى انفعال :

– حسين

ولم يكن بها حاجة الى أن تصيح ، كان حسين قريبا منها ، يكاد كتفه يلمس كتفها ، ومع ذلك صاحت من جديد بصوت يتهدج :

– حسين ٠٠ أنا عايزه أوريك حاجه ٠

وتوقفت ليلى وسحبت يدها من يد حسين ، وبسطتها الى الأمام فى انتصار ٠

وأدرك حسين أن ليلى قد رمت خاتم الخطوبة ٠

وأمسك بكتفها وصاح وصوته يرتجف بالانتشاء :

– أنت حره ، حره ياحبيبتى

وأرخت ليلى ذراعيها ، وشعرت بسكينة حلوة تتسلل الى جسمها سكينة أجمل وأعمق من الفورة التى كانت تختلج فيه ، ونظرت الىحسين وابتسمت ٠

وتقدمت الى الامام وحسين لايرخى عينيه عنها ٠٠ لا ليست نفس الاشراقة القديمة ، انها اشراقة جديدة ، الأولى كانت فورة ، لمعة تبرق لتنطفىء ، كالشمس فى يوم ملىء بالغيوم ٠ أما هذه فنور هادىء دافىء متصل ، نور ينبع من الداخل ٠

وتنهد حسين فى ارتياح وهو يقول :

– أخيرا ٠٠ وصلنا ٠

وتألق وجه ليلى وهى تنظر الى الامام وكأنها ترى رؤيا رائعةالجمال

وقال حسين :

– كام سنة واحنا منتظرين اليوم ده ؟

وطافت عينا ليلى بالناس وهم يهللون فى انتصار ، وقالت :

– العمر كله ٠

وركز حسين عينيه فى عينيها ، ومر بأصبعه على ذراعها ، ورق صوته حتى كاد يهمس وهو يقول :

- أنا وانت ياليلى ٠

ولمعت الدموع فى عينى ليلى :

- العمر كله برضه ياحسين ٠

وبطؤت خطوات ليلى وحسين ، وران الصمت بينهما لحظة والانفعال يثقلهما ٠

وأرادت ليلى أن تتخفف من حملها ، وأمالت رأسها الى كتف عصام ولمعت عيناها بنظرة فيها شقاوة ، وقالت وكأنها تلعب لعبة مسلية :

- دى النهايه يا حسين ؟

وأشرق وجه حسين وكتم ضحكته وهو يجاريها فى لعبتها :

- دى مش أول مرة تسألينى السؤال ده يا ليلى ٠

وانفجرا ضاحكين كطفلين يلهوان ٠

وساد الصمت بينهما من جديد ، وهما يتطلعان الى الجماهيرالمتدفقة أمامهما وخلفهما ، وكأنها موجة عاتية منتصرة جارفة تندفع الى الأمام ٠

وقال حسين وعيناه تزدحمان بعمق عاطفته :

- دى البدايه يا حبيبتى ٠

مكتبة الأسرة

بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب